

obeikandi.com

طاها

العنوان

طاها فى باريس

المؤلف

عاطف يوسف

الطبعة الأولى 2016

الناشر

ليليت للنشر والتوزيع

رقم الإيداع

الترقيم الدولى

الغلاف

كريم محمد

جميع الحقوق محفوظة

السيمفونية الخالدة

الجزء الثانى

طاها فى باريس

التاريخ: 1/1/2016

السيمفونيةُ الخالدةُ

الجزءُ الثاني

طاها

في باريس

عاطف يوسف

رواية

ليليت للنشر والتوزيع

obeikandi.com

إهداء

إلى الأديبة الناقدة جون ميللر  
التي ساعدت في جمع مادة السيمفونية الخالدة

obeikandi.com

تجدید ذکری طاها حسین

هفت الحنیفة والنصارى ما اهدت \* \* ويهود حارث والمجوس مُضَلَلَةٌ

اثنان أهل الأرض: ذو عقلٍ بلا \* \* دین، وآخر دینٌ لا عقل له

أبو العلاء المعري

obeikandi.com

## تمهيد

(1)

جاء في كتاب "في الشعر الجاهلي" لطاها حسين أن الأدب العربي في الخمسين سنة الأخيرة قد انحدر وأصابه المسخ والتشويه ، بسبب مجموعة احتكرت اللغة العربية وآدابها بحكم القانون. وهذا أمرٌ ليس خليقاً بأمة كالأمة العربية ، كانت منذ عرفها التاريخ ملجأً الأدب وموئلاً الحضارة. عصمت الأدب اليوناني من الضياع . وحث الأدب العربي من سطوة العجمة وبأس الترك والتتر.

الأدب العربي ، يجب أن يُعتمد في درسه على إتقان اللغات السامية وآدابها. وعلى إتقان اللغتين اليونانية واللاتينية وآدابهما. بالإضافة إلى تفهم التوراة والإنجيل والقرآن. إذ كيف السبيل إلى درس الأدب العربي ، إذا لم نعلم بدراسة هذه الموضوعات كلها؟ فهل نظن أن من شيوخ الأدب في مصر من قرأ إلياذة هوميروس وإنيادة فرجيل ؟ لقد كان الجاحظ أديباً لأنه كان مثقفاً قبل أن يكون لغوياً أو بيانياً أو كاتباً. وكان يُتقن فلسفة اليونان وعلومهم وسياسة الفرس وحكمة الهنود. وكان على علم بالتاريخ وتقويم البلدان . ولو عاش الجاحظ في هذا العصر لحاول إتقان الفلسفة الألمانية والفرنسية. وهذا ما يفعله بالضبط أستاذ الأدب الإنجليزي أو الفرنسي اليوم. يكفي أن تنتظر في أدب أبي العلاء المعري لترى أننا في حاجة إلى علوم الدين الإسلامي كلها. وإلى النصرانية واليهودية ومذاهب الهند في الديانات؛ وهذا لكي نفهم شعر أبي العلاء. فالأدب لا يمكن أن يثمر إلا إذا

اعتمد على علوم تُعينه، وعلى ثقافة تغنيه.

اللغة العربية لغةٌ مقدسة، لأنها لغة القرآن الكريم والدين. ولأنها مقدسة فلا تخضع للبحث العلمي الصحيح الذي قد يستلزم النقد والتكذيب والإنكار والشك على أقل تقدير. أما طاهها حسين فيريد أن يكون تدريس اللغة العربية وآدابها، شأن العلوم التي ظفرت بحريتها من قبل. فدراسة الأدب العربي اليوم تقتصر على مدح أهل السنة، وذمّ المعتزلة والشيعية والخوارج والكفار. وليس في ذلك شأنٌ ولا منفعة، ولا غاية علمية بالنسبة لأدب اللغة العربية. فالأدب العربي شيءٌ والتبشير بالإسلام شيءٌ آخر. فمثلاً إذا أمرت السلطة السياسية الكُتّاب والمؤرخين أن تكون كتاباتهم ودراساتهم مقصورة على تأييد السلطة السياسية، أليس الكُتّاب جميعاً - إن كانوا خليقين بهذا الاسم - يؤثرون أن يبيعوا الفول والكرات على أن يكونوا أدوات في أيدي الساسة، يفسدون بهم العلم والأخلاق.

لقد أغلق أنصارُ القديم على أنفسهم في الأدب باب الاجتهاد كما أغلقه الفقهاء في الفقه، والمتكلمون في الكلام. فما زال العرب ينقسمون إلى بائدة وبقاوية، وإلى عاربة ومستعربة. وما زال أولئك من جُزهم وهؤلاء من ولد إسماعيل. وما زال امرؤ القيس صاحب "قِفًا نَبَكٍ..."، وطَرْفَة صاحب "لِحْوَلَة أَطْلال..."، وعمرو بن كلثوم "أَلَا هُتِي...".

لكنني - والكلام هنا لطاها حسين - شككتُ في قيمة الأدب الجاهلي، وألححتُ في الشك، وانتهيتُ إلى أن الكثرة المطلقة ما نسميه أدبًا جاهليًا ليس من الجاهلية في شيء. إنما هي منحولة بعد ظهور الإسلام. فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم، أكثر مما تمثل حياة الجاهليين. وما بقي من الأدب الجاهلي الصحيح قليل جدًا، لا يمثل شيئًا، ولا يدل على شيء، ولا ينبغي الاعتماد عليه في

استخراج الصورة الصحيحة لهذا العصر الجاهلي. فالشعر الذي يُنسب إلى امرؤ القيس أو إلى الأعشى أو إلى غيرهما من الشعراء الجاهليين لا يمكن من الوجهة اللغوية والفنية أن يكون لهؤلاء الشعراء. ولا أن يكون قد قيل وأذيع قبل أن يظهر القرآن. لذلك لا ينبغي أن يُستشهد بهذا الشعر على تفسير القرآن وتأويل الحديث. وإنما ينبغي أن يُستشهد بالقرآن والحديث على تفسير هذا الشعر وتأويله. فحياة العرب الجاهليين ظاهرة في شعر الفرزدق وجريير وذي الرمة والأخطل والراعي أكثر من ظهورها في هذا الشعر الذي يُنسب إلى طرفة وعنزة وبشر بن أبي خازم.

أما أسباب نحل الشعر الجاهلي كما سردها طاها حسين، فهي سياسية ودينية. فبعد هجرة الرسول إلى المدينة نشأت عداوة بين مكة والمدينة. اصطبغت بالدم يوم انتصر الأنصار في بدر، ويوم انتصرت قريش في أُحد. فوقف شعراء الأنصار وشعراء قريش يتهاجون ويتجادلون ويتناضلون.

يدافع كل فريق عن أحسابه وأنسابه، ويُشيد بذكرى قومه. وبعد فتح مكة بقليل، وبعد أن توحدت قريش مع الأنصار توفي الرسول ولم يضع قاعدة للخلافة، ولا دستورًا للحكم لهذه الأمة التي جمعها بعد فُرقة؛ فعادت هذه الضغائن إلى الظهور. واستيقظت الفتنة بعد نومها. وزال الرّماد الذي كان يُخفي الأحقاد. فاختلف المهاجرون من قريش مع الأنصار في الخلافة. أين تكون؟ ولمن تكون؟ وكاد الأمر يفسد بين الفريقين لولا حَزْم نَفَرٍ من قريش وقوة قريش المادية. فأذعن الأنصار، وقبلوا أن تخرج الإمارة إلى قريش. إلا سعد بن عبادة الأنصاري الذي أبى أن يبايع أبا بكر، وأن يبايع عمر. وظل يمثل المعارضة. قوي الشكيمة، ماضي العزيمة، حتى قُتل غيلة في بعض أسفاره. وزعم الرواة أن من قتله الجَنّ. ولما قُتل

عمر وانتهت الخلافة إلى عثمان أصبحت الخلافة في بني أمية. واشتدت عصبية الأمويين، واشتدت العصبية الأخرى بين العرب. وبعد مقتل عثمان وافتراق المسلمين انتهى الأمر كله لبني أمية، بعد تلك الفتن والحروب. فالعصبية وما يتصل بها من المنافع السياسية قد كانت من أهم الأسباب التي حملت العرب على نحل الشعر للجاهليين. فابن سلام يعترف بأن أهل العلم قادرون على أن يميزوا الشعر الذي ينحله الرواة في سهولة. لكنهم يجدون مشقة وعسراً في تمييز الشعر الذي ينحله العرب أنفسهم.

لم تكن العواطف والمنافع الدينية أقل من العواطف والمنافع السياسية أثراً في تكلف الشعر ونحله.

وإضافته إلى الجاهليين. فكان هذا النحل في بعض أطواره يقصد به إثبات صحة وصدق النبي. وكل ما يتصل ببعثته من أخبار وقصص. تُروى لتقع العامة بأن علماء العرب وكُتبانهم وأخبار اليهود وrehبان النصارى، كانوا ينتظرون بعثة نبي عربي يخرج من قريش أو مكة.

كما كان هناك لون آخر من الشعر المنحول نُسب إلى الجاهليين من عرب الجن، فالأمة العربية لم تكن أمة من الناس فقط، وإنما كانت هناك أمة أخرى من الجن تحيا حياة الأمة الإنسية. وكانت تقول الشعر. وأنطقوا الجن بضروب من الشعر وفنون من السجع، ووضعوا على النبي نفسه أحاديث، لم يكن بُدّ منها، لتأويل آيات القرآن على النحو الذي يريدونه ويقصدون إليه. وفي طبقات الشعراء لابن سلام نجده يثبت أن الشعر الذي يلجأ إليه القصاص لتفسير ما جاء بالقرآن الكريم من أخبار الأمم القديمة البائدة لعاد وثمود ومن إليهم هو شعر منحول، وضعه ابن إسحق الذي لم يكتف بذلك وإنما نسب الشعر إلى آدم نفسه،

حين زعم بأنه رثى هايبيل حين قتله أخوه قابيل.

وسبب آخر لنحل الشعر، ظهر عندما اتصلت الحياة العلمية عند العرب بالأمم المغلوبة والموالي؛ فأرادوا أن يدرسوا القرآن درسًا لغويًا، ويثبتوا صحة ألفاظه العربية ومعانيه، فحرصوا على أن يستشهدوا على كل كلمة من كلمات القرآن بشيء من شعر العرب يُثبت أن هذه الكلمة القرآنية عربية لا سبيل إلى الشك في عربيتها.

وكانت هناك أيضًا خصومات بين العلماء. كان لها تأثير غير قليل في مكانة العالم وشهرته ورأي الناس فيه. فاستشهدوا بشعر الجاهليين على كل شيء. فالمعتزلة مثلًا، يثبتون مذاهبهم بشعر الجاهليين. إلا أن هذا الشعر الجاهلي المنحول استغله بعض المستشرقين للنيل من الإسلام. فيرعم "كليمان هوار" في فصل طويل نُشر في المجلة الآسيوية عام 1011م، أنه قد استكشف مصدرًا جديدًا من مصادر القرآن الكريم وهو شعر أمية بن أبي الصَّلْت. وأن الرسول قد استعان به في نظم القرآن الكريم.

أما طاهّا حسين فهو يرتاب في شعر أمية بن أبي الصَّلْت. ويقول إنه حتى إذا جاء في شعر أمية أخبارٌ وردت في القرآن كأخبار ثمود وصالح والناقة والصيحة، فن الذي زعم أن ما جاء بالقرآن الكريم من أخبار كان مجهولًا قبل أن يجيء به القرآن؟ ومن الذي يستطيع أن ينكر أن كثيرًا من القصص القرآني كان معروفًا بعضه عند اليهود، وبعضه عند النصارى، وبعضه عند العرب أنفسهم. أما شعر أمية بن أبي الصَّلْت إنما نُحِل نُحَلًّا. نحله المسلمون ليثبتوا أن للإسلام قدمة وسابقة في البلاد العربية. ومن هنا لا نستطيع أن نقبل ما يضاف إلى هؤلاء الشعراء والمتحفيين إلا مع شيءٍ من الاحتياط والشك غير قليل. فالقرآن الكريم وحده

هو النص العربي القديم الذي يستطيع المؤرخ أن يطمئن إلى صحته، ويعتبره  
مشخصاً للعصر الذي تُلي فيه.

وهكذا يتكرر فصل جديد مأساوي في ملحمة تاريخ البشرية . حينما يصطدم  
الجديد بالقديم .

والعلم بالمتوارث . فكل ما نعرف هو الصحيح واليقين . وما لا نعرف هو  
الخطأ البين . وكلما قلّت معارفنا ، كلما زادت ثقتنا فيما نعلمه . وزادت ضراوتنا في  
الحفاظ على هذا القليل . فالعقل جريمة واستخدام الفكر خطيئة . إذا حاولنا أن  
يصحّح أفكارنا ومفاهيمنا الخاطئة . هذا بالرغم من تعاليم الإسلام الواضحة ، التي  
تأمّرننا بوجود استخدام العقل والفكر في كل الأمور . وكما يقول العقاد: "وجوب  
استخدام العقل في الإسلام فريضة واجبة" .

\*\*\*

2

تلك اللحظة أثرت لها لكي نلمح في ذكرى طاها حسين إن كان ملحدًا أم كافرًا  
أم مسلمًا متعمدًا مثقفًا فليس ذلك بذى شأن فيما نحن بصدده في هذه الرواية.  
نحن لسنا بصدد إعادة محاكمة طاها حسين ولا تقييم ما قدم ولا ما اختلف حوله  
المختلفون ولا تحامله على الأزهر ولا فصله من الجامعة ولا فضله في حرية التعليم .

نحن بصدد رواية، رواية خلق الكاتب فيها طاها حسين خلقًا جديدًا وسوّاه في  
أحسن صورة لم يعهدها لا معاصروه ولا مناصروه ولا مخاطبوه.

لست في حاجة لأن أقدم طاها حسين لأنّي لم أضف جديدًا لما سكّب منه

وعليه من لعنات وهجاء ومديح. لن أتعرض لكفره أو إلحاده، ولا لورعه وانتائه بل الذي يهمني أن أرسم له شخصية روائية أحركها كيفما أشاء، وأنشد على لسانها ما أريد أنا أن أنشد. نحن لسنا في معرض تقييم من قيمه التاريخ وسرد فيه ما سرد، وناقش أبا العلاء المعري ما طاب له وأح في النقاش وهو يعلم أن أبا العلاء أنكر وجود الله مرة وأقره مرات، ولعن الإسلام مرة ومدح الإسلام مرات، وأنكر وجود النبي محمد مرة وأقره مرات. ألح المعري في الإلحاد كما ألح طاها والحكيم، وتراجع المعري عن إلحاده لنفس أسباب عودة طاها والحكيم وهو أكل العيش. أما فلسفاتهم وأفكارهم فظلت ثابتة غير محايدة، بل وضعوا الشك أمام ناظرهما ليكون يقيناً ودليلاً على ما هما فيه من وما تصبوا إليه نفسهما من تقدم ورفعة بلادهما، وإن استجابا للشك الديكارتي بدرجاتٍ متفاوتة إلا أن الشك بدأ عند العرب بالجاحظ وانتقل إلى أوروبا، فكان الشك الديكارتي وإلغاء التاريخ.

وهذا ما وقع فيه طاها والحكيم من خطأ فقد ظننا أننا لا نستطيع أن نلغي ما تعلمناه ليصبح عقلنا صفحة بيضاء كما ذهب إلى ذلك ديكارت، لأنه ليس من المعقول لرجل كطاها درس التاريخ وإن كان تاريخ الآداب أن يلغي ما وصل إلى عقله ويبدأ من العدم. أو كما نبه ديكارت بأنه يفكر فهو إذن موجود، وسأيره في ذلك الحكيم وبالرغم من وجهة فلسفة ديكارت في الشك ليصل منه إلى اليقين إلا أن ذلك لا يهمننا نحن في شيء، لا يقين الجاحظ ولا شك ديكارت ولا طاها ولا الحكيم بالرغم من أن هدفهم كان واحداً وهو رفعة بلادهم وتقدمها إلى عصرها الحديث؛ ل يتمتع أهلها بالحرية والعدالة والكرامة، خاصة في تلك الأيام التي يتعرض فيها الوطن لهجمة المسلمين المتوحشة.

أما عاطف يوسف فكان له رأي مغاير: لا الشك ولا الله ولا الدين ولا الرسل

ولا الحركة ولا السكون ولا السماء واليوم الآخر، بل المهم الأوحده هو ما لم يكمله لا طاها ولا الحكيم ولا رفاعه الطهاوي ولا أبو العلاء، بل وضع تلك المعتقدات كلها جانبًا ليسير فيما عجز أبي العلاء وطاها والحكيم عن الإفصاح عنه، وتكملة رسائلهم لخير المجتمع ورفعته أمتنا العربية حتى الوحدة الشاملة بعيدًا عن أي معتقد ديني. لا يهمننا أن نثبت أو ننكر وجود الله ولا الرسل ولا اليوم الآخر، بل الذي يهمننا في المقام الأول هو تقدم المجتمع ليصل إلى عصر المعرفة دون أي عائق ديني أو معتقد إلهي. نحن نؤمن بأن المجتمع العربي قادر على كل إنجاز وتقدم؛ إذا آمن المجتمع بنفسه وقدرته وعزيمته على تخطي هذا الوازع الديني الذي يكبل أفرادها، ويعطل تفكيره، ويأخذ من عقله حيزًا ليس بالمستهان به ليكون خاضعًا دائمًا لحكم جائر، سواء كان أبًا أم رئيسًا أم زعيمًا، أم سلطانًا أم أميرًا أم أستاذًا، إم قسيسًا أم شيعيًا أم راهبًا أم إلهًا، عندما يفكر المجتمع العربي ككل سيصل إلى أعلى المراتب، وعندئذ تكون معتقداته التاريخية ليست إلزامًا له ويمارسها بعيدًا عن احتياجات الفكر الجماعي الشامل للمجتمع.

\*\*\*

أحب طاها حسين باريس، وجمعه في هذا الحب توفيق الحكيم ورفاعة الطهاوي، لكن لكل منهم باريسه الخاصة والتي يتوحشها ويصبو إليها، وفراقه عنها يؤلمه. أما رابعهم فهو أنا عاطف يوسف الكاتب، شاهدٌ على حبه لتلك المدينة التي إن عشت فيها بعضًا من الوقت أخذت كل الوقت، وإن أكلت في مطاعمها شفيت كل الوقت، وإن شربت من مقاهيها سكرت كل الوقت. إن عشق طاها لباريس ليس كعشق الحكيم لباريس ولا عشق رفاعه، وما أنا إلا شاهد عليهم في ربيعهم ومارساتهم وأحوالهم في تلك المدينة التي سلبت

لبيهم وأصبحت معشوقتهم. وهذا هو الذي جمعهم في تلك المدينة أو الجنة التي سنكتشف سرها في تجوالنا معهم كما وقفنا مع الحكيم، ولكل حبه وشغفه بتلك المدينة الساحرة.

3

ليس غرضنا من كتابة هذه السيمفونية الخالدة عن طاها حسين أن نُؤرخ له أو نأخذ عليه مأخذًا، لأن ما كتبه وما كتب عنه غني عن التعريف له أو عنه، أما ما نحن بصددده فهو الانتقال معه إلى جنته التي اختارها لتكون موطنًا لفكره الذي لامه فيه موطنه الأصلي، وهنا يلزم علينا أن نعرّف القارئ بطاها حسين الفرنسي الذي أحب باريس حب العباد، ومن أجلها تجرد من كثير من معتقداته التي اكتسبها بحكم العادة والنشأة و التربية، هدم الأصنام ليعيد تشكيل نفسه أولاً وفكره ثانيًا، هذه النشأة التي لم يجد فيها من نفسه أي هوى وليس له دخل فيها بل كانت الأقدار التعيسة هي التي أوجدته هكذا . ومن المحبب أن نعرف السبب الذي من أجله خلع عباءة الأزهر وارتقى في حضن باريس ليخلق من جديد، هذا الذي أراد أن يرسل شعاع ضوء إلى بلده وإلى وطنه العربي لتواكب تلك المدينة والتقدم الذي تاق إليها حتى قبل أن يضع قدمه على أعتاب الجنة الباريسية، طاها الأعمى الذي أحب مدينة النور، والذي لم يعيش فيها بل عاشها وتشبعث مسامه من ضوءها حتى تحول جسده إلى ضوء يشع حبًا وإخلاصًا ووفاءً.

"الأعمى" تلك السببة التي كاد بها أن ينتحر لازمته في الدرس، وطاردته صبيًا، وأزعجته شابًا وطالب علم، "الأعمى" تلك العاهة النكراء من أجلها أحبته باريس

وذاق شهد العسل حتى سكر حبًا وتقديرًا وشرقًا، تلك العاهة التي حطت منه ومن شأنه كإنسان في بلد الأزهر بل في داخل أروقة الأزهر، فبلاد الديانات لم تعرف أن الدين المعاملة حتى أنكره وخرج منه رافع الرأس مشدود القامة كله خيلاء وحبًا في الدنيا وإقبالًا عليها، تلك بلاد الفرنجة التي أعطت لحياته معنى، معنى كريمًا حرًا، معنى كإنسان. أما في بلاد الدين والأزهر وقباب الكنائس والمعابد فلم يجد فيها المحبة والمساواة والصدق والإخاء الإنساني الذي وجدته في بلاد الفرنساوية، أو غيرها من الأمم الأوروبية، والتي يصبو فؤاده أن تماثلها بلاد الديانات السماوية التي لم يشب فيها الإنسان حتى إلى السحاب فضلًا عن السماء، ما زالت بلاد الله الشرقية تزحف إما على ركبتيها أو بطنها، عاجزة ذليلة تتسول لقمته دون أنفة أو كبرياء.

بلادًا ناقلة للحضارات وليست فاعلة للحضارات، بلادًا تمتلك مؤهلات نفسها لترفع قامتها لكنها غافلة عن قدراتها. تشخذ خبزها وتخشى أن تطلب حقها في أرضها، تستجدي الموارد ومواردها نهبًا للآخرين، حتى أصبحت مسخًا ممسوخًا.

رفعها طاهها إلى الأعلى وسبته، ضمها ورفضته، عشقها وكرهته، فبأي آلاء رب تكفرونه. طاهها في غنى عمّن أهانه وسبّه بالعمى وتاقت نفسه الأبيّة إلى أن يكون فكان. آمن بنفسه وبديكارت، عشق الأدب فهل من المعري، وتركه أخوه فصادق الحكيم فكان لحياتهما معنى في مدينة النور. طاف مع الحكيم كعبة الحياء من مقهى إلى مسرح، ومن مسرح إلى ملهى ومن قاعة درس إلى قاعة لهو، وكونا فكروا وعلمًا وحادثة. لكن عودتهما المأسوف عليها إلى وطنهما كانت طامة كبرى لأفكارهما الخالدة، تلك التي قصصتها الأنظمة المستبدّة وأزهرهم الشريف. من شك الحكيم إلى شك طاهها الذي نبه إلى أن قيمة الإنسان في أنّه يفكر ... في أنّه

يشك. وهنا عندما نتحدث عن الشك ، أو نقول عن شيءٍ إنه ديكارتي، فهذا يعني أنه عقلاني. وعندما ننطق بكلمة عقلانية نرى فيها ارتباطاً وثيقاً بالحدثة . الحدثة التي قلصت في الغرب المجالات الغامضة والمبهمة في العلاقات التي تربط الإنسان بالوجود ، وأزاحت كل ما يعترض التفكير الحرّ.

هذا ويتفق العديد من المؤرخين والفلاسفة، أنه مع ديكارت الذي يعدُّ أبا الفلسفة الحديثة أصبح الإنسان يستمدُّ يقينياته من ذاته، وليس كما كان الشأن عليه في العصور الوسطى الأوروبية وعصورنا الوسطى الإسلامية الآن، من تعاليم عقيدة أو سلطة أخرى غير سلطة ذاته. ويتفقون أيضاً أنه مع ديكارت صارت القاعدةُ المعرفيةُ "أنا أشكُ إذاً أنا موجود" محورَ التفلسفِ.

وكما تعرّض فلاسفة السيمفونية الخالدة لكثيرٍ من الملاحظات القانونية والدينية الإسلامية كان ديكارت يتعرض لملاحقة الإرهاب الأصولي المسيحي؛ لأنه كشف زيفَ الأخطاء الشائعة التي تفرض نفسها وكأنها يقينيات لا تُمسّ ولا تُناقش، وفي مقدّمها بالطبع القول بأن الأرض هي مركز الكون، وإن الشمس تدور حولها وليس العكس. وهي مقولة أرسطاطاليسية وبطليموسية كانت الكنيسة في القرن السابع عشر قد تبنتها وخلعت عليها المشروعية القدسية، ومن ثمّ فمن يعترض عليها يعترض على الدين. ومن هنا أصبح طاها معلم الفلسفة اليونانية، وعندما يقول طاها للأصوليين والأزهريين بأن للدين مجاله، وللعلم مجاله، ولا ينبغي الخلط بينهما يردّون عليه بآية من العهد القديم أو العهد الجديد وآيات القرآن الكريم لا تحصى في شأن تغريب العقل، وهم يردونها دون مللٍ أو وجل. وقد حاول طاها كما حاول جاليله أن يشرح أكثر من مرة أنه يحترم العقائد الدينية كل الاحترام، ولكنه مضطر إلى استخدام أدوات القياس والحساب والتجريب العلمي إذا

ما أراد فهم العالم الطبيعي، واستخراج القوانين التي تتحكم فيه. ولكن عبثًا كانوا يوقفونه عند حدّه. ففي رأيهم كل شيء موجود في الكتاب المقدس توراة أو إنجيل أو قرآن، وينبغي أن يؤخذ بحرفيته حتى ولو تناقض مع أبسط قواعد المنطق والعلم الحديث.

ومن هنا تجرأ ديكارت الفيلسوف الفرنسي على أن يقوم بأكبر انقلاب فلسفي في تاريخ العصور الحديثة، من خلال اعتماده الشك في كل شيء: في العقائد، والعلوم، وفي الإنسان نفسه. إذ كان هدفه نقل المعرفة وموضوعاتها من الكونيات الإلهية إلى الفيزياء، ومن نظام العلل الأولى إلى أنظمة الميكانيكا، والتخلي عن النظر بعين الله إلى العالم. إضافة إلى تقديمه الإجابات على كثير من القضايا التي شكك فيها في كتابه «مقال في المنهج» من خلال تحرير نفسه من عالم الأحاسيس والآراء الخادعة التي لا تسمح له بالصعود من الوقائع إلى الأفكار لاكتشاف نظام العالم. وانتقاله إلى اعتبار العقل الإنساني قادرًا على بلوغ الحقيقة.

وعندما ينقل الكاتب الفرنسي مكسيم روفير عن ديكارت في الملف الذي وضعته المجلة الفرنسية "مجازين ليرير" قوله: "لقد أدركت منذ فترة أنني في سنواتي الأولى تعلمت عددًا من الآراء الخاطئة معتبرًا إياها حقيقية، وبنيت في ضوءها مجموعة من المبادئ، اكتشفت فيما بعد أنها غير أكيدة ومشكوك فيها. لذلك كان عليّ أن أتخلص منها". ويضيف ديكارت "إني أعمل بكل جدٍ، وبحرية على هدم كل آرائي القديمة". إن الغاية من الشك عند ديكارت - كما صار واضحًا - هي الهدم؛ هدم كل ما اعتاده الإنسان وتعلمه في صغره، هدم الآراء المسبقة حول الأشياء، وهدم الحقائق القائمة كالأصنام، واليقينيات التي تعتبر تحصيل الحاصل، ولا حاجة إلى إعادة التفكير فيها، هؤلاء الفلاسفة لم يخجلوا عن نقد أنفسهم

لوصول إلى الحقيقة، أما فلاسفة المسامين فلا للنقد ولا للحقيقة.

حتى جاء طاها حسين ديكرت العرب الأول والأخير كما يبدو. فهو يعلن من دون وجل أو خوف اقتدائه بديكرت في كتابه "الشعر الجاهلي" قائلاً: "أريد أن أصطنع في الأدب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه ديكرت للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث". والناس جميعاً يعلمون أن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هي أن يتجرّد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن ما قيل فيه خلواً تاماً". وراح طاها حسين يدعو إلى الأخذ بهذا المنهج في دراسة الأدب العربي القديم والتأريخ لها، وذلك بضرورة نسيان الباحث قوميته وكل مشخّصاتها، ودينها، وكل ما يتصل بها، وأن لا يتقيد بشيء.

وبناءً عليه اعتمد طاها حسين منهج الشكّ الديكرتي الذي حمّله على رفض الكثير من الروايات التي تتعلّق بالشعر الجاهلي. الروايات التي أحصاها المؤرخون في كتبهم من غير تثبّت ولا تحقيق لقلّة نصيبهم من النقد، ولعدم ثبوتها أمام البحث والتحليل. يكتب طاها حسين في هذا الشأن "هذا نحو من البحث عن تاريخ الشعر العربي جديد لم يألفه الناس عندنا من قبل. وأكاد أن أثق بأن فريقاً منهم سيلقونه ساخطين عليه، وبأن فريقاً آخر سيؤرّون عنه ازوراراً. ولكنني على سخط أولئك وازورار هؤلاء أريد أن أذيع هذا البحث، أو بعبارة أصح أريد أن أقيده، فقد أذعته قبل اليوم حين تحدّثت به إلى طلابي في الجامعة".

كان طاها حسين ينظر إلى الشعر من خلال نظرتة إلى الأدب حيث لاحظ أن هذا الأخير يخضع لرؤيتين متناقضتين: رؤية ترى في أقوال القدماء حقائق علمية تاريخية مساماً بها، ورؤية تضع علم المتقدمين كله موضع البحث. وهذا

من منطلق الشك المنهجي. وأعلن طاها حسين أنه من أنصار الرأي الثاني لأنه يريد "ألا تقبل شيئاً مما قال القدماء في الأدب إلا بعد بحث". وهكذا فإن طاها حسين لا يقبل آراء القدماء إلا بعد إخضاعها للبحث والتثبت الذي يلي الشك ويؤدي إلى الحقيقة.

إن في وسع طاها حسين بكلام آخر دراسة "الشعر الجاهلي" على الطريقة التقليدية، فيكترز الآراء المألوفة، ويقول أصاب فلان وأخطأ فلان. وبذلك تبقى الأمور على حالها، ولكنه أراد التغيير والتجديد بخلخلة الواقع الثقافي، فاختار لذلك طريقة المجددين الذين لا ينطلقون من رأي مسلم به، ولا يتقنون في إجماع القدماء. لقد قاده حسه النقدي الذي حصله بتتقفه

بالشك المنهجي الديكارتي إلى التساؤل هل هناك شعر جاهلي؟ وإن كان هناك شعر جاهلي فما السبيل إلى معرفته؟ وما هو؟ وبم يمتاز عن غيره؟.

قدم طاها حسين هذه التساؤلات وغيرها، واستنتج "أن الكثرة المطلقة ما نسميه شعراً جاهلياً ليست من الجاهلية في شيء، وإنما هي منتحلة مختلقة بعد ظهور الإسلام، فهي إسلامية تمثل حياة المسامين وميوهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين". وبحث عن الحياة الجاهلية في هذا الشعر فلم يجد لها أثراً واضحاً اللهم إلا في القرآن من ناحية، والتاريخ والأساطير من ناحية أخرى. التساؤلات التي انطلق منها طاها حسين في دراسته الشعر الجاهلي كان مدركاً نتائجها العلمية والعملية. فمن الناحية العلمية أراد أن يحضّ المستنيرين على إكمال مشروعهم التنويري في الحرية والعدالة والتقدم بمزيد من الأسئلة حول مشروعية السلطة الدينية والمعرفية والعلمية. ومن الناحية العملية أراد التوجّه إلى عامة الناس، وإلى تلك الفئة من العلماء الذين قنعوا بما عندهم من كلام الأقدمين بأن الشك

هو الطريق الملكي للوصول إلى الحقيقة.

وقد كان ديكرت يتعرّض في زمانه لمطاردة الأصوليين المسيحيين لأنه شكّك باليقينيات المطلقة التي تواضع عليها قومه حتى حرّم المس بها أو مناقشتها. وكذلك كان طاها حسين محل حصار الأصوليين المسلمين في زمانه لأنه شكّك بوجود الشعر الجاهلي. فسُحِبَ كتابه حول هذا الشعر من السوق بأمر من المحكمة، وأُحرق في بعض الأماكن. وهكذا حرّر ديكرت وطاها حسين بشكّهما فعل المعرفة ذاته في الوقت الذي كانت المعرفة تعتمد قبلهما على هيبة الأقدمين من العلماء ورجال الدين. وصار مرجعها معهما العقل الذي يفكر ويشكّك ويحلّل وينتقد باسمه وليس بأي اسم آخر.

ونحن في تلك الرواية من الخيال التاريخي سنكمل القصصات التي تركها الحكيم وطاها وحتى رفاة هناك على ضفاف نهر السين، سنبیح لأنفسنا أن نسبح في الفضاء الباريسي نبحت ونستقي ونلصق ونعيد كل ما تركه الخالدون هناك دون وجل أو نقصان أو خوف حتى من حكم بالإعدام.

لأن أعداء المدنية والتقدم والمعرفة لا يستطيعون أن يروا النهار يشرق على العالم العربي، وما أحوجنا اليوم أكثر من أي عصر سبق أن نتملى من فكر التراث العربي ونعيد ونزيد فيه وعليه حتى يتحقق حلم الخالدين لمصر والعالم العربي من علم ومعرفة.

أما هذا الأعمى فهو الذي يرى وسيرى حتى في أحلك الأيام سوادًا هذا هو الطاهّا: ( طاء، ألف، هاء ألف ) كما كان يحلو له أن يكتبها كما يسمعها وليس كما يكتبها القرآن.

obeikandi.com

## الفصل الأول

استيقظ على صوت تراشق ماء المطر على زجاج النافذة وعلى أردواز أعلى البناية، وشك أن تكون الشمس على موعد أو حتى النهار، وحتى شهر مارس في باريس حيث المطر صيفاً وشتاءً، أزاح الغطاء من على جسده الدافئ والذي كان يخاف أن يظهر من أطرافه طرفاً خشية العفاريت والجنّ رغم قراءته الفاتحة قبل النوم والحمد والشكر بعد النوم. يعرف الليل من النهار بأصوات الباعة الجائلين، وحي على الصلاة. هاب الليل لما يؤمّه من خشخشة الحشرات وزحفها في الأركان، وداخل شقوق الحائط وفي سلة العيش، وخزين الملابس، وبين الكتب العفنة الأزهرية منها وغير الأزهرية، هذا هو الليل الليلي، الذي لا ينم فيه بل يحوم مع عقله وفكره في عوالم الجن والشياطين، أما الملائكة فلم يكن لها وجود في تلك الغرفة ذات الرائحة العفنة والتي تعود عليها ولكنه لا يقبلها. وعليه أن يحمد الله على نعمته، هكذا قال له أخوه الأكبر وشيخه الأزهري.

تنبه إلى خربشة على الباب أشاعت في جسده وروحه الأهبة والنشاط، وبعثت في روحه كل أمل وقال في نفسه: ما هذا الذوق في الإيقاظ؟ وما هذا الجمال الذي يداعب الأذن؟ تعود على هذا النباش الخفيف، وتفتحت خياشيمه على رائحة الدفء والحنان، وطاف بمخيلته ما كان من إحسان والدته وأبيه عليه في قريته بأعالي الصعيد، وما به الآن من كرم وكرامة في باريس. نهض بنشاط وسعادة غافلاً عن كونه أعمى، واتجه إلى الباب مشدوداً برائحة "الكرواساه"

الساخن، وفتح الباب لها بالرغم من أن معها مفتاح الحجرة إلا أنها لا تجرؤ على الدخول دون استئذان ودون أن يسمح لها بذلك. وعاد بمخيلته كيف كان يدخل عليه إخوته وأصدقائهم الأزهريون بهرج ومرج وكأن هذا الملقى أسفل الحائط ليس بإنسان يشعر ويفهم ويتألم. والمصيبة أنهم غفلوا عن أنه يفكر، وبين هذا الملاك الذي ينبش على الباب ولا يدق عليه لتنبيه في تؤدة وحب وكرامة له ولها ... أذن لها بالدخول وشعر بابتسامتها وهي تلقي عليه تحية الصباح المفعمة بكل حب وأمل في يوم جديد، وفاحت رائحة الكرواساه والخبز بالشكولاتة والخبز بالزبيب وملأت الغرفة. أعدت القهوة باللبن، تلك التي استساغها منذ أن وطأت قدمه فرنسا قادمًا من مستعمرة الحماية البريطانية، والتي فرضت على شعبها أن يستسيغ الشاي باللبن صباحًا واستهلاكه بدون لبن طول اليوم، وربحت من ذلك شركة السير لبيتون من تجارة الشاي. حتى ثارت عليها أول مستعمراتها وانتفضت في ثورة الشاي الشهيرة وألقى الشعب الأمريكي في بوسطن كل حملات المراكب الإنجليزية المحملة بالشاي وأعلن ثوار بوسطن عدم دفع الضرائب على شاي السير لبيتون ولا الملكة المتعجرفة، ولم يتوقف الشعب الذي ثار ثورة التاجر أن يعلن استقلاله عن التاج البريطاني. وتسلم الشعب الأمريكي بالعلم والمعرفة وأصبح سيد العالم دون منازع. تذكّر صاحبنا ذلك ورفض شرب الشاي (أبو لبن) وحتى الذي لا لبن له، وفصّل القهوة واستساغها لسانه وحلقه وشمته، ليس حبًا فيها فقط بل كيدًا في المستعمر الذي سلب منه حتى جنسيته المصرية، وإن كانت ثورته هو لوحده اليوم، غدًا سيكون هناك الكثير وتعود الكرامة الإنسانية للمواطن، لأن إنجلترا أو حتى التاج الملكي ليس يقينًا وليس إجباريًا، وليس ملزمًا إلا للضعفاء وأصحاب النفوس الوضيعة. جلست سوزان قبالتها يرتشفان القهوة باللبن، ويقضيان المحبوزات الباريسية الشهية. واستعدت لقراءة صحافة اليوم على

مسمعيه من الصحف التي تعودت شراءها كل صباح، وكان خير اليوم صاعقاً للباريسيين والفرنسيين والأوربيين والعالم، وهو موت فنانة الفنانين "سارة برنارد" أو ملكة المسرح، وامتألت صفحات الجرائد عن آخرها بنجر موت الفنانة التي أثارت الجماهير بفنها وأبهتها وإعجاب الصحافة بها وامتلاكها ناصية قلوبهم. وكثير من المقالات لا يكتفي بالحزن الصامت أو الإعجاب المقتصد بل منهم من يفصل أن يروي ما سمع وما دار وما رأي، ومنهم من يصف ما أحسه وما شعر به حين شاهد سارة برنارد وهي تلعب دورها الخالد في غادة الكاميليا أو في النسر أو في المجد. افتتن كُتَّابُ الصحافة بما كان بينها وبين كبار الناس وزعمائهم في العالمين من صلوات قوية أو ضعيفة، متينة أو رثّة، وبما قدم إليها الملوك من تَجَلَّة، وأهدى إليها العظماء من تَكْرمة، وبجمالها الباهر وصوتها الساحر وأعاجيبها وألعيها وافتتانها بكل شيء، في الهزل والجَدِّ والتمثيل والتصوير والنقش والكتابة والعبث.

أكلت الصديقة قراءة "الفيجارو" في نعيها، وتوقف مستمعها عن قضم الكرواساه، ورشف القهوة بالحليب، وأكلت: وعن هذا الضعف الذي كان يلزم جسدها فيجعل حياتها في أكثر الأحيان معلقة بين اليأس والرجاء، أقرب إلى اليأس منها إلى الرجاء. وهذه القوة المدهشة التي كانت تلازم نفسها في كل وقت من أوقاتها. وكل طور من أطوار حياتها فتجشمها الأحوال وتكلفها الأعاجيب، وتشب بها من أوروبا إلى أمريكا، وإلى أستراليا وإلى مصر، ثم إلى فرنسا. ويقف الناس منها موقف الحائرين الدهشين الذين يعجبون ويُعجبون، وهم لا يدرون بهم يعجبون!!!

أبالذكاء النادر؟ أم بالجمال الباهر؟ أم بالصوت الساحر؟ أم بالقوة التي لا حدَّ لها؟ أم بالأمل الذي لا يخشى اليأس ولا يحسب له حساباً؟ أم بالنفس التي ليس

لها مثيل؟ أم بهذا كله كان الناس معجبون سواء منهم من أحبها وسواء منهم من أبغضها؟ كلُّ بها معجب، وكل لها مُكْبِرٌ في كل وقت وكل طور.

هذا بعض ما كان على صفحات "الفيجارو"، أما جريدة "الليموند" - والتي كان يرى فيها طاهًا حيادها وأسلوبها الراقى والبعد عن التهويل والإشاعات - فقُرأت له سوزان بعد أن عادوا إلى ارتشاف القهوة بالحليب وقضم الخبوزات التي بدأت تبرد: ولدت سارة برنار في باريس 1844 لأُم يهودية وأب مسيحي، ونشأت سارة في دير فتأثرت به ورغبت في أن تكون راهبة، لكن موهبتها كانت أعند منها وهويت التمثيل. وبعد عناء بهرث

الجماهير وقال فيها فيكتور هيجو لقد كنت عظيمة خلافة، لقد أثرت في أنا المجاهد الشيخ، ولقد كان الجمهور سعيدًا يملؤه الحنان فيصفق، أما أنا فكنت أبكي .

وقالت صحيفة الباريسيان: فُتِن الممثلون بهذه الممثلة التي كانت أحسن سفير نشر الدعوة الفرنسية في أقطار الأرض، وأحسن تمثيل للعقل الفرنسي والفن الفرنسي والأدب الفرنسي، حتى قارنتها الصحيفة بنابليون.

أما الفرانس سوار ففقد راحت تتحدث عن نبوغها الفني على لسان الناقد الفرنسي "بول لمتر" الذي كان بها مفتنًا وأن مصدر نبوغها ثلاثة أشياء : الأول صوتها الذهبي، والثاني حركاتها على المسرح، والثالث ذكاؤها.

غطت صفحات الجرائد السرير، وبدا التأثير على سوزان التي مسحت بمنديلها دمعة من أطراف عينيها، وشعر طاهًا بنشيجها فأشفق عليها، واكتفى بما سمع ليعرف من تكون تلك الممثلة والتي حاول أن يقارن عظمتها بأخت لها في الشرق

فلم يعثر مطلقاً على من تشابهها في الذكاء أو العظمة التي جعلت ملوك ورؤساء العالم يطلبون ودّها، وقال: أين نحن منها؟ بل أين نحن من الثقافة الكاملة والعلم الواسع والفكر المستقيم؟!.

بدأت سوزان في لممة الجرائد من على السرير وسألته إن كان قد انتهى من الإفطار؟ فأجاب بالإيجاب، وشرعت في رفع الأطباق وأدوات الأكل التي تعود عليها طاهها الذي لم يعد يخشى الآن من الأكل أمام الآخرين؛ لأنهم ردّوا له ثقته بنفسه وأعطوه كرامته المسلوبة.

قالت سوزان وهي تبتمس:  
- إنك دائم المقارنة حين تسمع الخبر فإما أن تقارنه بما في الشرق وإما أن تنكره.

ابتسم طاهها وقال:  
- لا يا سوزان، أنا لا أنكر شيئاً، بل قولي: إما أن أتيقن من الخبر وإما أن أشكّ فيه وأرجعه إلى أصله؛ لأتحقق من وجوده كما فهم العقل. وإن كنت تلمحين إلى موت سارة برنارد فلا أشكّ في ذلك، بل الذي أشكّ فيه هل في الشرق من هي على هذا المستوى والرفعة حتى وإن كانت مشخصاتية؟

ابتسمت سوزان من هذا التعبير وتساءلت:  
- ما معنى مشخصاتية؟  
- ممثلة أو ممثل. فهم ليسوا بدوي قيمة قانونية، ولا تعتدّ المحاكم في مصر بشهادتهم.

وبعد أن لمامث ورتبت سوزان الحجره قالت لصديقتها:  
- لا عمل اليوم. بل هو يوم وداع سارة برنارد. وقد حضر عديد من رؤساء العالم

لتوديعها إلى مثواها الأخير، واستعدت باريس لهذا التأبين خير استعداد؛ لأن الحكمدارية تتوقع أن يكون جمهور المؤدّعين أكثر من ستمائة ألف شخص، هل تحب أن تكون من المؤدّعين؟

- لقد ودّعناها للتوّ على صفحات الجرائد إلى أن سالت الدموع من عينيك، أما أنا فقد اغتممتُ غمًّا شديدًا عليها وعلى نشيجك من أجلها.

- أفهم من ذلك أنك لا تريد الزحام. عليك إذاً أن تسير بعضّ الوقت وأقترح عليك أن نسير الهُوَيْتِي على شاطئ نهر السين، أو نذهب إلى حديقة النباتات لنشم رائحتها الفوّاحة. ما رأيك؟

- أنت رائعة يا سوزان!. تخيريني دائماً بين الحسن والأحسن، وبين الرائع والأروع وبين الجميل والأجمل، تلك هي التربية الكاملة التي لم نتعودها في شرقنا، بل نُجَبِّر على شيء واحد حتى وإن خالف رغبتنا.

اتسعت ابتسامتها وأمالت السعادة رأسها الصغير قليلاً نحو كتفها الأيمن وهي تقول:

- عليك أن تختار، وعليّ أن أصطحبك، وسأكون سعيدة باختيارك.  
- هذا هو الذوق الراقى، أنت راقية يا صديقتي. ولا بأس من التنزه في حدائق النباتات وأنت إحدى زهورها.  
- أشكرك يا صديقتي العزيز.

انتهى من ارتداء ملابسه كاملة. ولم ينسَ رباط العنق الذي أهدها إليه صديقٌ مصري، رباط (بأستك) يوضع حول الرقبة دون حاجة لعقدة الرباط التي لم يكن طاهاً يتقنها.

استقلَّ المصعد وهبطا من الدور السادس إلى صالة استقبال فندق الشرق،

وحياهما العاملون وتأبطت سوزان ساعد طاها الأيسر وهما يتجهان إلى حديقة النباتات التي لا تبعد عن الفندق. وعندما خرجا من الباب نهته سوزان لأن يتجه إلى اليسار فيكون طريقه إلى جامعة السربون أو أن يتجه يمينًا فيصل إلى حديقة النباتات، وعبرا شارع كردينال لموان، ونهته إذا شعر ببروز تحت قدميه فمعنى هذا أنه على حافة الرصيف، وتلك نقطة عبور الشارع، وعند سماع صفير فمعناه أن الطريق آمن للعبور، وذلك شارع لينييه، وعلى يسارك جامعة العلوم وإذا واصلت السير في ذلك الشارع ستصل إلى حديقة النباتات التي تبعد دقائق معدودات على اليد الواحدة جهة اليسار.

قال طاها مبتسمًا في امتنان:

- هذا شرح وافٍ حتى لأعمى مثلي (وضحك وضحكت معه) واستطرد: إذاً أستطيع أن آتي إلى هنا كلما اشتقتُ لذلك في حرية دون إزعاج أحد. أنت هنا في باريس حرٌّ.

- وتريدني مني أن أكف عن النقد والمقارنة بين بلد الأزهر وبلد السربون!!  
- أنت هنا لست بأعمى؛ لأن الناس هنا لا ينظرون إليك بذلك المنظار العاجز عن فهم الآخر بل أنت رجل كامل، وقد وفرَّ لك المجتمع كل وسائل التنقل والصعود والهبوط، وضمن لك القانون كل الحقوق، كما طالبك بالواجبات، إذاً نحن لسنا في مجتمع عاجز بل منتج، وكلُّ في موقعه .

وبينا يسيران في شارع لينييه سمع خريز ماء على يساره فسأل صديقه عن هذا الخريز الذي عشقه شعراء الأندلس فأجابته:

- إنها نافورة مياه أنشأتها ملكة فرنسا ميدي سيس التي كانت تعشق هذا الفن، وأنشأت في كل ركن من أركان باريس نافورة. أما تلك النافورة التي تلامس رخامها

البارد فهي متسعة لملاك بارتفاع طابق فاردًا جناحيه الكبيرين حاملاً سيفًا، وتحت قدميه تينٌ في بركة ماء وحولهما العديد من الملائكة. واستطردت سوزان:

عندما تسمع هذا الخرير فأنت أمام بوابة دخول الحديقة، وما عليك إلا الدخول ملامسًا سلكًا أملس يحيط بكل مكان، وينبهك من وقتٍ لآخر إلى أسماء النباتات واتجاه السير بحروف بارزة تستطيع قراءتها بأطراف أصابعك.

وتركت يده وهما يدخلان الحديقة وهي تسير بجواره يتحادثان، وروائح الأزهار تفوح ملء الأنوف والصدور، والنباتات بأسمائها اللاتينية التي وجد فيها طاها عاملًا مساعدًا لدراسة تلك اللغة التي لم ينجح فيها مصري قط.

وسألت سوزان :

- وما حكاية الأندلس وخرير المياه؟!

- عندما افتتح العربُ القادمون من الصحارى الجرداء بلاد الأندلس هالمهم فيها كثرة المياه وهي نادرة في بلادهم؛ فبنوا القصور والمتنزهات الخضراء وزينوها باختراع عربي فريد وأطلقوا على هذا الاختراع اسم نافورة. وقد صنعت على هيئة أسد أو حيوان مائي، وأججهم صوت خرير المياه فاسترخوا ونعسوا بجواره. وأطلق الشعراء حناجرهم بالتغني بخرير الماء العذب المخدر. وانتشرت الجواري والرقص والخمر. وبدلاً من أن تكون تلك البدعة وسيلة للزينة أصبحت وسيلة للاسترخاء، وتعطل العقل العربي حتى جفّ. وانحسر العرب كماء البحر إلى مستوى الصفر أو أدنى، وبقيت النافورة تعبيرًا حضاريًا في أوروبا. ولم يبق لها وجود حتى في بلاد حوض النيل!. حتى أن نافورة باب شرقي المصنوعة من الرخام الإيطالي الأبيض بمدينة الإسكندرية وهي مفخرة وزينة المدينة فككتُ ونُقلت إلى بيوتات أحد حكام عصر مبارك في الليل وتحت حماية الشرطة التي تعسكر

أمام النافورة بالضبط.

قالت والدهشة راسمة بين حاجبيها الرقم مائة وأحد عشر:

- أتريد أن تقول لي دون وَجَل أن بلادكم هادمةٌ للحضارات؟!!!

- بل هذا ما أراد حكمانا أن يقولوه ويفعلوه اليوم وغداً.

- ولماذا اخترت حديقة النباتات للتزُّه اليوم وليس شاطئ نهر السين؟

حدثني صديقٌ مصري عن تلك الحديقة وما بها من عجبٍ مُجَاب. فأردتُ أن تكون أول زيارةٍ لي إليها معك فأنت خير أنيس فرنسي أتعلم منه ما لا أعلم.

أنتت عليه سوزان بإيماءة من رأسها المستدير وقالت:

- ثم ماذا؟

استطرد طاهها قائلاً:

- إنه - أي صديقي المصري - حدثني عن صديقٍ شابٍ له أراد أن يتعرف بي، وهو يأتي دائماً إلى هذه الحديقة خاصة قرب إغلاقها قبيل غروب الشمس.

- والآن حتى إن لم يكن معك أحدٌ ليدلك على الطريق فقد عرفته. وتستطيع

أن تأتي إلى هنا كلما رغبت في المجيء للقاء أصدقائك أو حتى للاستجمام وحدك.

- ما أجمل هذه البلاد التي يشعر فيها الأعمى بحريته التي لم يجدها في بلاده.

- سنعود إلى المقارنة مرةً أخرى.

- لا أستطيع أن أخفي ما أنا به من سعادةٍ في هذه البلاد.

- لأن هذه البلاد لا تُشعر أحدًا بعجز إن كان لديه ما يسميه عجزًا، لأنه كما

قلت لك كل حسب قدرته العقلية والجسدية.

في الشرق يعيرون من لديه نقص ما في جسده بأنه عاجز، أو أعمى أو

مكسح، أو أعرج أو بذراع واحدة، حتى لو كان ما ينقصه عقله أصعب، وكل ذلك يهين الشخص، ويقلل من كرامته ويُشعره فعلاً بالعجز.

- أما هنا فلا نُشعر من لديه هذا النقص بالعجز، ولا نتطوع بمساعدة ضيرٍ على عبور شارعٍ إلا إذا طلب هو ذلك، ولا نتطوع بمساعدةٍ آخر على الكتابة أو الوصول إلى عنوان ما إلا إذا طلب ذلك؛ لكي لا يشعر بفرق بينه وبين الآخرين.

قرأتُ في إحدى المجلات خبرًا جانبيًا عن أحد المحلات الكبيرة الأمريكية مثل سهاريتان هنا أو محلات الربيع أن ذلك المحل عين أحد الأشخاص وهو مشلولٌ تمامًا إلا من عقله أصبع يده اليمنى، وهو يجلس على كرسيه المتحرك وتحت أصبعه زرٌّ يضغط عليه ليلصق قطعة ورق مستديرة في حجم العملة ذات لون زاهٍ على غلاف السلعة التي يريد الزبون إعادتها للمحل.

وبدون الدخول في تفاصيل عمل هذا العامل فإنه يعمل نصف يوم ويأخذ أجره كاملاً، والناس تتجه إليه، وكلُّ يأخذ مكانه مبتسمين سعداء به دون أن يشعروه بأن شيئاً ينقصه مُكبرين هذا الموقف لإدارة المحل التي لم تُفرق بين شخص وآخر بسبب النقص الجسماني. والذي ليس بنقصٍ في نظر الشخص نفسه، بل في نظر الآخر.

- أنت منبهة بهذه البلاد.

- طبعًا فهم سبقونا في كل شيء.

- إلا الفلسفة يا سوزان.

سنعود إلى النقد والتفلسف.

- آسف ... سنتحدث عن الربيع ولقائنا وصدقتنا.

- أعرف صديقك المصري ؟

- نعم تعرفينه، إنه الحكيم.

- توفيق؟!

- نعم، هو توفيق الحكيم.

- هو الذي خلف ميعاده في زيارتنا بجبال الألب .

- نعم هو، وهو لم يخلف ميعاده. بل لا يستطيع البعد عن باريس.

- ألهذه الدرجة يحب تلك المدينة؟

- ينتقل فيها كما ينتقل بين العصور، ويرحل من حي لآخر كما يرحل بين القارات،

فهو خبير بمقاهي باريس العامرة بالأدب والفلسفة والحكمة.

- أهو يدرس مقاهي باريس أم القانون؟!

يدرس ما يجده صالحًا له ولديه القدرة على هضمه. وهو لا يدرس كما يدرس

الطالب بل كما يدرس العارف. فالذي قرأه عن القانون أضعاف ما هو مقرر

للحصول على درجة الدكتوراه التي أرسله أبوه إلى باريس لينالها.

- وهل تلك رغبتك أم رغبة أبيه؟

- هي على وجه التحديد رغبة أبيه؟

- هل أعرفُ صديقه الشاب ؟

- لا، لا تعرفينه. لأنني لم أعرفه كذلك.

- ومن يكون يا ترى ؟

- إنه شاب قادم من المستقبل!...

- ماذا تقول؟

- أقول كما قال لي الحكيم إنه قادم من المستقبل، وقد تعرّف على أهل مبرناس

والسان جيرمان، وأثنى عليه الرسام دالي، والفيلسوف أندريه بریتون وكل

السورياليزم؛ لأنهم وجدوا فيه أفكارهم المستقبلية. أما الشاب فهو يعيش المستقبل ورأوا في ذلك فكرة تستحق الدرس.

- عليك بمقابلته.

- قال لي الحكيم إنه التقى بي في الشارع، ورأنا سويًا أنت وأنا.

إذًا فهو يعرفك.

- لا أظن، لأنني جئت قبله.

\*\*\*

## الفصل الثاني

شارع المدارس أو "ري دي زيكول" بالمنطقة الخامسة ملتقى الفكر الفرنسي منذ أن تفلسفت فرنسا على العالم. يضمّ الشارع عديدًا من المدارس والجامعات والمعاهد، نخص منها بالتنويه صرحين هائلين للعلم وهما جامعة السربون في أول الشارع، ويليهما "الكليج دي فرانس" وكلاهما في قلب الحي اللاتيني العامر بأزقته المتعرجة. والتي ليس من السهل الخروج منها خاصة عند زيارتك لهذا الحي لأول مرة. لكن الحكيم تعوّد على الحي لما فيه من مطاعم صغيرة ورخيصة اعتاد التردد عليها، ومقاهٍ وبارات ومكتبات عامرة بأنواع الكتب والمعرفة. والحي مزدحم دائمًا بالطلبة لأنه ملتقى الشباب والفلاسفة. ويشاركهم في ذلك البوليس الذي لا يغفل ولا تطرف له عين حفاظًا على الأمن والسلام الاجتماعي والدولي أيضًا باعتبار أن

هذا المجتمع يتألف من أناس ينتمون لعدة دول. ويتمركز البوليس على الضفة الأخرى لنهر السين باسطاً ذراعيه داخل الحي اللاتيني عبر عيون وآذان حادة السمع والبصر. الحي يؤمه طلابُ العلم من العالم أجمع؛ لينهلوا من نهر المعرفة. والنقاش فيما ينفع أو لا ينفع كلُّ حسب طلبه. فمنهم من يطلب العلم ومنهم من يطلب اللهو ومنهم من يطلب الجنس، ومنهم من يطلب الخمر ومنهم من يطلب المخدرات ومن يطلب الأكل ومن يطلب الفنادق الرخيصة. وهكذا لا يغفل البوليس ولا ينام في الحي اللاتيني الذي يمتد بطول جادة سان ميشيل غرباً وشارع سان جاك شرقاً وشارع سوفلو جنوباً ثم نهر السين شمالاً. وتقطع جادة السان ميشيل من الشمال إلى الجنوب في عشرين دقيقة إن لم تتوقف وإن توقفت أمام كل محل ومحل ستستغرق يوماً. أما عرضاً فالمسافة أقصر وتقطعها سيراً خفيفاً في خمس عشرة دقيقة. هذا هو الحي العتيق المتلألئ ليلاً ونهاراً بالعلم والمعرفة والمقاهي والمطاعم .

انتهى طاهاا للتوّ من إلقاء كلمة عن أبي العلاء المعري في الكوليج دى فرانس، وبفرنسيته الأكاديمية التي لا يُخطئها متحدث تلك اللغة من أبنائها بذلك المعهد الأكاديمي، ذلك الذي لا يناظره في مصر إلا الأزهر، مع الفارق طبعاً .

أما الحكيم فبعد استماعه إلى محاضرة عن الأدب اليوناني بجامعة السربون التي على بعد خطوات من المعهد يتوجه لاصطحاب صديقه طاهاا إلى الغداء في الحي الذي لا يهمد. وكان مقصدهم مطعم البلقان اليوناني الذي تعودا عليه منذ أن وطأت أقدامهما الحي اللاتيني. وسأل طاهاا :

- كيف عرفت هذا المطعم؟

- بنايوتي خادماً المطعم من الإسكندرية.

- هل عرفته من هناك؟

- لا، بل تعرفت عليه هنا، لأن الطهي اليوناني يشابه الطهي السكندري.

- تحدثتُ مع بنايوتي عديد المرات، فهو يتقن اللاتينية ويعمل بها كجرسون في

مطعم للطلاب من مطاعم الدرجة الثالثة.

- هكذا الأوروبي يعمل ما يُتاح له. وليس للشهادة أو الدرجة العلمية دخل

فهو يدرس للدرس ويعمل ليعيش.

- سار الصديقان جنبًا إلى جنب حتى وصلا شارع السان سيفران الضيق

الذي به مطعم البلقان. استقبلهما بنايوتي بفرنسيته التي تشوبها اللكنة اليونانية،

والتي كان ينشط لها ذهن طاها. تصالفا على عادة الفرنسيين في اللقاء والوداع

بالرغم من أن كليهما لا يعرف الآخر، وأعد لهما الطاولة المفضلة وبأدرهما بتقديم

المشروب الأبريتيف الكحولي الفاتح للشهية. وجاذبه طاها الحديث ببعض

الكلمات اللاتينية، تلك اللغة التي كان بنايوتي قديرًا في الحديث بها. وامتلاً المطعم

تدريجياً بالطلاب وعمال المنطقة. وكان كل زبون يدخل يأخذ حقه من الترحيب،

فكلهم المفضل لدى الجرسون البشوش ذي السنّ الباسم والكرش البارز والقامة

القصيرة، وكأن آلهة اليونان وضعت فيه كل ما هي في غنى عنه ... وضع طاها فوطة

الأكل على صدره وتحسس أدوات الأكل من شوكة على يمينه وشوكة على يساره،

واستعد للأكل بينما بنايوتي يردد بالفرنسية:

- "بون أبتى" ... أي أكلًا هنيئًا. فيقول طاها من بين ابتسامته :

- شيء غريب أن أكل هنا بحريتي! وقد كنت هناك خلف البحر المالح لا

أجرؤ على أن أكل مع أحد.

- لماذا؟! وما كان يمنعك؟!

- هناك طبق واحد للجميع يغتفون منه بأصابعهم. وكنت في بعض الأحيان

أخطئ الطبق أو يقع شيء من الطعام على صدرى فيضحك الآخرون.  
- لذلك فضلت أن تأكل لوحده.

- كان هذا أفضل لي حتى في الأزهر وعيش الجراية الذي كان يندس في المحلة  
مع القرآن الكريم.

- أنت هنا في فرنسا لا أحد يهزأ بك ولا حتى ينظر إليك.

- ثقتي هنا بنفسى زادت من إعجابي بتلك البلاد.

- لم يتقدموا من فراغ.

- تقدمت اليوم من المنصة بعد سماع اسمى لإلقاء كلمة عن أبي العلاء المعري.

- نعم قلت لي ذلك وما تم فيها.

- الأهم من أبي العلاء أن منظم الدرس وهو العالم مارجليوث نزل من المنصة

ليصطحبني لمكان إلقاء الكلمة، ولم يلقبني بالأعمى كما فعل شيوخنا الأزهريون  
عليهم اللعنة.

- التواضع سيد الأخلاق.

- هذا السيد الذي أختلف معه كثيراً فيما ذهب إليه يعاملني معاملة الصديق.

وعندما كنت أختلف مع شيوخنا - وأنا على حق - كان الشيخ يرغى ويزبد، ويلغى  
الدرس أو يلغيني من الدرس.

هكذا يعاموننا التواضع وهنا يهذبون أخلاقنا بالفهم والشرح والرأي والرأي  
الآخر.

- وماذا قلت عن أبي العلاء المعري اليوم؟

- أنت تعرف أيها الحكيم أني لا أقول إلا ما أنا مقتنع به بعد تحليل ودرس

علمي يقبله التاريخ والعقل. وكان السؤال عن الأمية.

- يتمسك المسلمون بمقولة أن الرسول محمد بن عبد الله كان أمياً، لا يعرف القراءة والكتابة كواحد من البراهين على أنه لم يؤلف القرآن الكريم.

- وهل يستقيم هذا القول مع التاريخ أو المنطق؟

- أو قل هل حقاً يشترط في مؤلفي الكتب أن يعرفوا القراءة والكتابة بأيديهم؟

- ليس شرطاً أن يكون المؤلف كاتباً أو قارئاً.

- وبناءً عليه ضربتُ مثلاً بأبي العلاء المعري، فإن كان تعريف الأمية أن لا يعرف المرء الكتابة والقراءة فلا شك أن أبا العلاء المعري كان أمياً.

- هذا صحيحٌ، لأنه فقد بصره في الرابعة على أثر إصابته بالجدري. ولم يتحقق تاريخياً أنه تعلم القراءة والكتابة في تلك السن.

- وما لا شك فيه أن أبا العلاء المعري من أكثر الكتاب العرب في التاريخ غزارةً في الإنتاج وسموّاً في المحتوى وعمقاً في المعنى.

- هذا صحيحٌ، ويكاد يكون هناك إجماع بين اللغويين والأدباء على أنه لم يتمكن أحد من التفوق أو حتى مساواة عبقرية أبي العلاء في أسلوبه اللغوي والشعري والفكري.

قلت إن مؤلفات أبي العلاء تجاوزت المائة والتسعة بين كتابٍ ورسالة، ومطولة من الشعر والنثر.

غير أن أخطر كتبه وأشهرها كتاب رسالة الغفران. وألقيتُ فيه كلمةً، والنادرة رسالة الملائكة، ثم ديوان سقط الزند ولزوم ما يلزم.

- بالإضافة إلى كتبٍ موسوعيةٍ ضاعت في مجاهل المكان والزمان مثل كتاب الأيك والغصون والهمزة والردف، والذي وجدتُ بعضاً من نصوصهما في المكتبة القومية في باريس، يحفظونها خوفاً من ضياعها في بلاد أبي العلاء كما ضاعت رأسه مؤخراً في بلده من غوغاء الأسد كما ذكر لي صديقي المصري.

عقّب طاها على قول الحكيم بأن نوعية إنتاج أبي العلاء لا زالت للآن تستعصي على الغالبية الساحقة من قرائه، سواء من ناحية الإحاطة بمعناها أو الوصول إلى كتابة تظاهيها في الجودة والعمق والكمال. فهل يحق لنا أن نقول إن هذا الرجل المعجزة كان أميًّا أو أوحى إليه؟ - وكيف أنهيت موضوعك الذي سيمنعك من العودة إلى مصر؟

- العودة إلى مصر أمرٌ حتميٌّ لا ريب فيه. حتى إن أخفيتُ ما نحن بصدهه في محراب العلم الفرنسي. وما انتهيتُ إليه اليوم هو هل تكفي عدم القدرة على القراءة والكتابة لنفي أن أحدهم أَلَّفَ كتابًا ما؟ وهل يكفي - إن نحن سلّمنا بأن محمّدًا لم يعرف القراءة ولا الكتابة - أن ننفي أنه أَلَّفَ القرآن؟ علمًا بأن القرآن إن ابتعدنا عن القدسية ليس إلا خليطًا بدائيًا غير متناسق المحتوى وبعضًا من التاريخ، وهو مليء بالأخطاء العلمية والقوانين البدائية، وقد ذهبْتُ إلى أبعد من ذلك فهو أبعد ما يكون عن كونه كتاب ألفه رجل عبقرى بدوي فضلًا عن الله الذي نشكُّ في وجوده أصلًا.

- هل استجاب لك الحضور؟

- منهم من شكّ ومنهم من أيقن ومنهم ذو عقل ومنهم ذو غيبة.

- لم أفهم مسألة ضياع رأس أبي العلاء المعري في مسقط رأسه.

- قال لي صديقي الشاب المصري أن ما أطلق عليه الربيع العربي ما هو إلا وهمٌ وضلال إن كان في تونس أو مصر أو اليمن، وبالأخص في سوريا التي لم ينكسر حكامها أمام عواصف الربيع العربي، بل إن حكامها وعلى رأسهم ابن حافظ الأسد بشار عاثوا هدمًا في البلاد طولًا وعرضًا، وكأنها الحرب العالمية التي شقت أوروبا إلى نصفين. وقد لحق الدمار والخراب بسوريا من جيش سمى نفسه بالجيش الحرّ وجيش آخر يُسمّى بجيش النظام وبين الاثنين مجموعات إسلامية

متطرفة لا يؤمنون بالعلم ولا بالعقل، ورأوا في التماثيل خروجًا عن الإسلام وشرع  
الله فأطاحوا برأس تمثال أبي العلاء المعري ثم نسفوه كاملاً.

- وأين الشعب السوري؟

- اعتُصرت تحت ويلات القنابل بكل أجمامها، والغازات بكل روائحها، والموت  
بات يحصد بكل قوته الغاشمة.

- لن يتحرر العرب ولن تصحو الأمة العربية إلا بعد أن تضع الدين جانبًا  
وتتجه إلى نفسها، وتأخذ بأسباب العقل ليكون محكَّ الحكم على الأشياء وليس  
النص الديني. هذا ما نسعى إليه.

- نحن نسيرُ في نفس الاتجاه لإنقاذ العرب من أنفسهم.

نهم بنايوتي الجرسون بأدبه المعهود إلى أن موعد الغداء قد ولى. وإن أرادوا  
شيئًا آخر يكون سعيدًا بتلبية طلباتهم. لكنهم شكروه على حسن معاملته ودفعا  
الحساب وسارا معًا في الحي اللاتيني.

## الفصل الثالث

عاد طاها إلى سكنه بشارع المدارس ليأخذ حظه من نوم القيلولة المحبب إليه، وهو الشيء الوحيد الذي حمله معه من بلاد النيل، بعد أن خلع من على رأسه العمامة، ومن على جسده الجبّة، ومن عقله كل ما حُشي به من أفكار وعادات وتقاليد. لكن عقله لم يتحول إلى صفحة بيضاء تمامًا، بل بقي فيها ما بقي من أفكار تساعده على تحمل الفترة القادمة، وتجعل منه ناقدًا فاعلاً بانيًا؛ وليس مخربًا هادمًا، وشاكًا عاقلاً، محللاً هاديًا. رفض طاها طرائق التعليم في الأزهر ومادة الدرس المقدسة، ومشايخ ليس لرؤوسهم من عملٍ إلا أن يهزوها يَمَنَةً وَيَسْرَةً، بينما بداخل رؤوسهم عنكبوت هتّس، ليس فيه من الفكر شيء، وليس فيه من العلم مُراد، وليس فيه من النقد ما يطور، وما على الطلاب إلا أن يحفظوا عن ظهر قلب كل ما يقال، وكل ما يُسمع من شيخ حصيلته العالمية القرآن وحصيلته الثقافية السنّة، وحصيلته الذهنية القصص والأقاويل، فكيف تُبنى الأمة؟ وكيف تتطلع إلى مستقبلٍ باهرٍ يجعلها بين الأمم تقف موقف الّدد وليس موقف الخنوع ومدّ اليد للتسوّل؟ كيف والحال كذلك أن تنهض الأمة بأبنائها؟ ومنهج تعليمهم ليس الفهم والتحليل بل الحفظ والتلقين؟ ولن يكون ذلك إلا برفض كل عائق للتقدم. وعائق الشرق هو دينه، لا أقول إلغاء الدين ورفض السنة - لأنهما مكونات الأمة العربية - لكن علينا أن نعتقد فيهما ثم نضعهما جانبًا ونفصلهم عن حياتنا العملية؛ لنستوعب درس الحضارة. ورفض التغني بماضٍ ساقته الصدفة وحدها.

هذا ما كان يفكر فيه طاها وهو يستعد لإملاء فكرةٍ أحت عليه، لتكون مقدمة محاضرة يلقيها في جامعة السربون باللغة الفرنسية. ولم تمض لحظات حتى طرق الباب طارق وفتح طاها وحيًا القادم الذي لا يخلف الميعاد قط، وكان "جان بيير بوتيه" مدير مكتبة السربون، الذي سيشرّف لاحقًا على مكتبة معهد العالم العربي القريب من الفندق الذي يقيم فيه طاها، وصديقهما الحكيم. أعد جان بيير أوراقًا بيضاء قد تركها لطاها، واستعد لكتابة ما سيملى عليه من وحي طاها، وكانت مقالة حول العقل الديني استهلها طاها بالآتي :

أزمة العقل الديني أنه تلقي مجموعة هائلة من الغيبيات والخرافات عن طريق التلقين والوراثة لتعرف طريقها إلى العقل كمعلومة دون أن يتلمسها ويتعامل معها ويجد لها أي وجود أو مدلول أو حضور.

العقل البشري إدراكه كله حسي أو قابل للمعاينة والاستدلال، ولا تخرج عن المادة كونها المكون الوحيد والفريد الذي يُشكل وعينا وإدراكنا، وليس بالضرورة أن ندرك الأشياء بعيوننا وأناملنا بل يمكن أن ندركها ونعاينها ونتلمس سلوكها بوسائل مادية ومنطقية تجعل لها حضورًا ووجودًا. العقل الديني تلقى المعلومة الميتافيزيقية مع شحنة قوية من المشاعر والعواطف أحاطت بها وحصنتها، وجعلت لها وجودًا وحماسًا يُحسد عليه متلقيها. ولكن لا يجب عليك أن تندش من قوة هذا الاعتقاد بعد أن تدرك كيف تم تصدير هذه النصوص إليه، وأن الأمور في النهاية شديدة المشاشة تتساقط مع أول معول للنقد.

هنا تكون ورطة العقل الديني أنه يمتلك كمًّا هائلًا من المعلومات التي ليس لها أي وجود في الواقع، سواء اليوم أو غدًا ... فبالرغم من آلاف القصص عن الجن والعفاريت والملائكة والشياطين، والبعث بعد الموت والعالم الآخر بجنته

وحجيمه ... وبالرغم من مئات القصص عن معجزات ووحى وأساطير، فليس لها أي حضور في الواقع، ولا يمكن الاستدلال عليها بأية وسيلة مادية، فيكفي أن مدعيها يقولون عنها إنها غير مادية ... فلا تُعرف ماهية غير المادية تلك وكيف عرفها المدعي الأول !.

هذه المعلومات الغيبية مهما امتلكت من الحماس فهي هشة أمام أية فكرة ناقدة وشاكة. لأنها بالفعل لا تمتلك ما تقدمه سوى الاستفاضة في المزيد من الافتراضات والظنون والماهيات غير المدركة.

ولكن الأفكار الدينية تمثل أماناً وحاجة نفسية لصاحبها ... واهتزاز الأفكار داخل الإنسان يسبب ألماً وارتباكاً في ثوابت كثيرة أخذت أمانها النفسي من الالتزام بأحضانها، ليس كونها فكرة بقدر ما تعبر عن حاجات وانتماءات نفسية عميقة.

العقل البشري لا يقوم بالتفكير من تلقاء ذاته، بل يُفكر ويُدع من خلال أوامر نفسية عميقة تبغي الراحة والحاجة، وتتوسل البعد عن دوائر الألم ... لذا تتحرك ماكينات العقل لمحاولة تقديم إبداعات وحيل ومناورات لتثبيت الأفكار التي تتداعى.

هنا العقل يحاول أن يناور ويتعاطى مع ما هو متاح له من وسائل منطقية يتوسمها لجلب الهدوء والراحة للنفس المضطربة ... وهذا ما لاحظته من مئات الحوارات التي تُدار حول الأديان ويكون أطرافها إما دينيين مع بعضهم البعض، أو مؤمنين وغير مؤمنين .

سأذكر بعض الملاحظات العامّة التي يتعاطى معها العقل الديني عندما يواجه

فكراً يخوض في ثوابته وفرضياته، ليتلمس مجموعة من الحلول يتصور أنها تُخرج الفكر من أزمته.

يتبنى العقل الديني فكرة يتصور أنها منطقية، ولكنها بعيدة كل البعد عن أدوات المنطق...

فيتصور أنه طالما هناك ملايين من البشر يعتقدون بالله وبدينه فهذا دليل على كون إيمانه وفكره صحيحاً، إذ ليس من المعقول أن هؤلاء البشر كلهم مُخطئون ومُحرفون فكرياً.

ولكن هذا المنطق بأئس في مجمله فليس صحيحاً أن التفاف مجموعة كبيرة من البشر حول معتقد أو فكرة معينة يجعل هذا الاعتقاد وهذه الأفكار صحيحة. فإذا كان هناك من يفتخر بوجود أكثر من مليار مسلم على ظهر الأرض فإننا نقول له: إن عدد المسيحيين يزيد عن هذا العدد ...

وكذلك الهندوس أصحاب البقرة المقدسة يعادلون في تعدادهم من يؤمنون بالإله الإسلامي وعدد اللادينيين والملحدون في العالم يقترب من هذا الفصيل أو ذلك.

وبهذا لا يكون انتشار فكرة مع وجود أعداد هائلة من المناصرين لها دليلاً على صحتها. بل هناك أمثلة رائعة من التاريخ البشري تستهزئ بهذه الرؤية وبهذا المنطق. فحتى عصور قريبة كان العالم بأسره يعتقد بفكرة أن الأرض مسطحة ومنبسطة وأنها تشكل مركز الكون .

ليأتي العلم وينسف هذه الفكرة من جذورها. فلا الأرض مسطحة بل كروية ولا تشكل مركزاً للكون بل هي نقطة زرقاء باهتة منزوية في أحد أطراف الكون

الرهيب.

أصحاب هذه الرؤية يصرفون حجم القلق الذي ينتابهم من الموروث الديني، وعجزهم عن إيجاد وسائل منطقية للاقتناع والإقناع بأن يتشربوا داخل المجموع ... وأن يجدوا الحماية في وجود أعداد هائلة من المناصرين، ولا بأس أن يكون منهم علماء ومفكرون فهذا سيعطي للمعتقد المزيد من سلامته وقوته.

هذه الطريقة في التعاطي مع الأفكار هي مناورة للعقل الديني للبحث عن الأمان النفسي من خلال الانغماس في المجموع، والارتقاء في أحضانه كوسيلة لجلب حالة من السلام الداخلي ... هو بالفعل يجد أمانه في المجموع، وأنه ليس الوحيد الذي يقف في الساحة يتلو هكذا خرافات.

هناك من يحصن إيمانه وتراثه من النقد بتحويل نظره إلى معتقدات الآخرين وبيان فسادها وخوائها معتقداً ومتوهماً أنه بذلك ينجو بخرافاته، ويجد لها حضوراً وأماناً ...

فتجد المسلم ينال من إيمان المسيحي ومعتقداته بالمسيح الإله المخلص، كما تجده يسخر من الذين يعبدون البقر. بينما تجد المسيحي يستنكر صورة الإله المتعطش للدماء والغزو والسبي في الموروث الإسلامي ... وهكذا الجميع يتبادلون الطعن في معتقداتهم، وقد يمتلكون بالفعل رؤية جيدة لا تخلو من المنطق والعقل. وقد تصل ببعض الناقدين منهم إلى وجود دراسة جيدة لعلم الميثولوجيا والتاريخ والتراث.

لكن الغريب والظريف في نفس الوقت أنهم ما إن ينتهوا من تقديم التحليلي حتى يتوجهوا صوب إيمانهم. فتجدهم يلقون العقل والمنطق في أول صندوق

قمامة... وتتبرخ كل التحليلات والميثولوجيات والمنطق من الأذهان.

العقل الديني يهرب من الإشكاليات التي تكفل معتقده ودينه بالخوض في فساد فكر الآخر كمحاولة إما لتفريغ طاقة غضب ناشئة عن مجزه، أو هو الارتقاء في حالة نفسية تبريرية بأننا كلنا فاسدون ومنحرفون ... هذا الأمر شبيه بالحالة النفسية التي تنتاب التلميذ الفاشل عندما يدرك أن كل التلاميذ يعانون من الامتحان، وأن هناك إخفاقات كثيرة كمبرر لإخفاقه، وأنه ليس الوحيد الذي يحظى بالفشل.

نتلمس هذا الأمر بوضوح في الكثير من الندوات، والعديد من الكتب الموروثة ... فعندما يتم الخوض في إشكالية تتعاطى مع الموروث الإسلامي، بالمذابح التي تمت على مدار الدعوة الإسلامية، تجد المسلم يتدخل ليذكر بالمذابح التي في الكتاب المقدس ... أو حين التطرق لحدّ الردة في الإسلام؛ يسرع المسلم باستحضار نصوص من الكتاب المقدس تدعو هي الأخرى لقتل المرتد ... بالرغم من أن موضوعنا غير معني بمذابح الكتاب المقدس أو نصوصه.

الفكر الديني يتكئ اتكاءً شديداً على استحضار فكرة المؤامرة في محاولة من العقل لإيجاد وسيلة تتحمل كمّ الخرافات والغيبيات الكامنة في سراديبه، والتي تتعرض من وقتٍ لآخر لأن تظهر على السطح مسببة لألم لا يمكن احتماله ... لتكون فكرة المؤامرة محاولة لبتّ الهدوء في النفس المضطربة، التي تجد إيمانها ينهار مع أول مطرقة نقد ... وكشاعة تلقى عليها كل الهواجس والقلق.

الإبداع الأساسي والمحوري في استحضار نظرية المؤامرة يتكئ على وجود الشيطان وفعله ... فهذا الشيطان اللعين يحاول أن يُخرب في إيماننا ومعتقداتنا ويوسوس بداخلنا بالشرّ، وكل فكر متشكك هو أساس البلاء، ومن يُبدع الأسئلة

يخلق البدعة ليجرفنا عن إيماننا الجميل.

تزداد دوائر المؤامرة عندما يترسخ في ذهن المؤمن أن المعتقدات الأخرى المنحرفة تريد أن تخرب إيمانه وتجذبه إليها بإيمانها الضالّ ... وأن نقدها لمعتقداته لا يأتي إلا غيراً وحقدًا تكنه لإيمانه الصحيح.

هو يرى أن الحملات التي تنال من إيمانه من جانب اتجاهات أخرى دينية أو لا دينية إما تحركها أصابع الشيطان الخبيثة، أو هو حقد وغيره منهم على عظمة وجماليات إيمانه.

هنا العقل الديني ابتكر فكرةً تسمح للخرافات التي يؤمن بها أن تبقى آمنة ... فالنقد الذي يشكك ويهز أرجاء إيمانه هو نتاج قوى شريرة وحاقدة ولا تبغي الخير له ... فيتشترق الإنسان على ذاته، ويتشبهت بموروثه أكثر وأكثر.

من الأنماط الشائعة في مناورات العقل الديني أن يتبنى نظرية " خير وسيلة للدفاع هو الهجوم " أو قل هي القدرة العجيبة على تحويل السؤال الموجه لي إلى سؤال آخر مضاداً أوجهه لك حتى يتوه سؤالك وأجد تبريراً مقنعاً لإيماني !.

فعندما نتحدث مثلاً عن الخلق وكيف تم، مع وجود رؤية علمية بأن المادة يستحيل أن تتواجد من العدم. كما ستندفع أسئلة أخرى كثيرة تخوض في قصة الخلق نفسها وصفات الإله الخالق لتطلب الإجابة ... هنا العقل الديني لا يملك شيئاً يقدمه، بحكم أنه تلقى المعلومة كموروث ثقافي اكتسبه وتم تلقينه إياه .. فلن يفعل سوى أن يطرح سؤالاً مضاداً أمام سؤالك !!. وهل تعتقدون أيها السيدات والسادة الحضور أن الكون والوجود وجدا هكذا ... وهل الحياة جاءت صدفة وبعشوائية؟!.

بالطبع هذا هروب من السؤال إلى سؤال يجعل السائل ينصرف عن سؤاله أو على الأقل يهدئ نفساً مضطربة جرى اقتحامها.

المفروض أن صاحب الرؤية الدينية هو من يدعي بوجود الخالق مثلاً، ويسوّق لها ليل نهار، وبالتالي عليه أن يمتلك كل الأدوات والمعارف بحكم أنه صاحب الحّل الوحيد المُعلن ... ولا يكون استفساري إلا أنني أجد خللاً منطقيًا وعمليًا في أطروحات القصة ... فليس لي وجهة نظر أخرى أريد تسويقها بل مناقشة ما هو مطروح ويتم ادعاؤه ... لذا ليس هناك أي داعٍ لأن تسألني وتطلب مني نظرية بديلة ... حتى لو لم أستطع أنا تقديم نظرية بديلة، فهل هذا يعني نظريتك من النقد ويجعلها صحيحة؟!.

الفكر الديني جاء لتلبية احتياجات نفسية للإنسان بالمعرفة والفضول، ومن خلال هذه الحاجة تولدت الأسطورة وفقاً للحجم المعرفي والتطوري للإنسان؛ لتقدم له حلولاً سهلة ومتسعة تفي بحاجته المعرفية ... ولكن ليس معنى أنني لا أمتلك إجابة لسرّ الوجود أن يجعل إجاباتك الهشة المتعجلة المهترئة هي الصحيحة .

عندما يعتري العقل الديني اليأس من محاولة أن يجد للغيبيات والخرافات حضوراً، وهو ما يفتقده بحكم أنها أشياء تم تعاطيها هكذا، ولا يوجد دليل واحد يثبت صحتها بالرغم من عظم أبقاها...

هنا لا يكون أمامه سوى العبارة الشهيرة التي تغلق أي حوار وتجعل النفس ترجع إلى مأواها دون قلق وشك ... فليس أمامه سوى ادعاء أن هناك حكمة إلهية عظيمة وتديبر وتخطيط إلهي كبير، ونحن أعجز من أن نستوعبه بحكم عقولنا الصغيرة والمحدودة.

بالطبع هذه المقولة تستقي من عجز أي إنسان عن استيعاب كل العلوم والآداب المختلفة ... لتثبت العجز عن فهم الحكمة والتدبير الإلهي.

هنا يتم خلط أوراق كثيرة حتى تتشبع النفس الإنسانية بمخدر يجعلها تقبل التناقضات والإخفاقات وتسكنها في ذاتها بدون منغصات.

نحن البشر قد نعجز عن استيعاب كل العلوم، ولكن ليس معنى هذا أننا مقيدون عن المعرفة أو القدرة على التعامل مع هذه العلوم ... فيمكنني أن أبدو مساحات جهلي متى تطرقت لهذه العلوم وخضتُ وبحثُ فيها ... ولكن أن يكون العجز مستحيلاً فهذا غير مقبول، كونه يشلّ العقل عن البحث، ويحصن الفكرة - التي لا يوجد دليل واحد يثبتها - من الاقتراب والنقد لتبقى آمنة على حالها.

أسوأ منتجات العقل الديني في مواجهته للأفكار الشاكّة أن يتعامل ببدائية وبدواة ... أن يصدرّ ضعفه وهوانه وحماقته.

فواجهة الفكر الناقد بالوعيد والإرهاب، بالعذاب والحجيم، هو أسلوب يتبعه المؤمنون كوسيلة احترازية واحتراسية من عذاب يومٍ قادم .. هو يعتقد أنه بهكذا أسلوب في تصديره للإرهاب كفيل بالرد على ما يثار من نقد حول منظومته الدينية، فهو يتحصن من عذاب هذا اليوم ويصدره لناقده.

قد يكون التهديد والوعيد بعذاب يومٍ قادم موجهاً لنفس المؤمن الذاتية فهو يُرهب ذاته ليمنعها من الخوض في أمور قد تأتي بالانحراف عن جادة الإيمان، مما سيكون له سوء العاقبة ... ولا مانع من أن أصدر لناقد إيماني هذا الرعب؛ حتى يكفّ عن إثارة أمور تؤذي أمني النفسي.

ومن أحقر الأساليب التي يتعامل بها الديني السبّ والسخرية والتهكم،

لتصيب صاحب الفكر الناقد في شخصه كمحاولة للنيل منه ... ولا مانع إطلاقاً من الوعيد بالعذاب والجحيم وسوء العاقبة، متصوراً أن أسلوب السباب واللعنات قد يقوّض الفكرة الناقدة أو يُسكت صاحبها عن الخوض فيها ثم تأتي ميثولوجيا المحرقة والانتقام الإلهي لتجهز على البقية الباقية.

بالطبع هم واهمون وبائسون ... فهم يتصورون أن الإنسان ما زال تحت نير العبودية الفكرية القديمة، وأن حد السيف المشهور سلاحاً أو سبباً كفيل بالردع. متوهمين أنه هكذا يُقهر العقل. نبّه جان بيير طاهّا إلى أن أصابعه أصابها الحذر (التمثيل) وعليه أن يتوقف عن هذا السيل المنهمر من رأسه إلى لسانه، لكي يُريح القلم بعض الوقت.

ابتسم طاهّا بل اتسعت ابتسامته وقال :

- أنت الوحيد الذي أبنته تلك الخطرات. وأعرف أنك لست كاتباً، ولا كاتباً بالأجر لكن عندما تتدفق الأفكار أعيشها وأخلقها وأبعث من روحي فيها روحاً تعلقو فوق الموروث لتخاطب العقل.

- أعرف ذلك وأحب أن أكون أول المطلعين على أفكارك النيرة الجديرة بالمناقشة والازدهار في بلادنا.

- تلك أفكار ليست للنشر في مصر ولا الشرق. ستكون وديعة معك بعد إذاعتها في جامعة السربون؛ لحفظها من الضياع إلى أن يأتي حينها وتنشرها هناك في الشرق، بعد أن يفيق من غفلته ونعاسه الذي طال!.

أنت سوزان من غرفتها حاملة أكواب الشاي الخفيف، الذي ما زال طاهّا يحتفظ في عقله بنكهته المصرية، وليست الصعيدية ولا الإنجليزية.

وقالت من بين ابتسامتها وهي تضع الشاي على الطاولة:  
- أتمنى أن لا أكون قطعاً عليك الحديث.

بادر طاها بالردّ مهلاً:

- لا ... تفضلي، فرائحة الشاي تسبقك.

وابتسم جان بيير وقد شاع جوٌّ من الدفء في الحديث وقال:  
- لك تحياتي يا صديقتي، فقد أنقذتيني بقدمك، كاد طاها يهلكني. وقدمك  
خير لي.

أشرق وجه طاها بابتسامته العريضة وهو يقول:  
- وخير لي كذلك.

حملت سوزان كوب الشاي لتضعه في يد طاها بعد أن لامست براحتها  
اليسرى ظاهر كفه الأيمن الممدود ليتناوله، وقالت في حبور:  
- سعادتي الآن في أي بين صديقين لا أفهم من لقاءهما معنى. فطاها يشكّ  
ويعن في الشكّ وجان بيير مؤمن ويعن في الأيمان.

ارتشف طاها الشاي بشهية ورفع رأسه لأعلى وهو يقول:  
- إن شكّي محاولة للوصول إلى اليقين، وهو سرّ وجودي.

قال جان بيير مستسماً لعقائده:

- وأنا إيماني من موروثي الثقافي والأسري.

لوحث سوزان بكفيها مشيرةً بكل كفّ إلى أحد الرجلين قائلة:  
- لذلك أقول إنكما على طرفي نقيض.

اعتدل طاها في مجلسه وبدت على ملامحه سيما الجّد وهو يقول:

- إن شكي في وجود الله والدين والرسل لا يمنع وجودهم في أذهان أصحابها.  
أما ما أرنو إليه فأن يضعوا تلك المعتقدات جانبًا حين يشرعون في التعلم الحق  
والأخذ بالأسباب ولا تكون مكبلاً وعائقاً عن تقدمهم. ثم مال برأسه قليلاً ناحية  
سوزان وهو يوجه الحديث إليها:

- ها أنتِ ذي، وها هو جان بيير تذهبان إلى الكنيسة وتتلوان القصص  
وتؤديان الصلوات، لكنكما مع هذا تمارسان عملكما الدنيوي دون تدخلٍ من  
الشياطين ولا الملائكة ولا فوبيا الخوف من عقاب الله. قال جان بيير ضاحكاً:  
- ولذلك لدينا يوم في الأسبوع للصلاة والعبادة، وليس كل الأسبوع.

ارتشفت سوزان الشاي وهي تبتم تصديقاً على كلام جان بيير الذي سأله  
طاها:

- ومتى ستذيع تلك الكلمة؟
- هل لي أن أسمع رأيك فيها أولاً؟
- لا يا صديقي رأيي ستسمعه بعد المحاضرة.

وتساءلت سوزان:

- عن أي شيء تتحدث هذه الكلمة؟

أجابها طه ببسمة هادئة:

- ستعرفين في حينها، الأسبوع القادم وعلى الأرجح يوم الثلاثاء.

ابتهجت سوزان وهي تقول:

- إذن سأكون بصحبتك. فليس عندي محاضرات يوم الثلاثاء.

- اتفقت مع صديقي الحكيم أن يصطحبني إلى هناك، ولكن من دواعي غبطني وسعادتي أن أكون محاطاً بملاكين.

ابتسمت سوزان وهي تأخذ الفنجان من يد طاها قائلةً:

- أنت دائماً تجيد الحديث إلى المرأة.

- ليس أية امرأة يا عزيزتي.

ابتسم جان بيير وأشرق صوته قائلاً:

- ماذا بك؟ أأذهب أنا؟

قال طاها وقد فطن إلى دعاة جليسه:

- لا يا عزيزي لم أقصد هذا.

ونَهضت سوزان لتضع الفنجان على الصينية وتستعد للذهاب إلى غرفتها، واستأذنت جان بيير للرحيل على أمل اللقاء.

وفي المساء عادت سوزان من غرفتها لتبيئ سير النوم لطاها بعد يومه المرهق. وودعته على سعادة يوم آخر، وتركت النور مضاءً في الحجرة لينام هانئاً.

لم ينم طاها ليله كعادته التي تأصلت معه وراففته من بلاده خوفاً من الليل وما يحوم فيه من عفاريت وشياطين من الممكن أن تلقي به في التربة المسحورة أمام دارهم. وطاف بمخيلته وتذكر حين كانت تدعوه أخته فتحمله بين ذراعيها وهو صغير، وتعدو به إلى حيث تنيمه على الأرض وتضع رأسه على فخذ أمه. ثم تعمد هذه إلى عينيه المظلمتين ففتفتحهما واحدة بعد الأخرى وتقطر فيهما سائلاً يؤذيه ولا يُجدي عليه خيراً وهو يتألم ولكنه لا يشكو، ولا يبكي لأنه كان يكره أن يكون كأخته الصغيرة بكاءً شگاءً.

ثم ينقل إلى زاوية في حجرة صغيرة، فتنيمه أخته على حصيدٍ قد بُسط عليه لحاف آخر، وتذره وإن في نفسه لحسرات. وهو يمدّ سمعه مدًا يكاد يخترق به الحائط لعله يستطيع أن يصله بهذه النغمات الحلوة التي يرددها الشاعر في الهواء الطلق تحت السماء. ثم يأخذه النوم، فما يحسّ إلا وقد استيقظ والناس نيام، ومن حوله إخوته وأخواته يغطون فيسرفون في الغيط. فيلقي اللحاف عن وجهه في خيفة وتردد، لأنه كان يكره أن ينام مكشوف الوجه. وكان واثقًا من أنه إن كشف وجهه أثناء الليل أو أخرج أحد أطرافه من اللحاف فلا بد أن يعيث به عفرية من العفارية الكثيرة إلى كانت تعمر أقطار البيت وتملأ أرجاءه ونواحيه، والتي كانت تهبط إلى تحت الأرض كما أضاءت الشمس واضطرب الناس. فإذا أوت الشمس إلى كهفها، والناس مضاجعهم، وأطفئت السرج، وهدأت الأصوات، صعدت هذه العفارية من تحت الأرض وملأت الفضاء حركة واضطرابًا وتهامسًا أو صياحًا.

وكان يخاف أشد الخوف أشخاصًا يتمثلها قد وقفت على باب الحجرة فسدته سدًا وراحت تأتي بحركات مختلفة أشبه شيء بحركات المتصوفة في حلقات الذكر. وهو يعتقد أن ليس لأحدٍ حصن من كل هذه الأشباح المخوفة والأصوات المنكرة إلا أن يلتفت في لحافه من الرأس إلى القدم دون أن يدع بينه وبين الهواء منفذًا أو ثغرة. وكان واثقًا أنه إن ترك ثغرة في لحافه فلا بد أن تمتد منها يد عفرية إلى جسده فتتاله بالغمز والعبث. لذلك كان يقضي ليله خائفًا مضطربًا، إلى أن يغلبه النوم. وما كان يغلبه النوم إلا قليلًا. ذلك الأمس الذي ما كان أشد قسوته لو قورن باليوم وما فيه من سعادة ...

اليوم صارت سوزان تلقي في مسمعيه بكلمات الودّ والحنان تُبهيها بأمنياتها له

بنوم سعيد.

وتخرج بهدوء، وتغلق الباب بتؤدة، ولا يلقي طاهًا بالآ إن كان وجهه وجسده قد تكفن بالغطاء أم لا رغم برودة الحجرة. ولا يشعر إلا بأنه قد تحرر من الغطاء، ووجد سعادة في حرите في نومته الهادئ الذي من المؤكد أنه سيكون نومًا سعيدًا بعيدًا عن العفاريت والشياطين والعابثين... حرًا حتى في نومته بعيدًا عن أخته وأمه وأبيه وإخوته وصحبه في حجرة المجاورين وما كان يؤمها من زواحف وقوارض وحشرات، فضلًا عن إزعاج المنادي على الصلاة، والمنادي على اللبن أو الفول أو الزبالة... إلى جانب رزع وخبط وإزعاج أخيه وصحبه في الخروج من الغرفة أو العودة إليها غير ملقنين بالآ بالذي ينام أو يدعي النوم وكأنه نسيًا منسيًا أو هملاً هملاً أو غمًا مغمومًا أو أنه لا شيء على الإطلاق.

يتذكر الغارة التي كان يحدثها أخوه وصحبه في مجيئهم وذهابهم ويقارن بينه وبين خطوات جان بيير وهمسه في وداعه، وسوزان في دُعابتها راجيةً له نومًا سعيدًا... وكأن النوم لا يأتي إلا وهو سعيد! ولماذا لا يكون سعيدًا بتلك النعمات الجميلة من صوتٍ شبيهي قوى هامسٍ واضحٍ معبّرٍ واثقٍ؟. وأين هذا السلام من العفاريت والجن والشياطين؟! هنا الملاك والجمال والحب. وهناك القهر والظلم والعنف. هنا في حجرتي الشمس والهواء والعطر... هناك العنف، وهنا السلام، هناك الضجيج والإزعاج وانعدام التقدير، وهنا الكرامة الإنسانية... هناك على الضفة الأخرى خلف البحر المالح يوجد الهوان وتوجد المذلة التي يخلو منها المكان هنا، فكيف لا يأتي له النوم السعيد الهانئ؟!.

obeikandi.com

## الفصل الرابع

مقهى اللكسمبورج ويُلقب في بعض الأحيان بـقهوة المصريين يقع على حافة حديقة اللكسمبورج بامتداد جادة السان ميشيل مقابلة لشارع سوفلو. يتجمع المصريون في ذلك المقهى لأنه على حافة الحي اللاتيني، وغير بعيد عن جامعة السربون. وقد فتح أبوابه مرة ولم تغلقها قط لا ليل ولا نهار، والأهم من ذلك رخص الأسعار فيه بسبب اتساعه. لا يطلب منك النادل تجديد الطلبات كل ساعة، ولا ينظر إليك بغلظة بل هو تحت الطلب إن أشرت إليه لبي، وإن لم يكن فلا حرج.

قاد طاها صحبه إلى مقهى المصريين في اللكسمبورج بعد الانتهاء من كلمته في السربون والتي لاقت ترحيبًا أكاديميًا. طلب الحكيم كأسًا من مشروب الأبريتيف "بيرنو". وطلب طاها لسوزان أبريتيف من الخمر الأبيض الثلج مع قليل من روح الكريز، ويسمى بالفرنسية "كير". أما هو فكان يفضل القهوة الأكسبرسو الفرنسية خاصة بعد يوم مُجهّد. أما جان بيير فقد فضل كأسًا من خمر برجنيون الأحمر القاني، وعبّ أربعتهم في تودة وهم يضحكون سعداء بنجاحات طاها، وقد طلب منه بعد تلك الندوة أن يقدم نبذة عن أصل تاريخ الإسلام بعيدًا عن أيّ معتقد ديني - أي تحليل ديكراتي - بعد أن يتنزه عن موروثاته الدينية في هذا الصدد. وتلك ستكون سابقة من مفكر شرقي مصري ليس من المستشرقين ولكنه ذو هوى غربي.

قال الحكيم موجهاً الكلام لطاها:

- وهكذا تستطيع الإجابة عن نفسك.

قال طاها:

إن كان بعض الناس يعرفون أنفسهم حقًا معرفة تتيح لهم أن يتحدثوا فيسرفوا أو يوجزوا في الحديث عن أنفسهم تلك التي يعرفونها أو يزعمون أنهم يعرفونها فلا يضيرني أن أعترف بأني لا أعرف نفسي.

قالت سوزان:

- أما أنا فأعرف عنك كثيرًا!.

تدخل جان بيير بالقول:

- أقول لكم سرًا. إن هذا الرجل - مشيرًا إلى طاها - الذي تظنون أنه محا من رأسه كل موروث ديني هو نفسه أكثرنا إيمانًا. ووافق الحكيم على ذلك بإيماءة.

وقال طاها: لا أعرف في نفسي خللاً قد يعرفها بعض الناس - مشيرًا إليهم - وقد ينكرونها. ولكنني أعرف فيها نفسًا مؤمنة لا يرايلها عن إيمانها أن تكون على رأيٍ والناس جميعًا على رأي.

ضحك ثلاثتهم وقال الحكيم:

- لم تأت بجديد يا صديقي .

أكمل طاها:

- لأن إيماني إيمان القلب والعقل معًا.

ابتسمت سوزان قائلة:

- وماذا عن العند؟ أنت عنيد في أفكارك.

قال طاها مجيئًا:

- ليس عنادًا بل قولي التصميم إذا شئت.

قال جان بيير:

- تقصد إيمان القلب والعقل والضمير.

قال طاها:

- أعرف في نفسي الصبر على بأساء الحياة ونعمائها جميعًا.

قال الحكيم:

- أنت يا طاها لا تعرف اليأس!.

أجاب طاها:

- لا أعرف اليأس حين يدلُّهم الخطبُ، ولا البطر حين تنبسط ظلال النعمة.

عقبت سوزان:

- لأن بؤس الحياة ونعماءها أعراض تزول.

تساءل جان بيير:

- هل أنكرت مرة عاقبة من عواقب أمر مضيت فيه؟.

ابتسمت سوزان قائلةً:

- دعني أجب أنا على هذا التساؤل. فهما قال هذا الرجل عن نفسه لن يفهمه أحدٌ مثلي.

همس الحكيم:

- هذه هي حاسة المرأة المحبّة.

عاد طاها يقول:

دعوني أجيّب عن سؤال جان بيير: أغلب الظن أني سأقضي على ذلك ما بقي من حياتي حتى يتحقق لي أو يتحقق للذين يشهدون عاقبة أمرنا كله بعد أن تصير ذكرى في ضمائر الأجيال المستقبلية.

قال الحكيم:

بمعنى أن التصميم والإيمان والصبر هم الحياة.

عقب طاها:

- إن الإيمان والتصميم والصبر هم فعلاً الحياة... الحياة التي تحقق معنى وجود الإنسان الحي الممتد بآثاره في الإنسانية الباقية.

نبه طاها أن المكان بدأ في الازدحام، ولغط المصريين ازداد ارتفاعاً، وتساءل هل نحن في مقهى اللكسمبورج أم في فيشاوي الحسين؟

وضحك الجميع على تلك اللفتة الجميلة التي لم يتنبه إليها أحدهم. فقال طه متعجباً مداعباً:

- هل أنا الوحيد بينكم المبصر؟!

وازدادت قهقهاتهم، وقالت سوزان:

- فعلاً يا طاها أنت الوحيد صاحب البصيرة.

قال الحكيم:

- وستعتمد مصر عليك لكي تنير لها طريق نهضتها التي هي في أشد الحاجة إليها الآن.

قال جان بيير:

- وهل فعلاً ستقدم بحثاً حول ظهور الإسلام؟ لأني في أشد الشوق لمعرفة رأيك في هذا الموضوع، ولي سؤال بسيط: هل عندما تفكر أو تكتب سيكون ذلك بالفرنسية أم بالعربية؟

ضحكت سوزان قائلةً:

- إنه يحلم بالفرنسية. وضحك الجميع.

قال طاها:

- عندما أكون في فرنسا أفكر بالفرنسية لأهل فرنسا، وأكتب بالفرنسية لأهل فرنسا، أما وأنا في مصر فأكتب بالعربية عن نفس الذي أفكر فيه بالفرنسية.

قال الحكيم:

- هذا عين الصواب في تجديد الأفكار حيث إن الفكر الفرنسي لا تتدخل فيه العواطف كالفكر العربي، بل الفكرة الفرنسية تخرج فكرة صريحة موحية، أما في العربية فاللّف والدوران هو الوسيلة حتى يستشف المستمع ما تقصده. وعليه تُعتبر كتابات طاها بالفرنسية طرقاً جديداً لموضوعات جديدة. وكتاباته إضافة هامة تتيح للنقاد أن يتعرفوا على جوانب غير مطروقة من فكر طاها.

عاد جان بيير لتساؤلاته:

- هل ما ستكتبه عن تاريخ الإسلام سيكون له علاقة بالاتجاهات الدينية السائدة اليوم؟

أجابه طاها:

- إن العودة إلى الكتابات الدينية هي عودة صريحة إلى الفكر المحافظ. ومن الصعب أن يُنشر في مصر أو في الشرق.

- هل تقصد أن لك أفكارا تنشر في مصر وأخرى تنشر في فرنسا؟!

- طبعا أكيد! الفرنسي يعيش في مجتمع متحضر، ويحاول فهم الآخر. أما في مصر فهو مجتمع مغلق لم يتطور بعد، مجتمع تعود وآمن بالحفظ والتلقين. أما المجتمع الفرنسي فقد تعود وآمن بالفهم والبحث. وبالمناسبة كل كتاباتي الفرنسية أحفظها هنا في فرنسا مع جان بير ليودعها إما مكتبة السربون وإما المكتبة القومية أو مكتبة أسرته في بورجونيا.

قالت سوزان:

- ولكن هناك حضارة عربية.

أكمل الحكيم جملتها:

- وحضارة إسلامية.

وتساءل جان بيير:

- ومتى بدأت الحضارة العربية؟

قال طاها:

- الأمر في غاية البساطة. لقد بدأ تاريخ الحضارة العربية بالترجمة. وسبب ذلك أن عرب البادية حين خرجوا من صحرائهم واتصلوا بالبلاد المتحضرة وجدوا حاجة إلى تعلم اليونانية، وإلى العكوف على ترجمة كل ما استطاعوا ترجمته. كما

ترجموا كل ما كان يمكن أن يُترجم من الحكمة الفارسية والهندية. وقد أحسّ العالم العربي بالحاجة إلى معرفة الطب الهندي وما إلى ذلك.

قال جان بيير:

- وهل كانت حملة نابليون أثر في الحضارة العربية؟

أجاب طاها:

- بعد خضوع مصر للسيطرة العثمانية أدرك العرب منذ أن عرفوا أوروبا عن طريق نابليون ما للنظم الأوروبية من تفوق سياسي، وأرادوا أن يوائموا بين الحضارة واحتياجاتهم، وأن يعيشوا مثل سائر الأمم دون أن يغيروا من عاداتهم. - إذن على العرب أن يدركوا اليوم أن عليهم لإحراز التقدم في هذا العالم أن يعرفوا الثقافة الأوروبية بأكملها.

قال الحكيم : ولهذا السبب نحن هنا! ولم تقطع إلا شوطاً يسيراً منها لا يغني ولا يشبع.

قال طاها موضعاً:

- نحن لم تقطع أي شوط لمعرفة الثقافة الأوروبية الكاملة وينابيعها اليونانية واللاتينية. إنني أشك كثيراً في ذلك. لأنه يبدو أن موجة التقهقر والمحافظة لا زالت تجرّنا إلى الوراء.

قال جان بيير موجهاً الكلام لطاها وللحكيم:

- وهل تأثرتما بالمفكرين الفرنسيين؟.

أجاب طاها:

- أقولها صراحة عن نفسي. قالوا إني تأثرت بالمستشرق مرجليوث خاصةً بعد أن ظهر كتابي الشعر الجاهلي، والحق أني لم أقرأ لمرجليوث إلا بعد سنة من صدور هذا الكتاب. لكنني تأثرت تأثر شديدًا بعملاء اليونانيات الفرنسيين، وخاصة دراساتهم في الأدب اليوناني، وقد حضرت دروس ألفريد كروزييه مع الحكيم في السربون وكانت معنا سوزان أيضًا.

قال الحكيم:

- واضح أن بول لوميتر هو الذي أوحى إليك بعنوان كتابك في السيرة، وحديث الأربعاء من وحي سانت بييف (3).

قال طاها:

- هذا حق كما تعرف بل أعتقد أن أقرب المستشرقين إلى طريقتنا في التفكير هو ليفي بروفنسال (1) في جميع دراساته عن أسبانيا المسلمة.

وكان جان بيير قد حشا جعبته بالأسئلة وراح يرشقهم بها بين الحين والآخر فقال:

- هل ستنشر ما تستودعني إياه في مصر؟

أجاب طاها:

- هذا ليس صحيحًا على الإطلاق. فمصر أمامها الكثير لتستوعب ما أفكر فيه.

قال الحكيم:

- إن لم يستوعبوا الشعر الجاهلي فهل يقبلون بطريقة تفكيرك عن الإسلام ونبي

الإسلام وحتى عن الله؟

أجاب طاها:

- أشك في هذا شكًا مبيئًا.

قال جان بيير:

- إذن عليّ أن أكون أمينًا عليها كما أني أمين على المكتبة القومية. ثم مكتبة السربون ومكتبة الأسرة.

قال الحكيم لجان بيير:

- عندما أقدم لك صديقي المصري القادم من المستقبل سيكون له رأي آخر. ولا أطلب سوى الاستماع إليه.

قال طاها:

- حدد معه ميعادًا، وأكون سعيد بلقاء المستقبل.

ومن بين ابتسامة رضا قال جان بيير:

- الحديث معكم ممتع للغاية، ولو كان معنا الآن رينيه ديكرت لأعاد صياغة مقولته الشهيرة وقال: "أنا أتحدث إلى طاها إذن أنا موجود". لكنني للأسف لابد من أن أذهب لأنني سأسافر غدًا لبلدي في بوجونيا، لأقضي عطلة نهاية الأسبوع مع والدي، والرحلة طويلة بالقطار.

obeikandi.com

## الفصل الخامس

الحي اللاتيني باريس طاها حسين بحدوده المتعارف عليها، يسير في أزقتها ويشعر بناسها ويتشمم روائحها الصاعدة من الكهوف، كهوف الخمر وكهوف المطاعم وكهوف الجبن. ويمد أذنيه إلى كهوف المراقص وكهوف الغناء، وكهوف الموسيقى. وترى بصيرته محاضرات اللغة اليونانية. ومحاضرات اللغة اللاتينية، ومحاضرات فلسفية ومحاضرات علمية . يسير طاها في هذا الحي وكله شعور بالراحة، وشعور بالأمان وشعور بالفخر أنه امتلك العالم بما عليه، وبما فيه من ماضٍ وحاضر ومستقبل. واخترقت بصيرته الزمان، واخترقت بصيرته المكان، واخترقت بصيرته المسافات، وأضحى الكل في واحد. هذا هو الحي اللاتيني الذي وُلد فيه طاها وترعرع ونشأ. ونشأ معه الشك ونشأ معه الحلم. حلم أن تكون بلده مثل تلك البلاد. وأعمل عقله وتدبر بفكرته وفكره، وناطح الأزهر منارة تخلف الشرق! وناطح علماء الدين، وناطح معتقداتهم وثقافتهم الخرقاء، وناطح توكلهم الأعمى، وإن كان هناك اتهام لطاها فلنوجه إليه اتهام إجحاحه على رفعة بلده مصر!!! ومن يريد الحداثة لمصر فهو مجرم ولا بد من تقديمه للعدالة العرجاء. ولذلك رفض طاها كل شيء، ومحا من عقله كل مادة لا تُقَيَّم بالعقل وآمن بأن بالعقل تُقَيَّم الأشياء.

الحي اللاتيني الذي أبصر فيه طاها، واسترد كرامته التي لم يكن حتى يعرفها هناك على الشاطئ الآخر. لا بين أفراد أسرته الذين عاملوه بعطف مكرهين،

ولا إخوته المجاورين إلا بازدراء، ولا شيوخ الأزهر الذين يلقبون بالعلماء المنزّلين من رب الكون. ليحفظ طاهّا القرآن الكريم ولا يناقش، ولا يجادل، بل هم فقط المبعوثون لحكمة لم تُطلّ عقل هذا الأعمى الأرعن، الذي رفض هؤلاء العلماء الجهلة، وهؤلاء الشيوخ المرتزقة، وهؤلاء البدو المرسلين الذين جاءوا ليعلموا كل شيء، ولم يعلموا أو يمنعوا المستحيل. لعل كل ما في هذا الحي اللاتيني أو في هذا الكون، وكذا كل ما في طاقات وأشواق الآلهة من عبقریات أن تهب كل مجدها للإنسان العربي.. ليتحول إلى متاحف وتاريخ للتاريخ العربي!. لهذا لا يستطيع أي عربي أن يقرأ أو يرى شيئاً من غبائه. إن العربي لا يرى أو يقرأ معاني الأشياء مهما رأى وقرأ حروفها وأجسادها!. إن الإيمان الأعمى الذي وظفوه في الأزهر هو نفي وإهانة وهدم لكل كبرياء وكرامة العقل والتفكير والأخلاق والرؤية! ... هل رأي الأزهر الأبدي أو قرأ الأمية في بلده؟ هل رأيت أو قرأت ماذا حدث حينما تحارب وتنافس وتبارز المؤمنون به؟ هل رأيت يا أزهري أو قرأت أو سمعت أو عرفت ما الذي يحدث حينما تقاتل وتخاصم أولئك وهؤلاء لكي تعرف أن الإيمان بإلهك والعبودية له يصنعان الضعف والهوان؟! إن الإيمان والعبادة ليسا هما اللذان يصنعان الضعف أو الهوان أو الهزائم، لكن الذي يصنع ذلك هو الالتزام الصارم بهما حين يوجد هذا الالتزام، إن أسباب القوة والضعف والانتصار والانهزام ليست أسباباً دينية أو أخلاقية بل ذاتية. إن هذا الالتزام الصارم الغبي لا يُبقي للإنسان شيئاً، أي شيء لكي يفعل ويناضل وينجح ويتفوق وينتصر ويصنع الأعمال العظيمة القوية الذكية. بل كيف لا تتجمع فيه كل الأمراض العقلية والجسدية؟ حكم الأزهر عليه بالفصل أي نصّب نفسه إلهاً ... وأي إله هذا الذي تضع الثواب والعقاب على شيءٍ أراد لنا أن نفعله؟! ولماذا يا إلهي لم تمنعنا من فعله؟.

كلمة إليك يا أزهري أو يا إله، من الحى اللاتينى الذى أسير فيه وحدي غير عابئ بعقاب أو ثواب. هل يعقل أن يترك المفسد المحرب يُفسد ويخرب لكي يعاقب؟ مع القدرة على منعه، ومع العلم السابق بأنه سيفعل الخراب والفساد قبل أن يفعل جرمه؟ والثواب يا إلهي ليس إلا أسلوبًا قد يُحسب مذهبًا أو متخفيًا من أساليب الرشوة. وهل يرشو القادرون وهم يتقون من قدرتهم على بلوغ ما يريدون بلا رشوة؟ أنه من الصعب أن نفهم هذا الأسلوب إلا عن رغبة في ممارسة القسوة والجهالة والبلاهة. يا أزهري المبجل الذي لن يرى إلا في الظلام، ولم يسمع صوته إلا كل شخص مصاب بالصمم الشامل، ولم يجده إلا كل شخص مصاب بالغيوبة الشاملة الدائمة، هل يعرف الأزهري أن الثواب والعقاب لن يكونا إلا تعاملًا وتخطبًا مع المستقبل، ومحاولة لحمايته وصياغته. فإذا لم يكن هناك مستقبل يُخطب ويُعامل ليُصاغ ويُحمى فلن يكون هناك ثواب ولا عقاب، أو لن يكون لهما أي معنى أو قيمة. إن الموتي لا يُثابون، ولا يُعاقبون لأنه ليس لهم مستقبل. والثواب والعقاب ليسا نشوة أو شهوة أو ممارسة جنسية. لكنهما تداوٍ وجراحة بحثًا عن الشفاء، وحماية لمستقبل يبدأ من اللحظة الحاضرة. يا أزهري الشريف أليس طول العمر يُعلم حتى من لا يريدون أن يتعلموا؟ إنه لشيء مفجع ألا يكون لطول عمرك أي حاصل أي تغيير جيد أو مفيد. إن الكائن الحى لا يولد ولادة واحدة، ولكنه يولد ولادات متعددة وإلا فلن يكون إلا حجرًا. وحتى الحجر فإنه لا يولد ولادة واحدة لا يتخطاها. هل كل من حولك من علماء أزهريين ومستشارين معتمدين كونيين وساويين عجزوا عن أن يعلموك هذا الذي لا يُستطاع جهله؟ يا أزهري الشريف لو استبدلت مستشاريك بأعوان ومستشارين ولو من الوطن العربي لكانوا خيرًا لك.

نقطة ملحة أردت أن أفسرها حول العقاب والثواب يا أزهري الشريف،

وأنا في وسط الحى اللاتينى بعيداً عن عقابك وثوابك. إن فكرة الثواب والعقاب فكرة رديئة وغبية وغير أخلاقية بل ضد الأخلاق!.. إنَّ حاكمًا وإن يكن عربيًا إن مدحته وبجلته وآمنت به وألهمته أغدق عليك كل النعيم، وإن نصحته أو انتقدته أو شككت في قدراته، لعنك وأذاقك كل مكروه. أليس هذا الزعيم سخيًّا وبلدًا؟ أليس هذا الحاكم والزعيم العربى محقرًا مسيئًا لنفسه؟ هذا هو أنت يا أزهرى الشريف فى عقابك وفى ثوابك!.. أى مجد أو سعادة أو فخر أو فرح لأى كائن فى أن يُمدح أو يُطاع أو يُسجد بين يديه أو بداخله أو بجواره بالثمن كالبيع والشراء، أو بالتخويف والتهديد؟ هل الامتداح فى العالم العربى إلا استفراغ للضعف والحقد والندالة على الممدوح؟ ... لتعلم أيها الإنسان العربى أننا لم نبصق أو نستفرغ على شىء كما نبصق على أعراض وأمجاد وكرامات وكبرياء حكامك وقادتك وزعمائك بل على إلهك؟ بأسلوب الامتداح والتمجيد والعبادة والحب والولاء والطاعة. هل أنت أيها الإنسان العربى تستطيع أن تجهل ما لا يُستطاع جهله؟ .

يا إلهى إن هذا الحى اللاتينى لعجيب، يسير فيه غير المبصر دون أن تدمه مركبة لأن الحى مخصص للمشاة فقط. أرى من هنا ثواب وعقاب الأزهر الشريف نموذجًا رديئًا لهذا الحاكم أو الزعيم أو القائد العسكري العربى الذى يفرض على أتباعه وجنوده أن يهبوه كل إيمانهم ليعطيهم الثمن، أو أن يوقع بهم أشد العذاب. إنك أيها الأزهر الشريف الكائن الوحيد الذى لن يستطيع أن يراه أو يقرأه أو يحاوره أو يفسره أو يفهمه أو يكتبه إلا الأميون .. الأميون الذين لن يستطيعوا أن يكونوا رائيين أو قارئين أو محاورين أو مفسرين أو فاهمين أو شاكين....

إنك أيها الأزهر الشريف المذنب كل الذنوب الذى لا تغفر لغيرك أى ذنب

من الذنوب؛ أعني لا تأذن لغيرك بأي ذنب من الذنوب التي تفعلها أنت بكل  
الجهر والفخر...!

شارع من الحي اللاتيني - باريس

obeikandi.com

## الفصل السادس

جادة سان جيرمان امتداد لشارع المدارس محترقاً جادة سان ميشيل متجهًا في تودة واتساع وحتى الجمعية الوطنية المنعقدة دائمًا، منذ قيام الثورة الفرنسية وحتى أن تحقق أهداف الثورة التي لم تكتمل بعد، وما زال الشعب الفرنسي يعمل على شعار الثورة من عدالة وحرية ومواطنة. في منتصف جادة سان جيرمان تقع كنيسته وتطل على ساحته ويفترش الميدان الفنانون والشعراء والفلاسفة والروائيون والكتاب والرسامون وأصحاب الفنون. ترتص الموائد المستديرة والكراسي القش خارج المقاهي التي تتسابق على الترحيب والتبجيل والأهلاً وسهلاً بزوارها وضيوفها من أصحاب الفكر، وتوفر لهم كل وسائل الراحة من أكل وشرب ودفء وترفيه بأسعار زهيدة تسمح للكاتب أن يجلس بالساعات يكتب.

هذه هي منطقة الحكيم، أو هي باريس الحكيم الخبير بكل مقاهيها، وكل حاراتها وكل أحيائها وكل نساءها، وكل مطاعمها الشعبية وكل خباياها وكل من عليها. رحب نادل مقهى ومطعم "ليب" للأكلات الشعبية بزبونه المفضل الحكيم، وكل زبائن مقهى ليب مفضلون! وتشعر فيه بالألفة والحميمة؛ حتى أن الجرسون يتذكر ما أكلته آخر زيارة، ومن النادر أن يخطئ حتى في نوع المشروب، وفي زحمة المكان وتدفق الزوار بين خارج وداخل وأصوات النوادل منادين الشيف ليجهز لهم طلباتهم من الكوارع والمبار، ولحمة الرأس والجوهرة بالخل أو بالخمير الأبيض

والأحمر، والسردين المنقوع في الخمر الأبيض والبصل والرنبجة المدخنة النفاذة الرائحة ... وسال لعاب الحكيم وزاغث عيناه بعيداً في حيه الشعبي وميدان السيدة أو الأزهر الشريف!.. وقدم الجرسون للحكيم كأساً من البيرنو مقدماً من صديق هناك يسند كوعه على البار الزنك وباليد الأخرى يرفع كوبه محيياً. انفرجت أسارير الحكيم وتقدم منه صديقه الشاب القادم الذي حياه بالكأس من هناك، وتجرّعا في صحة لقاءهما على غير ميعاد.

سمع الحكيم اسمه في مكبر الصوت أن طاولته قد دخلت فتأبط صديقه في جُبة هذا الزحام بين السكارى وضحكاتهم ورنات الكؤوس وروائح اللحوم المقددة والأعشاب الصابحة وصعدا إلى الطابق الثاني غير بعيد عن النافذة، واستعداً لسهرة من سهرات الحكيم الغنية التي عندما يتحدث فيها تستمع باريس!.

بادر الحكيم قائلاً في دهشة:

- أتيتُ التوّ من مقهى المصريين في لكسمبورج.

قال عاطف:

- أعرف أنك لا تذهب هناك كثيراً.

- اليوم كان يوماً خاصاً، فبعد الاستماع إلى محاضرة طاها حسين في السربون

توجهنا جميعاً إلى هناك، لقرّبها من الجامعة ومسكن طاها.

- هذا خبر جميل يا ليتني كنت معكم.

- ستكون يوماً مآ. لأنني كما وعدتك سأقدمك إلى طاها، وسنحدد ميعاداً للقاء.

- أشكرك يا صديقي، إني في شوق لهذا اللقاء. وإن لم أكن متطفلاً فلي سؤال

طراً على ذهني الآن.

- تفضل.

- لماذا طأها دائماً في باريس؟ هل يريد الإقامة الدائمة أم فقط أم أنها زيارة فقط؟

- هذا سؤال موجه إليّ أم إلى طأها؟

- بل إليك أنت.

- أرى أن هذا الأديب الشرقي جاء إلى باريس وغردت له مرحةً. أما أنا فقد أتيت وغردت لباريس. إن باريس بحاجة إلى طأها وأنا بحاجة إلى باريس. وكلانا في العشق سواء.

- وفوق هذا .. أليست إقامته هنا تعدّ منفي له ؟

- لم تنفهِ سلطهً من السلطات. ولا هيئةً من الهيئات.. لكنه نفى نفسه بنفسه بعيداً عن بلده ... إذ شعر أن بلده لم يعد بحاجة إليه ... فقد اعتصر هذا البلد كل عمره الذي مضى، وجهده الذي انقضى، كما يُعتصر الكزُّم الطيب العريق ويُسكب روحاً صافية، ونوراً نقيّاً في نفوس الناس ...

- أعلم أن طأها طاف بعديد من بلدان أوروبا ... فلماذا اختار فرنسا؟

فرنسا تعرف قدره وفضله ... وتدرك أنها بحاجة إلى علمه وأدبه ... حاجة لا تنتهى ولا تزول ... لأنهم في هذه البلاد لا يعرفون حدّاً للفضل والعلم ... ولا يقيمون سدّاً في وجه العلماء والأدباء ...

- هل سيلقي محاضراته بانتظام ؟

- لقد دعته جامعة مدريد ليلقي بها سلسلة من المحاضرات .. ثم دعته جامعة السربون ليحاضر طلابها طول العام ...

- هو إذاً من استقر به المقام خارج مصر ... وهل ينوي العودة؟!

- أظن أنه لا ينوي العودة إليها في القريب ...

تنهد عاطف يوسف السائح أبدًا في دنيا العلم والمعرفة، وترك ملعقة الحساء جانبًا وطلب قدحًا من البيرة الأيرلاندية ليكون منتبهًا لعصر لم يفث أوانه. تجرع الحكيم الخمر الأبيض كالنور ليزدرد الغذاء المنعم بحب وهناء.

قال عاطف :

- لأنه وجد هنا من عناية القوم به ما يُنسيه المرارة التي ذاقها من إهمال قومه وذويه هناك !! ..

أرى كذلك أنه ربما أغرته تلك الحفاوة بالبقاء الطويل في أرضٍ يزهو فيها الجد. ويشمر المعروف ...

- لكن المسألة التي يجب أن تُطرح هي : من الراجح في ذلك ومن الخاسر ؟

- طاهّا، ما نظنه يخسر شيئًا ... فهو أينما سار في بلاد النور وجد التقدير في استقباله ...

- إذًا الخاسر في ذلك بلاده.

- هي التي ستعرض للتقريع يوم تعرف الدنيا أن مثل هذا الأديب لا يجد في وطنه غير الإهمال والإغفال ... بل والمحاكمة!!!

- إنها يا صديقي إذًا صفحة لا نحب أن يسطرها التاريخ لمصر.

- وماذا كنت تود أن يكتب التاريخ لمصر؟

- إن هذا العصر عصر طاهّا الذي ازدهرت فيه المعارف والآداب قد عرف كيف يذكر لصاحب الفضل فضله، دون النظر إلى أي اعتبار ...

- وهل هناك فضلٌ أعظم من آثاره الباقية في الأدب الحديث؟

- بل يتعداها إلى أثره القائم في تلك المنارة المضيئة في الشرق ... تلك التي

جاهد في بنائها حجرًا فوق حجر ...

إني أشك في أن الزمان يستطيع أن يجفف من أحجارها بلبل عرقه. ولا أن يحو  
طابع أصابعه! ...

- انظر الجامعة!.. نعم الجامعة ... التي يبدو منها اليوم أنها ليست في حاجة  
إلى يده ...

- صدقت، لكن جامعات أوروبا فاتحة له الأذرع والقلوب ...

انتهيا من أطباق الأكل وتنبه الجرسونات ذهابًا وإيابًا، صعودًا وهبوطًا، ولغظ  
الرواد ممن سيكتب عنهم التاريخ أنهم عظماء.

وتساءل عاطف :

- هل من شك في أن طاها لم يكن له أصدقاء هناك؟

- ما من شك في أن لطاها أصدقاء ... على الرغم من هذا الصمت الذي  
يلوذون به ... أصدقاء من رجال الجامعة ... وأصدقاء من رجال السياسة ...

وأصدقاء من الرجال الرسميين ... فماذا تراهم فاعلون؟

- على الأقل عليهم أن يُشعروه بأن وطنه في حاجة إليه، وأنه لا يطيق غيبته  
الطويلة ولا منفاه المُختار! ...

- أعرف أن الأمر ليس مُيسرًا ... وإن كان في الصدر نوايا طيبة وفي النفوس  
شعورٌ حسن ...

لكن أما من سبيل إلى سعي مشترك؟ وصوتٍ متّحد؟ نبلغ بهما ما نلتمس  
من غاية؟..

ظهرت على الحكيم بوادر شقشقة الصباح وقال في نفس واحد وتهيدة صادقة:  
- إن لم يكن في المقدور القيام بعملٍ مُجدٍ ... ولم يكن لنا غير الكلام المرسل

... فلا أقل من إطلاق الصوت عاليًا، ليصل إليه في منفاه ... يُدْفئُ برد غربته،  
ويُخَفِّف من لوعته ...

ويؤكد له أن مصر لن تنساه!..

obeikandi.com

## الفصل السابع

فندق الشرق الذي يقطن فيه طاها، وهو على بعد خطوات من جامعة السربون في حيه اللاتيني، شقشقت العصافير، وغرّد الحمام، وضجّ الكون بالحركة، تمطع ونهض باتجاه الباب وفي خفة وهدوء فتحه، وخرج إلى يساره حيث باب آخر لدورة المياه المشتركة للدور السادس كله. اغتسل ودعك أسنانه وعاد مكتمل النشاط إلى غرفته وتهندم وكأنه على ميعاد، وإذا بخادم الفندق يدق الباب دقاته الثلاث التي تعودت أذنا طاها عليها، فسمح له بالدخول منبهاً بما يحمل على صينيته من قهوة ساخنة بالحليب وقطعة من الخبز بالزبد، وضعها في مكانها وانصرف، تامل قليلاً وإذا برقيقته تطرق الباب بيدها الخفيفة، وتلقي صباحا النادي المعطر برائحة القرنفل، شجا لها طاها، وأعلمها أنه اليوم لن يذهب إلى الجامعة لأن لديه أعمالاً هامة عليه إنجازها. اقترحت الرفيقة أن تتنزه معه بعض الوقت ثم يعود لعمله. وهي تعلم أنه دائماً البادئ بالكلام، وإن صمت في سيره ففي عقله الذي يغلي بأفكار جديدة.

وتحترم الفتاة ذلك فيه، فإن تحدثت وبادرها شاركتها الحديث بكل جدية واهتمام، أما إن صمت فليس لديها شيء تقدمه سوى الصمت ... وهو سائر بجوارها يلامس كتفه كتفها من وقت لآخر، واستقر الرأي على أن يسير بعض الوقت على شاطئ نهر السين للتريض، والنأي بعقله عما يحويه من أفكار مسبقة عن موضوع بحثه، ليكون بحثاً خالياً من أي نتوءات فكرية تبعده عن طبيعة البحث العلمي الصّرف، في ذلك الموضوع الشائك والذي سيغضب المسلمين

بسبب عاطفتهم الجياشة، والتي لا تعرف الفكر ولا التحليل العلمي. وهذا التريض في الصباح الباكر له فوائده الفكرية التي تجعل من البحث الحيدة وعدم الإزعاج، وإن وضع هذا البحث في تاريخ الإسلام ونبى المسلمين عليه الصلاة والسلام ليس ليرتمي في أحضان الغرب كما زعم الأزهريون والمعرضون بل هو بحث منطقي بعيد عن الهوى، وهو يعلم تمامًا أن ما يكتب باللغة الفرنسية فهو لأصحاب الفرنسية ويُحفظ في مكان أمين. عاد طاها مع الرفيقة من جولته التي سار معها الهُوَيْتِي إلى أن اكتملت فكرته واستعدت للعمل. أخذت مكانها وجلس طاها على كرسيه المريح وعلى يمينه علبة سجائره وبين شفثيه أخرى ومن آن لآخر يحتسي من الشاي الخفيف الأحمر الذي أعدته، وبدأ الحديث وكانت الرفيقة تنظر إليه من وقت لآخر، فقد خُيِّلَ إليها أنه يقرأ من كتابٍ معلوم سطره واضحة وحروفه منيرة وكلماته شفافة، وصوتٌ قويٌّ غير مهزوز واثق دليلٌ على أن ما ينطق به هو الحق. ثم تعود مرةً أخرى إلى الكتابة: الإسلام يمتدُّ منذ بداية الدعوة الإسلامية بعد نزول الوحي على النبي محمد بن عبد الله ثم تأسيس الدولة الإسلامية بالمدينة المنورة مرورًا بالدولة الأموية في دمشق التي امتدت من حدود الصين حتى جبال البرانس شمال الأندلس ثم الدولة العباسية، بما تضمنته هذه الدول الإسلامية من إمارات وسلطنات ودول مثل السلاجقة والبويهيين وفي المغرب الأدارسة والمرابطين ثم الموحدنين وفي الشام الحمدانيين والزنكيين وغيرهم، أخيرًا في مصر الفاطميين وفي الشام ومصر مثل - الأيوبيين والمماليك ثم سيطرة الإمبراطورية العثمانية التي تعتبر آخر الإمبراطوريات التي كانت تحكم باسم الإسلام على امتداد رقعة جغرافية واسعة. تلك هي الرقعة الإسلامية دون جدال أما ما نحن بصددده فهو بداية الإسلام وليس نهايته، إذ أنه ما زال الغموضُ يلفُّ تاريخَ ظهور الإسلام وتاريخ ظهور حياة محمد بن عبد الله نبي الإسلام. بل حتى شخصية

محمد نفسه يحيط بها الغموض. والسبب الرئيس في ذلك هو عدم وجود شواهد تاريخية يمكن أن نعتمد عليها في تأريخ الإسلام. فاللغة العربية لغة القرآن قد نمت من اللغة الآرامية السريانية التي كانت سائدة في منطقة الهلال الخصيب، ولم يكن نمو اللغة العربية قد اكتمل وقت ظهور الإسلام. وكانت العربية في بدايتها لغة صوتية لا حروفَ أبجدية لها تمكّن الناس من كتابتها. وحتى الأعراب القليلون الذين تعلموا الكتابة كانوا يكتبون العربية بحروف آرامية، وقد أحدثت هذه الطريقة في الكتابة أخطاءً عديدة في الكتابات التي وصلت إلينا، بما فيها القرآن الكريم والتاريخ. وحتى عندما استقر العرب على حروفهم الأبجدية الثمانية والعشرين، كان هناك سبعة أحرفٍ فقط لا يمكن الخلط بينها أما البقية فكان القارئ يصل إليها بالتخمين لأن الحروف لم تكن منقوطة، أي مهمة. فلم يكن هناك طريقة للتفريق بين الباء والتاء والثاء، أو بين الجيم والحاء والحاء، وهكذا ... ولم يكن هناك حرف المد بالألف في وسط الكلمات، فنجد في القرآن مثلاً "جنت" بدل "جنات". والحروف المكتوبة ساكنة، ولم تكن ابتدعت الحروف المتحركة حروف المد واللين. فندرة الكتابة مع الأخطاء في النسخ جعلت الاعتماد على ما وصلنا من التراث الإسلامي غير ذي قيمة تاريخية. وما زال القرآن الشريف يُكتب دون الحروف المتحركة. ثم إن شخصية محمد نفسها لا نعلم عنها شيئاً مؤكداً. فكتب السيرة تخبرنا أنه ولد بعد موت أبيه بمدة قد تصل إلى أربع سنوات لأن عبد الله أبا محمد قد تزوج في نفس اليوم مع أبيه عبد المطلب الذي ولد له زوجته الجديد ابنه حمزة، عم محمد، والذي يكبره بأربعة سنوات حسب بعض القصص. فإذا كان حمزة يكبر محمدًا بأربعة سنوات، فلا بد أن محمدًا قد مكث في بطن أمه أربع سنوات، وهذا غير صحيح.

فمحمد الذي ولد يتيماً فقيراً، وترى في حضن جده عبد المطلب ثم عمه أبي

طالب، لم يكن شخصًا ذا بال حتى يهتم الناس بمولده ونشأته . وحتى عندما بدأ دعوته بمكة تجاهله الناس لعدم أهميته بينهم، وخاصموه لأكثر من عشرين عامًا. والقرآن نفسه يقول لنا عن أهل مكة إنهم تساءلوا فيما بينهم عندما قال لهم محمد إنه أتى بقرآن من عند الله، فقالوا: (وَقَالُوا لَوْ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ) الزخرف . فمحمد لم يكن عظيمًا بينهم، والقرآن نفسه يقول له على لسان الله: (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى) الضحى 6 (ووجدك ضالًّا فهدى) الضحى 7 (ووجدك عائلًا فأغنى) الضحى 8.

فكيف يؤرخ الناس لرجل مثل محمد ويحفظون تفاصيل ولادته ونشأته ورعيه للغنم ورضاعته عند حليلة السعدية وشق صدره وهو طفل؟ وكيف يتناقل الناس مثل هذه القصص عنه ثم لا يصدقونه عندما يقول لهم إنه نبي الله؟ فالواضح أن سيرة حياة محمد كلها صناعة متأخرة تفنن القاصون في صياغتها بخيال خصب، الهدف منه تمجيد الإسلام ورسوله.

وإذا سألنا من هو محمد؟ وهل كان محمد هو اسمه الحقيقي، تخبرنا كتب السيرة أن اسمه كان "قثم"، ثم سمي نفسه "محمد"، وعق، أي ذبح ذبيحة لنفسه يوم سمي نفسه "محمد". فعن أنس بن مالك أن النبي عق عن نفسه بعدما بُعث بالنبوة بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد القرطبي، ص 123. والاسم "محمد" قد استعمله النصارى بالجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام لأنه اسم مشتق من كلمة "الحمد" أي الشكر. فالشخص الكريم سموه "محمود" أو "محمد" أو "أحمد". فمثلاً كان هناك محمد بن سفيان بن مجاشع، أحد أساقفة بني تميم. ومحمد بن حران، من نصارى مذبح ... فإذا كلمة "محمد" قد سبقت ظهور الإسلام. والشخص غير المحمود كانت الأعراب تسميه "مذمّم". قال ابن إسحاق : وكانت قريش إنما تُسمى

رسول الله صلى الله عليه وسلم مُذْمَماً، ثم يسبونه، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ألا تعجبون لما صرف الله عني أذى قريش، يسبون مُذْمَماً، وأنا محمدٌ" السيرة النبوية لابن هشام، ص 202.

ثم إن إله القرآن لم يخاطب نبيه بالاسم "محمد"، وقد خاطب نوحاً فقال (يَا نُوحُ اهْبِطْ) هود 28، وخاطب إبراهيم (وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا) 301، 302 الصافات، وقال لعيسى: (يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ صَلِّ عَلَى مَنْ نَعَى) 11 آل عمران، كما خاطب موسى وقال: (يَا مُوسَى لَا تَخَفْ) 30 النمل - الإتيان لجلال الدين السيوطي - 282.

فماذا لم يخاطب نبي الإسلام بـ "يا محمد"؟ بل إن القرآن عندما تحدث عن محمد بلسان موسى قال لهم سيأتي نبي من بعدي اسمه أحمد، ولم يقل محمد، وبالتالي كان يمكن لمحمد أن يسمي نفسه "محمود" بدلاً من محمد. ثم إن محمداً لم يُعرف باسم واحد فقط، فقد قال لأصحابه (أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي وأنا الحاشر وأنا العاقب) صحيح البخاري. فالاسم محمد اسم منتحل، وليس الاسم الذي عُرف به نبي الإسلام قبل ظهور الإسلام.

ثم نأتي إلى الاسم "عبد الله". فقد كان ملوك إيران يعتقدون أن الحُكم في مملكة إيران - شاهر يجب أن يكون في عائلة ساسان لأنهم أحفاد الآلهة. وعندما اعتلت الملكة بوران ابنة الملك خسرو الثاني العرش، صكت ميدالية ذهبية نُقش عليها "بوران- مجددة نسل الآلهة". وبعد هزيمة الساسانيين على أيدي الإمبراطور هيراكليوس في عام 622، بدأ حكم المسيحيين العرب في سوريا وإيران. وأول ما فعله الحكام المسيحيون العرب هو محاولة إزالة مفهوم أن الحكام من نسل الآلهة، فأدخلوا مصطلح "عبد الله" للحاكم. وكذلك فعل المسيحيون في سوريا.

بل أن مسيحيي سوريا كانوا يقولون إن يسوع عبد الله ورسوله. وكانت هذه عادة مسيحية سورية ترجع إلى القرن الأول الميلادي. وهناك الخطاب المكتوب إلى المسيحيين في نهاية القرن الأول الميلادي والذي يقول إن الله واحد وهو خالق الكون وخدامه المحبوب يسوع المسيح سيدنا. فإذا مصطلح "عبد الله" قد سبق ظهور الإسلام وأخذته المسلمون من المسيحيين. فعبارة "محمد عبد الله" أو "عبد الله محمد" لا تتم عن معتقد إسلامي ، بل مسيحي.

تخبرنا كتب السيرة أن محمدًا وُلِدَ في عام الفيل، الذي لا نعرف تاريخه بالتحديد، ويقول أهل التاريخ إنه العام الذي حاول فيه أبرهة الحبشي غزو مكة من قاعدته في اليمن عام 570 ميلادية، وإن محمدًا بدأ دعوته عام 610 في مكة وعمره أربعون عامًا. وقد أُسري به من مكة إلى المسجد الأقصى في القدس على ظهر البراق الأبيض قبل أن يهاجر إلى المدينة عام 622. فلا بد أن الإسرائ كان حوالي العام 615م أو بعدها بقليل لأن الخمس سنوات الأولى من الدعوة كانت مليئة بالخوف، وتوقف الوحي بعد موت ورقة بن نوفل، ومحاوله انتحار محمد بإلقاء نفسه من شاهق، ولم يكن له أتباع يُذكرون حتى أسلم عمر في العام الخامس من الدعوة. ولكن كتب التاريخ غير الإسلامية تخبرنا أن الفرس الساسانيين قد استغلوا الخلاف بين بيزنطة المسيحية الكاثوليكية وبين مسيحي الشام الشرقيين، فغزوا سوريا وفلسطين عام 614، أي بعد ظهور دعوة محمد بأربع سنوات. وقد منح الفرس القدس لليهود الذين كانوا قد عانوا الاضطهاد تحت الإمبراطورية الرومانية في بيزنطة. وقد هدم اليهود كنائس القدس ودمروا جزءًا كبيرًا من كنيسة القيامة في العام 614. فلا بد أن محمدًا قد أُسري به إلى كنيسة القيامة بعد أن خربها اليهود. وقد يستغرب المرء كيف أمّ محمد جميع الرسل والأنبياء في كنيسة القيامة المهدومة ولم يرمها الله لهم تكريمًا لكل ذلك

## الجمع من الأنبياء والرسل!

تخبرنا كتب التراث كذلك أن محمدًا قد هاجر إلى يثرب عام 622 - 623م، وهو العام الذي غزا فيه الإمبراطور هيركليوس أرمينيا وانتصر على الفرس، وتم الصلح بين بيزنطة والفرس، وتم بعدها إرجاع الأراضي التي احتلها الفرس من الرومان في مصر وفلسطين وسوريا. وكان من المفروض - حسب القرآن - أن يفرح المؤمنون بهذا الانتصار العظيم للروم على الفرس، بينما تخبرنا كتب السيرة أن المؤمنين كانوا في أسوأ ظروفهم، فنيهم هرب في جنح الليل إلى يثرب، وبقيّة المؤمنين كانوا في الحبشة في ضيافة الملك المسيحي النجاشي، وبالطبع لم تكن هناك حفلات وعروض بالسيوف بهذا النصر العظيم. ولكن على الأقل فإن المؤمنين بدءوا تاريخهم الإسلامي بهذا العام الذي انتصر فيه الروم وسموه التاريخ الهجري، بينما سماه السوريون والإغريق "التاريخ العربي" نسبةً لبدء الحكم العربي في المملكة الساسانية.

وحسب التاريخ الإسلامي فإن محمدًا مات عام 632 وخلفه أبو بكر لمدة عامين، ثم آلت الخلافة إلى عمر بن الخطاب الذي فُتحت في خلافته الشام ومصر وفارس، وأنه عين معاوية بن أبي سفيان حاكمًا على الشام. وعليه يجب أن يكون معاوية مسلمًا رغم أن كتب السيرة تخبرنا أنه وأباه أبا سفيان بن حرب قد ناصبا محمدًا العداء حتى فتح مكة في حوالي العام 630م، أي قبل عامين من وفاة محمد. فهل حقيقةً كان معاوية مسلمًا وكاتبًا للوحي؟

بعد موت الإمبراطور هيركليوس في عام 641م استولى المسيحيون العرب على الحكم في سوريا، وكان على رأسهم رجل يدعى معاوية، وهو اسم آرامي يعني البكاء، أي الذي يبكي كثيرًا، وهذه الصفة عادة ما تُسبغ على رجالات الدين

الذين يخافون الله. كتب التاريخ المسيحية لا تذكر أنه ابن أبي سفيان. ولدى المتاحف الآن عملات تحمل اسم معاوية ضربت في درابجيد بفارس عام 41 من التاريخ العربي. وتحمل هذه العملات مع اسم معاوية صفة "أمير ولوشنيكن". وترجمة ولوشنيكن هي "المصدقون، المخلصون، المؤمنون". فحتى لو قلنا إن معاوية كان أمير المؤمنين ، فليس هناك ما يدل على أنه مسلم! إذ أن المسيحيين مؤمنون بيسوع، وهو أميرهم. وهو نفس اللقب الذي يحمله اسم معاوية المنقوش على خزان بالقرب من الطائف، ومؤرخ عام 58 بالتاريخ العربي. ونفس النقش موجود باللغة الإغريقية على مبنى حمامات في فلسطين، والسطر الأول من النقش يحمل علامة الصليب. فعواوية لم يكن حاكمًا على الطائف وليس هناك من سبب لكتابة اسمه باللغة الإغريقية على الحمامات في فلسطين ووضع الصليب في أول النقش لو كان مسالمًا حاكمًا بالشام. ولكن لأن معاوية كان أول الحكام العرب المسيحيين الذين استولوا على الحكم في المملكة الساسانية بعد هزيمة الفرس عام 622 ، احتفل به المسيحيون في فارس وفي الطائف وغيرها ونقشوا اسمه ولقبه على المباني وعلى العملات.

ونص النقش على الحمامات باللغة الإغريقية هو: (في أيام معاوية، عبد الله وقائد المؤمنين، أُصيبت هذه الحمامات على يد الأمير عبد الله بن أبي أسيموس في اليوم الخامس من ديسمبر، اليوم الثاني من الأسبوع، في السنة السادسة في السنة 726 من إنشاء المدينة، في السنة 42 بالتاريخ العربي، تحت رعاية يوهانس قاضي المدينة). هي دورة تتجدد كل 15 سنة حسب التاريخ الروماني القديم، وهناك الآن بالمتاحف عملات نحاسية كثيرة تحمل اسم معاوية وعبد الملك بن مروان وسالم بن زياد وعبيد الله بن زياد. وهناك عملة ضربت عام 41 تحمل اسم زياد بن أبي سفيان. وكلها تحمل علامة الصليب أو الحجر اليهودي (بيت الإله)

، وبعض العملات تحمل كلمة "محمد" مع الشمعدان اليهودي ذي السبعة أذرع، وتغيرت أخيراً إلى الشمعدان ذي الخمسة أذرع. ولا تحمل أي من العملات التي اكتُشفت حتى الآن الهلال الإسلامي. ولم يعثر المنقبون على أي عملة تحمل اسم أبي بكر أو عمر أو عثمان. ولم يُذكر في أي من النقوش أو العملات من زمن معاوية كلمة الإسلام أو أبا بكر أو عمر أو عثمان. فليس هناك ما يدل على أن الحكام الأمويين كانوا مسلمين. هذا ما أطلعنا عليه علماء الحفريات وغيرهم ونحن لا نشكّ مطلقاً بأن معاوية مسلماً وأبا بكر مسلماً وعمر مسلماً وعثمان مسلماً.

obeikandi.com

## الفصل الثامن

سوزان تأبّطت طاها وسارا الهويّنى من شارع المدارس تاركين السربون وأهل الجامعة والحى اللاتينى وأهل الحى اللاتينى إلى حى مبرناس؛ حى الأدب والأدباء والفكر والمفكرين. ازدادت الضوضاء فى شارع مبرناس كلما غاصوا بخطواتهم داخل الحى الذى لا يهدأ ولا ينام، والمارّة على أديمه ذهابًا وإيابًا، والشىء الغريب أن طاها لم يسمع بائعًا جائلاً أو قابعًا، بل أصوات حياة الناس وأديمها. أما ما أشجاء أن يستمع إلى مقطوعات من الموسيقى الكلاسيكية أو موسيقى الغرفة التى لا تحتاج سوى ثلاث عازفين، أضفت تلك الحركات الموسيقية على المارّة بهاءً وسعادة قلما نجدهما فى بلاد الشرق، أو بالتحديد فى مصر أو بالأدق فى القاهرة وإن تحرّينا الدقة فى حوارى الأزهر والسيدة زينب، هناك نسمع أصواتًا منقّرة وأصواتًا مزججة وأصواتًا كأصوات الحَمِير.

سأل طاها :

- نسمع هنا موسيقى وهناك غناءً، وكلما توغلنا فى جادة مبرناس نسمع شعراً، كيف أنا لهؤلاء وأولئك أن يعملوا بتناغم دون مشاجرة؟
- الشرطة هنا تحدد لكل هاوٍ أن يقدم فنه فى ساعة محددة وفى مكان محدد والفنانون يطلبون ذلك من قسم الشرطة مسبقاً.
- ولهذا لا تداخل بين تلك الفنون المتجولة.

- حتى الرسامون لهم مكانهم ووقتهم، والشرطة تراقب وتنظم، ولهذا يظهر المسرح وكأنه كذلك خلق في أحسن صنعة.

- تقصدين وهكذا يعتقد المازرة أن الحياة في هذه الجادة طبيعية لا دخل لأحد في تنظيمها أو إظهارها عفويًا.

- عندما تنظم الحياة بهذا الشكل تسير الأمور بشكل طبيعي وإن كان ما يغضب البعض

ومن المنافسة المنضبطة يولد فن منضبط متعاون منتج مبهج.

- هذا صحيح "مبهج". هذه المنطقة من باريس مبهجة بأنوارها الفكرية وحركتها المستمرة وموسيقاها وشعرائها وحتى فلاسفتها ورسامها، وكل دروب الفن والمعرفة . - أعتقد أن تلك المدينة سحرتك كما سحرتني.

- نعم، كما تعلم أنا من الجنوب الفرنسي المحافظ.

- أما أنا فمما تعرفين لست من الجنوب الفرنسي بل من شمال القارة الأفريقية. - أنت مصري !

- هذا صحيح، وإن خالطت مدينة القاهرة فلا أرتاح لأصواتها المختلطة، لا أزعج أن هنا الفن وهناك اللغظ بل لكل فنه. هناك فن متكلف وهنا فن طبيعي وإن خُيّل لنا ذلك. لأن الفن الراقى هو الفن البسيط دون كلفة، حتى إن بذل الفنان في صنعه الوقت العسير ليظهر لنا بسيطًا جليًا.

- هكذا الحي المبرناسي يظهر لنا بسيطًا جليًا، والحق أن وراء تلك البساطة عملاً إداريًا معقدًا، ومراقبة العمل عن قرب بواسطة إداريي المدينة وشرطتها الذين يعملون على راحة الفنان والمتلقي، لتظهر باريس وكأنها هي كذلك خُلقت دون فعل فاعل.

- وهذا ما حبّبتني في هذه المدينة التي تُقدّر الإنسان لأنه إنسان فقط له حقوق وعليه واجبات، ولا تعارض بين الاثنين. أسيّر في الشوارع وأعرف طريقي دون حاجة لمساعدة لأن معالم الطريق واضحة لحاسة السمع.

- أنبهك إلى أننا أمام مقهى " الروتوند " وعلى رصيفها تُرصد الموائد الدائرية الصغيرة الرخامية ولكلّ مقعدان صُنِعَا من القش، هل تريد أن تأخذ مشروبًا هنا؟

- نعم ... نعم .

- هل تريد الجلوس على التيراس أم في الداخل أم على البار؟

- أفضل أن أكون داخل المقهى، وما الفرق بين البار والداخل؟

- رواد البار عادة في عجالة من أمرهم، وسعر المشروب على البار أرخص من

الجلوس في صالة المقهى ويأتي الساعي بطلبك.

- اختاري أنت المكان وسأكون سعيدًا بصحبتك.

- هناك طولة بين البينين خلف زجاج المقهى نرى منها الخارج والداخل.

- أفضل هذا، لأنك عيناى التي أرى بهما، وأتعرّف من خلالهما حركة الشارع

الفسيح، وأشكال الإضاءة التي ملأت بها رأسي حتى كاد عقلي أن يُفرق بين هذا

وذاك، وبين هؤلاء وأولئك.

ماذا تفضل أن تشرب.

- أريد قهوة باريسية سوداء ذات وجه "بوش".

- أفي هذه الساعة تُشرب القهوة؟

- القهوة الباريسية لا تُورقني. وأنتِ؟

- سأطلب كأسًا من الخمر الأبيض المثليج.

وجاء النادل وطلب ما أشارت به الأنسة سوزان. وشكرهم النادل على حسن اختيارهم لهذا المقهى وهذا المكان، وعاد مسرعًا بما طلبا على صينيته ووضع المشروب بكل هدوء وأدب، وتمنى لهم سهرة ممتعة في حي مبرناس.

قال طاها : أشعر في تلك المنطقة أننا في أحد شوارع القاهرة.

- أتمنى أن أزور مصر معك.

- تشرفيني، وتشرفي مصر.

- أنت مبالغ دائمًا.

- لا أقول غير الحق. فأنت أنسة على قدر رفيع من الثقافة، وذات صوت مبهر،

وذكاء نادر، وزد على ذلك لهجتك الجنوبية تزيدك دلالة.

أنت تعرف أي من جنوب فرنسا وليس لي لهجة الباريسيات.

- هذا صحيح، وليس قصورًا، ولدينا في مصر كذلك لهجة أهل القاهرة، ولهجة

أهل الإسكندرية، ولهجة أهل سيناء ولهجة أهل الصعيد التي أنا منها.

- عندما تأخذني إلى مصر أود أن أزور أهل الصعيد لأتعرف على أهلك

ولهجتك الأصلية.

- سيكون ذلك يوم عيد لأهل مغاغا عاصمة الصعيد.

- ألم أقل لك أنك دائم المبالغة.

- أنتم معشر الفرنسيين لكم آدابكم وإرثكم الثقافي المنزه عن الهوى. أما المصريون

فلهم إرث ألف ليلة وليلة وأحلام شهر زاد وشهر يار.

- تعرف أي حتى الآن لم أقرأ ألف ليلة وليلة.

- ممتعة. ولكن عيشة الحالم العربي غير عيشة الفرنسي المتنبه! أنتم تتمتعون

بذكر الله يومًا في الأسبوع، ونحن كل يوم.

- وهل للإله وجود في حياتك؟

- أعرف أنك من أسرة متدينة كما ذكرت، ولديكم قَسَمٌ يأتي إلى منزلكم للدرس كل أسبوع.

- وهل في هذا عجب؟!

- لا أعجب ولا أعيب بل أقر بأمر واقع في أسرتك، كما في أسرتي أيضًا، أنتم اتخذتم إلهًا ونحن اتخذنا نفس الإله، ولكن طريقة عبادتكم تختلف عن طريقة عبادتنا.

- كيف هذا؟!

- أتمّ تعبدون لتحبّوا بعضكم وبالحسنى. أما نحن معشر المسلمين فبالترهيب والوعيد والعقاب الشديد من النار التي ستسعرنا بسعيرها إن لم نؤمن بالله. هذا العقاب والثواب هو الذي لا أقره ولا أجيزه لإله أو لبشر.

- لذلك كان لأبي العلاء المعري هوّى لديك.

- أبو العلاء المعري فيلسوف شكّ في كل ما هو غير عقلي.

- وأنت؟!

- إن سئلت هذا السؤال في مصر فأجيب بأني أشك في منهج القرآن وطريقة وضعه، أما إن سئلت هذا السؤال في باريس فلي جواب آخر، حيث لا نستطيع الشك في محمد أو القرآن بل أشك في الله ووجوده مباشرةً.

- ولماذا هذا الاختلاف في شكك؟!

- نحن نشك ونخفف من شكنا؛ لأن الفكر المصري أو العربي لم يستوعب حتى

الآن معنى الشك.

- هل هو شك ديكارتي؟

- أوكد لك يا آنستى أن من المصريين وخاصة شيوخهم، من لا يعرفون

ديكارت، وممكن أن يعتقدوا أنه اسم أكلة فرنسية أو شراب شعبي.

- ألا يقرأ هؤلاء الشيخ شيئاً؟

- من الغريب أنهم يرون أن الأديب "هو من يأخذ من كل شيء بطرف".  
وكتب الأدب العربي القديمة كلها قائمة على هذا النحو. لكن أدباءنا لا ياتون  
من كل شيء بطرف، بل يجهلون ديكارت وفلسفته وأثره البعيد في حياة العقل  
والشعور.

- وكيف يتعلمون؟!

- هناك قولان في هذا: القول الأول أنهم غير ملزمين بمعرفة ما لم يعرف، أي  
البحث، ويكفي أن يعملوا برنامج وزارة المعارف. والقول الآخر وهو أن الشيء  
الذي ينبغي أن يلم الأديب منه بطرف هو الشرقي القديم وما عداه فلا شيء.

- الأدب هنا لذيذ وممتع في كل فروعه وعصوره.

- أما في الشرق فالأدب شؤم على صاحبه. ومن شؤم الأدب على الأدباء أن  
كتاباً ظهر في هذه الأيام يقال له "الشعر الجاهلي" فانبرى الأدباء في نقده وهدم  
صاحبه تقريباً إلى الله أو ... إلى الشيطان!.

- هكذا يعامل الشرق الأدب والأدباء.

- كما عاملت أوروبا أدباءها في عصورها الوسطى.

- ولكننا الآن في العصر الحديث.

- الشرق يا عزيزتي ما زال يسبح في عصوره الأولى.

- وإلى متى هذا الجهل؟

- علمت من صديقي الحكيم أنه تعرّف على صديق شاب مصري آتٍ من  
المستقبل، سئله في الأمر لنرى إلى أين ذهب العقل المصري بل العقل العربي

الإسلامي.

- أتمنى أن أكون معكم في هذا اللقاء.

- من المؤكد أنك ستكونين معنا لتشهدي على عصور قادمة.

- لا آسف على ما لاقيته من عناء، ففي دراستي لديكارت ومذهبه وما أذعته

هنا لا يعلم عنه شيئاً هؤلاء الفقهاء المعمون.

- أشهد أن الذي أذعته مؤخراً عن ديكارت في فرنسا قد دكت له السربون،

واضطربت لها الكوليج دي فرانس، وأعلن لها المجمع الفرنسي إفلاسه أو كاد!

- أنت تبالغين يا آنسة.

- لأنني آمنتُ بك وبفلسفتك.

- لا تعجب فأننا لا أحدثك إلا بالحق الذي لا شك فيه ولا غبار عليه.

- إذًا ما أذعته هنا في فرنسا يختلف عما أذعته في مصر، أو هو امتداد للشعر

الجاهلي وليس إلغاءً له.

- هذا حق لأن الأدباء المصريين والعرب كما ذكرت لم يلموا من كل شيء

بطرف.

- حديثك ممتع يا طاها!

- وأنت مستمعة نادرة.

- هكذا باريس تجمع في أحضانها الغرباء.

- هذا حق أنت من الجنوب الفرنسي. وتعدين نفسك أجنبية وأنا من جنوب

الجنوب وأجنبي أيضًا.

- هذا جمال وثروة باريس، إنها حافظة لكل شعوب الأرض.

انتبهت سوزان على وقع خطوات شاب يتجه نحوهما، تقدم منها مبتسمًا محييًا  
وطبع على خديها قبلي التحية وقدمته إلى طاها:  
- أقدم لك صديقي طاها.

وقدمت طاها إلى قريبها العائلي:  
- أقدم لك أندريه.

مدَّ أندريه يده ملامسًا يد طاها وتصالفاً بحرارة شعر بها طاها، إنه شاب وسيم  
ضحك، وطلب منه أن يجلس معهما، تقدم منه النادل ووضع له مقعدًا قبالة  
طاها، وطلب أندريه نفس مشروب سوزان من الخمر الأبيض المثليج.  
وتكلم طاها:

- طلبك هذا المشروب دليل على أنكما من نفس العائلة حقًا.

رد أندريه ضاحكًا:

- نعم ... نعم نحن فعلاً أقارب في الدم وبعض الحياة.

وضحكت سوزان كذلك.

ولكن طاها أردف في استغراب:

- لم أفهمك ... ماذا تعني؟

عندما ماتت والدي أخذتني "بوليت" أم سوزان لأعيش معهم بعد زواج  
والدي. لكنني لم أطق العيش هناك وفررت إلى باريس، ومن يومها لم أغادرها إلا  
في رحلاتي خارج فرنسا.

قال طاها:

- أعتقد أنك سعيد بحياتك.

ردت سوزان:

- هو كذلك، ولكن والدتي غضبت منه. وعندما عرفت أنه كاتب وأديب مرموق صفحت عنه.

قال طاها معجبًا:

- هل هذا صحيح أنك أديب؟!

ردت سوزان بفخر كمن وجدت من يساعدها في الحديث مع طاها:

- طبعًا، ومن في فرنسا لا يعرف قريبي "أندريه جيد"؟!

انبسطت أسارير طاها، وعاد لمصاحته مرة ومرات قائلاً:

- هأنذا مع أندريه جيد صاحب "الباب الضيق".

أردف أندريه مداعبًا:

- وأنت طاها صاحب "الأيام".

قالت سوزان مستغربة:

- هل تعرفان بعضكما؟!!!

رد طاها:

- عرفته منذ زمن لأنني مترجم روايته "الباب الضيق".

قال أندريه:

- وأنا من قدمت للطبعة الفرنسية لرواية طاها "الأيام".

قالت سوزان موجبة الكلام إلى طاها:

- ألم أقل لك منذ قليل إن باريس بوتقة الفكر في العالم؟.

أجاب طاها:

- هذا صحيح لم أكن أتصور أن يأتي إلى طاولتي، وفي هذا المقهى وبصحبة

قريبته فارس فرنسا في الأدب.

قال أندريه:

- لا تبالغ يا صديقي.

ردت سوزان:

- طاها سخي مع أصدقائه.

قال أندريه:

- وهل ستنتهي هنا رواية الأيام؟

قالت سوزان مجيبة:

- يدرس طاها ويُدرّس في نفس الجامعة.

سأل أندريه:

- حول "الشعر الجاهلي"؟

أجاب طاها:

- بل حول الأدب اليوناني

أبدى أندريه إعجاباه العميق بطاها قائلاً:  
- أنت مفكر متمكن من علمك. وفرنسا بحاجة لرجل مثلك.

قالت سوزان:

- نحن نحب فرنسا، وإن شئت يا أندريه قل إن العالم بحاجة لمفكر مثله.

انبسطن أساير طاها وهو يقول:

- لست أنا المبالغ في تقدير نفسي أو الأصدقاء.

قال أندريه موجهاً الكلام إلى طاها:

- لقد كتبت عني عند تقديمك لرواية "الباب الضيق" أي ذو نفس صوفي مسيحي. وكان لي سؤال عن الأسباب التي دفعتك لهذا العمل.

قال طاها:

- أوجه إليك نفس السؤال.

أجاب أندريه:

- لقد أبرزت في كتاباتي أحياناً الجاذبية الكبيرة للعالم العربي ولأنوار الإسلام، وقد عشت أحياناً ولوقت طويل بصحبة مستعربين وباحثين في شؤون الإسلام.

قال طاها متعجباً:

- أهذه الدرجة تأثرت بصحراء الإسلام؟!

من المؤكد أنني لن أكون أنا لو لم أطل الوقوف في ظل النخيل، بعد أن أكون قد تذوقت حدّ الوجد والحرق العنيفة للصحراء. ولقد عرفت عندئذ كيف أغرز الحلة الجديدة لتقافتنا الغربية وأعثر من جديد على أصالة إنسانية مفقودة.

- تعلمت الكثير من العالم العربي وتقبلت الكثير، فإنه لا يبدو لي أن العكس كان ممكنًا، ولذلك ترجمت عملكم إلى اللغة العربية.

- ذلك لأنني أعتقد أن الإسلام - ويبدو لي أن هذه خاصية أساسية من خصائص العالم الإسلامي - يقدم للفكر الإنساني أجوبة أكثر ما يثير من أسئلة. فهل أنا مخطئ في ظني هذا؟ قد يكون ذلك ممكنًا، غير أنني لا أحس قلقًا كبيرًا عند الذين تكونون وتربوا في ظلال القرآن. إنه - أي القرآن - مدرسة اليقين التي لا تُحرض أبدًا على البحث...

قال طاها:

- ولكن لا، أتم لا تخطفون، ولكن هذا لا يمنع من أنكم ارتكبتم خطأ. لقد تعرفتم على المسلمين ولكنكم لم تتعرفوا على الإسلام! وقد تم هذا في فترة عصيبة من تاريخ المسلمين، فترة تدهور خطيرة من ناحية عاطفتهم تجاه دينهم وأيضًا من ناحية معرفتهم بدينهم.

تساءلت سوزان متحفزة:

- هل هناك مسلمون ومسلمون؟

أجاب طاها:

- إن هؤلاء المسلمين الذين تعرفتم عليهم، بسطاء وجهلة، لا يمكنهم أن يقولوا لك إذا ما كان باستطاعة القرآن أن يقترح أجوبة أو يثير أسئلة. إن قدرتهم الوحيدة هي مساعدتك على معرفة فولكلور بلدانهم الراضخ لهيمنة الصحراء المجاورة.

لقد رأيتم مسلمين آخرين، ربما كانوا على اطلاع على ثقافتكم الغربية لكنهم بالتأكيد لا يعرفون الشيء الكثير عن ثقافتنا الشرقية. أما المستعربون الذين تعرفت عليهم فإنهم لا يهتمون - وهذا ما تفرضه عليهم مهنتهم - بالنص أكثر مما

يهتمون بروح النص. هؤلاء وأولئك ليس بمقدورهم أن يقدموا لك فكرة دقيقة عن القرآن وعن تأثيره على الأفكار والقلوب. إن الإسلام لا يدعو إلى الطمأنينة بل هو يدفع بالعقل إلى التفكير الأكثر عمقًا ويشير الحيرة الأشد إرباكًا. والقرون الخمسة الأولى من تاريخ الإسلام هي الدليل الأكثر إقناعًا.

قال أندريه:

- إن الإسلام يثير الحيرة.

وتابع طاها:

- إن هذه الطمأنينة التي تدهشكم، وهذا التحدد الذي يكدركم - وكونوا على يقين من ذلك - ليسا من الإسلام في شيء وإنما هما دخيلان ومستوردان من الخارج، إن علاقاتكم بالمسلمين والمستعربين لم تسمح لكم بمعاينة القلق الذي أثاره الإسلام في بلاد العرب خلال القرنين الأولين من الهجرة، قلق أعطى للأدب العالمي شعر الغزل الأكثر غنائية وصوفية.

قال أندريه:

- في ظني أن الإسلام يعطي أكثر ما يأخذ.

بينما ظلت سوزان عاقدة لسانها عاملة عقلها سعيدة مبهجة معجبة بحديث صديقها وحديث قريبها، قال طاها:

- لقد ذهب في ظنكم أن الإسلام يعطي أكثر ما يأخذ، وهذا ليس صحيحًا فلقد أعطى الإسلام كثيرًا لأنه أخذ الكثير. فقد بدأ بأن أخذ من المسيحية واليهودية، ثم من التراث الإغريقي ومن الحضارتين الفارسية والهندية. كل هذا استوعبه لكي يبتكر منه شيئًا عربيًا أو منحه ما استطاع أن يمنحه إياه، ثم نقله إلى الغرب

قبل القرن الخامس عشر الميلادي. وعندما نكون قد أنجزنا مثل هذا العمل، فإننا نكون قادرين على أن نتقبل الثقافة الغربية ونحن نتقبلها جيداً.

مشيراً إلى نفسه واضعاً يديه على صدره.

وخرجت سوزان من صمتها أو فكت عقدة لسانها وقالت موجه الكلام إلى طاها:

- وهل نقلتم إلى العربية أعمالاً أخرى لأندريه؟

قال طاها موجهاً الكلام لصاحب الباب الضيق:

- إنه جدير بتقنكم، هذا المشرق العربي الذي ينشر رسالتكم مثلما فعل ذلك مع معلمي العصور القديمة. وتفهمون فرحنا بأن تكونوا بيننا في الوقت الذي تم فيه نقل أثرين من آثارك إلى اللغة العربية ليتعرف عليهما الجمهور المسلم الواسع، وسنكون سعداء أكثر إذا ما أكد لك نجاحها أن الإسلام يعرف معنى العطاء كما يعرف معنى الأخذ.

قال أندريه:

- الفرح... الفرح... الفرح، دموع الفرح... أجل، فوق الفرح الإنساني وفيما وراء كل ألم، أشم فرحة منورة.

قال طاها:

- وأعرف أن كل حياتي هدر إذا لم تنته إلى السعادة...

قالت سوزان:

- ومع هذا فقد كنت.

قال أندريه:

- يا إلهي تعدّ بهذه السعادة الروح الزاهرة الطاهرة، فكانت حكمتك المقدسة تقول: "طوبى منذ الآن للذين يموتون في الحرب". أيجب أن أصلي حتى الموت؟ هنا يضطرب إيماني.

قال طاها :

- أنا في الليل أنتظر الفجر. وأجرع البلاء حتى الموت.

قالت سوزان:

- تعال ردّ قلبي بسعادة أنا إليها صابية...

قال أندريه:

- أم ترى عليّ الاقتناع بأني لا أملكها، وكالطير الجازع الذي يناديني قبيل الفجر. ينادي النهار ولا ينبئ به، عليّ ألا أنتظر احتضار الليل كي أغرّد.

قال طاها معقبًا على صاحب الباب الضيق:

- هذا الشكل من التصوف استثنائي حتى بين أهل الغرب والشمال، بل بين النفوس التي كوّنوا المذهب البروتستانتي.

ويتساءل جيد:

- أتراني أودعُ "الباب الضيق" حظًا من الإنسانية الصادقة العامة، ومن الحب، كافيًا ليهز أولئك الذين استطاع تعليمهم الخاص أن يُنئنيهم عن مثل هذا البلبال .

obeikandi.com

## الفصل التاسع

لم يحاول الحكيم الكتابة إلى طاها بالرغم من وجوده في باريس منذ فترة. أما طاها فقد كان شغوفاً بالحديث إلى صديقه الحكيم، لأن منه يعلم الكثير عن الحياة الفنية والفكرية والثقافية والمسرحية في باريس، وما يُعرض من مسرحيات في بيت موليير الكومدي فرانسيس وفي المسارح القومية الخمسة الأخيرة في باريس - مسرح شاتليه ومسرح المدينة ومسرح شايوه ودار الأوبرا - وما يُعرض في معارض الرسم والتصوير والنحت وغيرها من الفنون التي توحد باريس فنياً وثقافياً وفكرياً دون منازع على عواصم العالم قاطبة.

شوق طاها للحكيم هو شوقه لكل تلك الفنون. لم يحاول الحكيم الكتابة إلى طاها لأنه لا يريد إزعاجه عن الدرس، وطاها لم يحاول أيضاً الاتصال بالحكيم لأن الحكيم في عزله بغرفته بحي مارتر لم ينته بعد من وضع مخطوطها الذي أغرقه بما حوت رأسه من قراءات في كل فروع العلم. الحكيم الذي حبس نفسه مع ذبابة في غرفة كئيبة بحي الفنون والإبداع لبيدع أحسن ما وصل إليه العقل البشري. وعندما قرر الإفراج عن نفسه لبعض الوقت نزل من عليائه إلى أديم ميدان دي تتر، واشترى بعض الصحف الفرنسية والمجلات وبرامج المسرح والمعارض، وانزوى في ركن من أركان مقهى مومارتر الأهلة بفناني الميدان ورساميه ومنشديه. وقعت أول ما وقعت عيناه على برنامج بيت موليير لهذا الموسم من مسرحيات فرنسية، قرأ بعضها ويريد مشاهدة الأخرى. وأجل ذلك حتى يلتقي بطاها. أما

دار الأوبرا فبرناجها أهل بالموسيقى الكلاسيكية التي تمنى أن يستمع إليها جميعاً، لكن خلو جيبه يمنعه كثيراً. وسارة برنارد ونسرها الذهبي في مسرح المدينة، ورقص البجعة على مسرح شاتليه، وقعث عينا الحكيم على معرض للرسم في صالة القصر الكبير لفنانة مكسيكية يعتقد النقاد أنها سورالية والبعض الآخر يراها واقعية، والبعض الآخر يراها بوهيمية. ولكل رأي في تلك التي أتت باريس من النصف الآخر من الكرة الأرضية لتتضارب بشأنها الأقاويل والأفكار والمذاهب، تلك البوهيمية أو تلك السورالية أو تلك الواقعية هي "فيريدا كاهول" ... حتى اسمها إثارة!! فهل هي عربية واسمها "فريدا"؟ أم هي مكسيكية الأصل واسمها يكتب "فيريدا" بكسر الفاء؟ لقد شغلت تلك الفنانة الحكيم، فهل لكونها من النصف الآخر من الكرة الأرضية؟ أم لكونها مكسيكية أم لكونها بوهيمية؟ أم واقعية أم سورالية؟

لم يتردد كثيراً وقام إلى جهاز التليفون واتصل بطاها. هو الذي سيزور معه هذا المعرض الفني. أجابه طاها: بكل سرور، بالرغم من أن ما عرض الحكيم عليه من مسرحية على خشبة مسرح بيت مولير تستحق المشاهدة أيضاً.

استقل الحكيم المترو من شمال باريس إلى جنوبها في رحلة هجرة كما كان يسميها الحكيم، وكأن الانتقال من حي إلى حي هجرة! واستغرقت تلك الهجرة بالمترو من الشمال الباريسي إلى الجنوب الباريسي عشرين دقيقة. وكان أمام باب غرفة طاها الذي رحب به أشد ترحاب، وقررا أن يبدأ رحلتها إلى القصر الكبير فوراً، مستقلين المترو إلى محطة الشانزليزيه حيث القصر الكبير، الذي أقيم على أنقاض قصر الصناعة 1897 ومتحف القصر الكبير واحد من مائة وسبعة عشر متحفاً في باريس. وتُفتح قاعته لكبار الفنانين في العالم. عرج الصديقان على مقهى

بداخل القصر الكبير لاحتساء فنجان من القهوة الباريسية السوداء على البار ليعدا نفسيهما لاستقبال فيريدا، أو ليكونا على أتم استعداد لتلقي ما تعرضه تلك الفنانة التي شعر بها الحكيم دون أن يرى شيئاً لها. يعرضُ المقهى الملحق بالمتحف منشورات عن فيريدا ورسومات لها وعنها، واليوم يوم الافتتاح ومن المؤكد وجودها.

قالت : ما الذي أعرفه عن جسدي ؟

"كل ما تعلمته أنني يجب أن أتجاهله دائماً، إذا التوت قدمي في الطريق عليّ أن أنتظر قليلاً قبل أن أكمل طريقي رغم الألم، إذا اشتعلت الموسيقى فجأة واستبدت بي رغبة عنيفة في الرقص في الشارع على أن أبتسم وأمضي. هكذا تعودتُ أن أسكن هذا الجسد دون أن أعرفه بعمق. أبحث عن اللوحات التي تشبهني أو تشبه ما أعرفه عن جسدي، ذلك الكائن الذي يخترن الألم في صبر".

وتعريف بها وبحياتها التي أثرت كثيراً في نفس طاها، ولولا نظارته السوداء لرأى الحكيم دمعة على خده! وبالرغم من ذلك أحسها الحكيم، دخلا خاشعين وصم طاها أذنيه عن كل ما يحيط به، إلا همسات الحكيم أمام اللوحة الأولى التي شرحها الحكيم وشاهدها طاها بروحه. أنشد الحكيم أذن صاحبه: في تلك اللوحة تطالعا امرأة متخشبة قليلاً، نصفها الأعلى عارٍ تماماً ومسنود بدعامات حديدية كما لو كان آيلاً للسقوط! يبدو جسدها فخارياً بشقوق خفيفة.

وتبدو تنورتها السفلى كأنها مصنوعة من الجبس! يظهر ذلك في طريقة تلوينها وفي التضاة الشديد بين الفاتح والداكن، في شبه غياب لدرجة اللون الوسطى بين الداكن والفاتح. تساقطت على تنورتها مسامير صغيرة تؤكد هذا التصلب عندما تتناثر على سنوتها الحادة بخلاف المسامير في الواقع التي تسقط بكامل

كتلتها، الوجه هنا هو حامل التعبير وناقل حالة الألم المكتوم التي اتضح من خلال الشفاه المغلقة بحزم والالتقاء الحاد للحاجبين المرسومين بقوة. الدموع تظهر داخل العينين وخارجها وكأنها مجرد آثار جانبية محتملة. مع ذلك ندين بقوة التعبير للعينين المرسومتين بخطوط بسيطة ومحددة. الشروخ تتناثر في الوجه، أما الشعر الذي يُعبر عن المشاعر فهو أكثر الكتل إنسانية في اللوحة. تبدو الخلفية منتمية تمامًا لطبيعة اللوحة، ضربات الفرشاة الحادة تصنع السماء والسحب بينما الأرض تظهر في الجزء الأكبر من الخلفية محددة وكأن زلزالاً ضربها للتوّ. الجسد هنا لا يشير إلى الحياة ولا يحتفي بالبهجة، الجسد المتكسر المتكى على أعمدة خرسانية يُعبر عن وجه مكشوف تمامًا مثلما يبدو جسد هذه المرأة مكشوفًا.

تأمل طاها بعض الشيء وهمس لصاحبه:

- ليس المقصود بتلك اللوحة إبراز الجمال والتناغمات في جسد المرأة كما كان فنانو عصر النهضة مثلاً يرسمون العاريات. ولكنه يكشف عن التشوهات العميقة للروح، لقد تحول هذا الجسد في رأيي من أداة للوصول إلى أداة تعذيب حية.

## اللوحة رقم (1)

بعد هذا التعليق الهامس اتجها إلى اللوحة رقم وقد تأكد طاهها أنه بصحبة فنان عليم بفنه وقال الحكيم :

- الفضل في ذلك يعود إلى صديقي البرناسي الذي حكيت لك قصته.

- أتقصد كرسيتون أو البرناسي؟

- نعم هو بعينه. من تجولت معه في معظم صالات العرض والمتاحف وكان خبيراً في فن الإلقاء والوصف.

- كنت أتمنى أن أجالسه.

- وأنا من يستمع إليّ؟! إن كنت أنا سعيداً بأن ألقى عليك درساً في وصف

الفن فسعادتي بأن لي مستمعاً يجيد فن الاستماع أكبر.

- أرى هنالك جمعاً من الناس أعتقد أنها فيريدا في استقبال الزوار.

- شوّفتي رسمها إلى معرفتها. هل تتحدث الفرنسية؟

- نعم كأنها من أهلها.

- إذأ علينا أن نحادثها بعد أن نكون تعرفنا على فنها أولاً.

- هكذا الذوق وأنت مبدع في الذوق واحترام الآخرين.

وإلى اللوحة رقم (2).

في اللوحة ترقد امرأة على سرير خشبي وفوقها دعامة ما تحمل ما تبصقه في وجه العالم. وتتضح تلك الكتلة المعجونة من اللحم على الحامل فوقها، فنرى الجمجمة والأمعاء وخزيراً صغيراً، وسمكة ودجاجة خارجتين من فم امرأة، مثلما تخرج بالونة الحاوي من فم رسوم الكاريكاتير. تنظر لنا بقوة بينما يبدو جسدها متقلصاً في نسب غير واقعية، خطوط الملاءة تفصح عن بروز للبطن، وتبدو كتلة الشعر كثيفة

جداً ومتسعة مقارنة بالكتف ضئيلة الحجم. في الخلفية نجد الشمس مرسومة بخطوط حادة، وتأثيرات وألوان تشبه البرتقالة، وحوها هالة الضوء المتخيلة، والقمر على اليسار هناك باهت في الخلفية، يكاد يتماها معها. السماء ملونة بأزرق الصباح الفاتح، والأرض ممتلئة بالأخايد، نقوش الملاء المرسومة بعناية شديدة تتعارض مع خطوط بقية اللوحة العنيفة المؤكدة بالظلال الداكنة جداً، لقد تخلصت من العالم كما يبدو داخلها.

همس طاها في أذن صاحبه:

- قلت لقد تخلصت من العالم كما يبدو داخلها. أو نقول أن " فيريدا " داخل عملية ترجيع للحياة ذاتها، الحياة المرفوضة داخل زمن حاضر دائماً ممثل في الشمس والقمر.

اللوحة رقم (2)

- الآن فقط فهمتُ لماذا لم تكن ترغب صديقتك الراقصة نتاشا إلى دور الرسم؛ لأنها عملية ذهنية مرهقة.

- هكذا تعلمتُ الفن على يد أهله. فالموسيقى تعلمتُ الاستماع إليها من جيرمان التي كنتُ أسكن عندها، والأدب من زوجها أندريه الذي كان يقرأ عليّ أمهات الأدب اليوناني. والمتاحف من صديقي البرناسي البوهيمي الذي كنت معه نقف أمام اللوحة أو التمثال اليوم كله. أما معك أنت فقد تعلمتُ الصبر وحسن الاستماع وتحليل كل ما يقع على مساعي إلى عوامله الأصلية. وأنا أثق تماماً بأنك ترى تلك اللوحات لفيريديدا كاهلو كما تراها هي وتحس بها وتشعر.

- أنا فعلاً في شوق لمعرفة تلك الفنانة المكسيكية التي لم أكون حتى الآن فكرة واضحة عما تنتمي إليه من مدارس الرسم.

- عادةً بعد العرض الأول تجلس مع زوارها للنقاش، وأمامنا من الوقت لمشاهدة اللوحة الثالثة قبل بدأ النقاش. و سنكمل باقي المعرض في يوم آخر. والآن إلى اللوحة الثالثة ...

في اللوحة رقم (3) ترسم الفنانة فيريدا كاهلو نفسها داخل جسد وعل برّي أو غزال منهنك يوشك على الموت، داخل غابة تُطل على البحر والأفق، نجد امرأة بوجه حزين وجسد اخترقته وساعدت على إبرازه السهام. جسد الغزالة واقعي ومرسوم بدقة، والخلفية مرسومة بمنظور واقعي ساعد على إبرازه صفّ الأشجار المتتابعة يمينًا ويسارًا، يبدو التأنق واضحًا في رسم تفاصيل الأرضية وأوراق الشجر، حركة الغزالة كأنها على وشك الوقوع والتهوي الأخير، والدماء النازفة تدل على حداثة الجرح.

- هي لوحة أقرب ما تكون للاتجاه السريالي وعالم الأحلام واللاوعي.

### اللوحة رقم (3)

اتجه طاها وصاحبه إلى بهو لقاء الفنانة فيريدا كاهلو الملحق بصالة العرض، وكان الجمع غفيرًا والمكان مكتظًا بالفنانين الباريسيين، والباريسيين من هواة الفن. وتقدمت فيريدا كاهلو بصحبة مرافقيها، وأخذت مجلسها لكي يراها كل الناس وترى هي كل الناس. وهمس الحكيم لطاها:

- امرأة متوسطة الطول رقيقة القَدّ يلفُ النظر وجهها الذي يلتقي حاجبها على جبهتها فوق عينين بهما كل التحدي، ترتكز على عصا، وعلى رأسها ما يشبه المنديل المصري "أبو قوية" وعقد من حبات الفخار الملون على صدرها.

وعلقتُ بفرنسية صحيحة بعد عرض فيلم قصير عن حياتها:

- أشكر كل الحاضرين وأخص بالذكر السادة أندريه بریتون والسيد أندريه

جيد والفنان بابلو بيكاسو، والسوريالي المصري الفنان جورج حنين، وكل مجموعة السوراليين وكل الفنانين، والبرناسيين وكل الحاضرين، وأخص بالذكر رجلاً أثار انتباهي أثناء هذا العرض، سألت عنه ومن يكون، وأقدمه إليكم، إنه الدكتور طاها حسين.

قام بقامة مديدة مهندماً مهيباً رهيباً مبتسماً بشوشاً عارفاً شاكراً محبباً قائلاً:  
- لا تتعجبي سيدتي كيف لفاقد البصر أن يتذوق جمال فنك وفتنة روحك. إني وإن أبصرتُ ما لا يُبصره غير المبصرين. فأنا أشير إلى المصادر العامة التي يأخذ منها المكفوفون ما يطرقون من أوصاف المادة. فأولها ما يقرءون ويستظهرون من الشعر والنثر الذي أنشأه المبصرون، والثاني ما وُرت من أساطير القدماء، والثالث ما يسمعون من أحاديث الناس، والرابع ما يجدون في كتب العلم من خصائص الأشياء. فإن كان لنا إجادة في الوصف فإنما في وصف الأشياء المعنوية. كاللذة والألم والحزن والفرح، وألوان القول وفنون الكلام. وحين نعرض لوصف المبصرات فقد نحصر كل الحرص على تقليد الناس فيما قالوه.

السيدة فيريدا كاهلو لك الاختراع والإجادة لأنك تخيرتي من الحديقة أحسن الأزهار وما لي إلا التنسيق في طاقة حسنة التنسيق أقدمها إليك. إلا أني أبصر ببصيرتي التي شاهدتُ بها امرأة تصرخ، وتمتلك جسداً حياً، اختارت أن ترسمه بدلاً من أن تتجاهله، فاستمعتُ إليه وحولته إلى خطوط وألوان ومساحات.

لقد أحببتُ تلك الفنانة وهي تصرُّ إصراراً على رسم ذاتها مرة بعد مرة. أتصور كل الآخرين الذين تركوا لك ملاحظات عن التكرار ... هذا التكرار نفسه الذي جعلك تحفرين عميقاً داخل نفس المكان؛ كي يصعد لنا كل هذا الجمال.

صفق الحاضرون تحية لهذا الرجل الذي عبر عما لم يستطع الآخرون التعبير عنه، وردت السيدة فيريدا كاهلو على الدكتور طاها حسين:

- حتى وإن لم ينل هذا المعرض كامل التقدير من فناني باريس إلا أنني أعتز بأعظم تقدير من رجل فهم ببصيرته تلك الرسومات التي عبّرت بها عن ذاتي، ولم تكن لا سوربالية ولا واقعية ولا طبيعية، ولا أي مدرسة من مدارس الفن الباريسية. بل تلك الرسومات - كما قال الدكتور طاها حسين - هي ذاتي أنا، هو أنا بغير رتوش ولا مكياج، هو أنا سجين الجسد، وكما البعض سجين معتقداته الروحية والدينية والسياسية والاجتماعية ويُعبّر عنها بفن من الفنون. أنا أكتب نفسي بالفرشاة والألوان ليراني الناس على حقيقتي حرةً مناضلةً، أحب الحياة والناس بالرغم من حادث تصادم الباص كما شاهدتم في الفيلم الذي أرقدني طريحة الفراش سنة كاملة. ووضعتُ أمي تلك المرأة الكبيرة المعلقة على السقف فوق سريري الخشبي المتحرك لكي أكون ونيس ذاتي التي عبّرت بها فرشاتي. وبالرغم من أنني لم أدرس الرسم أكاديميًا إلا أن الدروس الخصوصية ساعدتني كثيرًا وخاصة بعد زواجي من أستاذي الفنان "دييجو ريفيرا" الذي ساعدني كثيرًا والذي أكنّ له كل الحب وكل الاحترام بالرغم من طباعي الصعبة وطلاقنا ثم عودته لي مرة أخرى.

إن محور أعمالي هو الواقع والقدر، إذ نبغ ذلك من تجربتي الخاصة في المعاناة، وكان الرسم هو المتنفس الوحيد لآلامي وعذاباتي وقدرتي التعس، والمعاناة جعلت تجربتي الخاصة منبعًا للخيال، ولم يكن ذلك إغناءً للواقع للوصول إلى مملكة الخيال، إذ إن لوحاتي واقعية قابلة للفهم غير مستعصية على الإدراك، وفيها الكثير من التوثيقية والتقريبية وواضحة حتى للمشاهد البسيط.

obeikandi.com

## الفصلُ العاشر

بعد درس السربون خرج طاها مع الحكيم ناشدين التريض لبعض الوقت على ضفاف نهر السين. قادتهم خطوهم إلى ميدان الأوديون المركز الرئيسي لانطلاقات الحكيم، لم يرغب طاها في الحديث عن الدرس بل حرص فقط على أن يريض عقله. وبُعد بالحكيم عن منطقة خطر الحديث بسؤاله عن صديقه سوزي دي بويه قاطنة شباك تذاكر مسرح الأوديون، وابتسم الحكيم متهمداً:  
- لقد كانت أياماً!.

ولم يعقب طاها لشعوره بأن صديقه لم يرد الخوض فيما مضى، وسأل:

- أين صديقك المصري؟

- لم ألتق به بعد.

- شوقتي لمعرفة.

- علمت أنه سافر إلى مصر.

- وهل هذا وقت الرحلات؟

- عاطف يوسف في رحلة مستمرة لم تنقطع. إن رحلته إلى المكسيك أهدت

باريس فيريدا كاهلو، وزوجها الفنان دييجو ريفيرا.

- فعلاً هي فنانة عجيبة في قوتها وصلابتها وفكرها وأنوئتها ورجولتها. لكن لا أريد

أن أبعد عن الموضوع لماذا صاحبك رحل إلى مصر؟

- سمعتُ منه أن مصر في ثورة!.

- وكيف يكون مصر في ثورة ونحن هنا؟!!

- لكل شيءٍ وقته.

مشارف ميدان السان جيرمان بدأت تلوح إلى مسامع طاها من أصوات الشعراء والمغنين والرسامين في نداءهم على المارّة. وابتسم طاها وسأل:

- كيف لهذا الخليط من الفنانين والمبدعين أن يجتمعوا في هذه الساحة دون مشاجرات أو مداخلات؟

... رد الحكيم الخبير بأحوال باريس:

- كل فنان عليه أن يثبت لمركز الشرطة أنه فنان وذلك بأعماله. وتمنحه الشرطة تصريحًا خاصًا للمكان والوقت المحدد وكذلك اليوم. وتشرف الشرطة على أن كل هؤلاء الفنانين الجائلين مصرح لهم من قبلها.

- هذا إذا سرّ عدم تداخل أصوات الباعة والرسامين والشعراء والقاصيين!  
- هذه هي المدنية يا صديقي.

اتجهت إلى مقهى الديماجو على طرف الميدان، وفضّل طاها أن يكون بداخل المقهى طلبًا للهدوء من أديم الميدان، واستقبلهم النادل بابتسامة عائلية لا تخلو من احترام وتبجيل وقادهما إلى طلبهما، وبينما يهمان بالجلوس إلى مائدتهم إذا بشابٍ وسيم يتقدم منهما محيياً وصافحه الحكيم بترحاب، ومدّ الشاب يده لطاها مصافحاً مكرراً اسمه: "أندريه , أندريه جيد" موجهاً الكلام للحكيم:

- كنت في شمال أفريقيا، وعدت منذ ثلاثة أيام، وأكيد سنراك في مومبرناس.

رد الحكيم:

- من المؤكد لأن لطاها حديثاً معك.

- يسعدني دائماً أن أستمع لصديقنا طاها فإن كنت أنت عصفور الشرق فطاها

مغرده.

لم يكن المقهى مزدحماً بعد في أول السهرة، إلا أن طاها شعر عكس هذا بهمهمات الباريسيين التي لا ترتفع في الحديث، حتى وإن ثار وغضب، فإنهم لا يعبرون عن ذلك بالصوت والجسد، بل بالقول والفهم ويقول بصوت هادئ: "أنا غضبان جداً"، أو بمخارج حروف مضغوطة: "أنا في غاية الحزن"، الباريسي لا يرفع صوته بالغضب والتعنيف.

وضع النادل أمام الحكيم كأساً من البيزنو وأمام طاها كأساً من الكونياك النابليوني المعتق، وانصرف.

قال الحكيم:

- كان لي حديث مع أندريه عن معاني القرآن ولم نصل في ذلك إلى نتيجة مُرضية.

- هذا خلاف في معاني الترجمة من العربية إلى الفرنسية.

- لو عدت وناقشت الموضوع بالعربية، فهل نخلص إلى أن القرآن معجزٌ بلاغياً أم ستحول معاني الكلمات دون ذلك؟

- إسلامياً نجد رأيين في هذا الأمر: الرأي الأول أنه ليس بمعجز وأن العرب أتوا بما هو أبلغ وأكثر تعقيداً من القرآن.

- ويفسرون التحدي الوارد في سورة الإسراء آية 88 بأن المعجز فيه هو صرفهم عن تأليف مثله برغم سهولته.

- هذا صحيح وسببي هذا بـ "الصّرفة"، وقد تبني هذا الرأي المعتزلة، وعلى رأسهم الجاحظ. وقد كان الجاحظ لسان حال المعتزلة لفترة طويلة ... الرأي الثاني هو أن القرآن معجز بلاغيًا، وأنه سقف البلاغة العربية، ولم ولن يصل إليه شاعرٌ أو ناثر، وتبني هذا الرأي أهل السنة والجماعة وهم يقَدِّمون النقل على العقل عمومًا بخلاف المعتزلة.

- وهل هذا الرأي قائم على حجج؟  
- لم يكن تبنيهم لهذا الرأي قائمًا على حجج علمية حتى ظهر عبد القاهر الجرجاني؛ أحد أعظم وأهم علماء اللغة في التاريخ العربي بأسره، وصاحب نظرية "النّظْم" الوحيدة في اللغة العربية.

- وصاحب العبارة المحورية القائلة بالألفاظ خدم للمعاني.  
- وبرغم رأينا الشخصي في أنه فصل كتابه العظيم دلائل الإعجاز تفصيلًا ليلائم رأيه في إعجاز القرآن، إلا أن هذا لا ينتقص من قدر نظريته وأهميتها في تحليل النصوص العربية، و ما أرمي إليه هنا هو تحليل الرأيين والوقوف على إجابة السؤال الرئيسي، ألا وهو هل القرآن معجز بلاغيًا؟  
- لكن لا بد قبلها أن نفهم ما هي البلاغة لنكون على خط فهم واضح.

ضحك طاها عندما تذكر شيوخ الأزهر المتعصبين المتزمتين وهم يلقنون المريدين البلاغة وعلومها، وضحك معه الحكيم وتجرعًا كؤوس الهناء في صحة الأزهر وشيوخه العجاف.

وقال طاها:

- البلاغة مشتقة من كلمة بلغ، أي وصل، وهي تعني إيصال المعنى كاملاً، وتنقسم إلى ثلاثة علوم هي: أولاً: علم البيان وهو يهتم بالصور الخيالية والعاطفية،

وسمي بعلم البيان لأنه يساعد على تبين المعنى المراد باستخدام التشبيه والمجاز والاستعارة. ثانيًا: علم المعاني وهو يهتم بالمعاني والأفكار، ويوفق ما بين التركيب اللغوي المختار، والمعنى المراد إيصاله للقارئ أو المستمع، وهو الذي يدرس الإيجاز والإطناب والوصل والفصل. ثالثًا:

علم البديع ويختص بالصياغة وحسن التنسيق واختيار اللفظ.  
- نحن لا نستطيع أن نختلف مع مشايخنا.  
- الخلاف في أنهم لا يقبلون السؤال لأنهم لا يعرفون الجواب.  
- وأنت يا طاهها دائم السؤال!  
- لا سؤال في الدين. عليكم به كما هو لا نقد ولا تفعيل للعقل.  
- لكن المشتغلين بالأدب كابن قتيبة كانوا يقدمون اللفظ وحسن الصياغة على المعنى.

- هذا من جهة، أما ما ذهب إليه الجرجاني فهو أن في هذا قتلاً للفكر وانحيازاً لمن يقدمون المعنى على اللفظ. وقد رأى أن البلاغة ليست في تخير الألفاظ والموسيقى والمجاز، وإنما هي حسن النظم والتأليف.  
- وما نقصده بالنظم هو ربط الألفاظ في سياق يكون وليد الفكر بحيث ينشأ عن ذلك معنى مقصود بذاته دون سواه.  
- ولهذا كانت المعاني لا الألفاظ هي المقصودة في إحداث النظم والتأليف. فلا نظم في الكلم ولا تأليف حتى يعلق بعضها ببعض، ويبنى بعضها على بعض، وبهذا يكون اللفظ تابعاً للمعنى، بحسب ما يُقصد فيه ويراد له.

أي أن رأي الجرجاني أن بلاغتك في اتفاق القول مع ما ترمي إليه بالضبط. وأن استبدال أي كلمة في هذه الحالة يخلّ بالنظم، أي يخلّ بالبلاغة.

- وهذا عين ما أرمي إليه.

- لكنك اختلفت مع الجرجاني؟

- لأن مشكلة الجرجاني أنه أهمل تغيُّر دلالات الألفاظ، وتولد معانٍ جديدة، مما يسقط رأيه في الإعجاز. فلو كانت البلاغة هي توافق اللفظ مع المعنى، وكانت الألفاظ تتطور والمعاني والصور والتشبيهات تولد وتموت، فكيف نحكم على نص بأنه بليغ بشكل مطلق؟!

فما بالك بأن نحكم عليه بأنه معجز في بلاغته! كما يُعاب على أصحاب الإعجاز البلاغي حسب مفهوم الجرجاني إهمالهم لمبهم النص القرآني، فبعض معاني القرآن مهمة وغير مفهومة وحولها خلاف.

- كالحروف المقطعة في فواتح السور، وبعض الغامض من الألفاظ كلفظة "أبًا" التي أجم عمربن الخطاب عن تفسيرها لأنه لا يعلم معناها، أو "العاديات صَبْحًا" التي اختلف في المقصود بها.

- فكيف نحكم بحسب نظرية النظم على بلاغة نصوص لا نعرف معناها بشكل مؤكد؟ وبالنسبة لي أرى أن رأي المعتزلة أكثر منطقية. فعندما خبروا حكمة الفرس وعلوم اليونان، ودرسوا الشعر والنثر في ضوء المستجدات المعرفية، أعلنوا بكل أمانة وشجاعة أنهم يجدون ما هو أبلغ من القرآن، لذا لجئوا لفكرة الصرفة. ولكن وبسبب عادة أهل السنة في محاربة ما يخالفهم من الأفكار لم تصلنا معظم كتب المعتزلة، فلم نقرأ عن فكرتهم إلا من أعدائهم.

تمطى الحكيم وطلب من النادل إعادة المشروب، وبدأ المقهى يؤمها شعبها وتدب الحياة المتدفقة أبدًا وقال بحكمة العليم:

- إن البلاغة تحمل في طياتها وجدان الشعب الذي تتحدث بلغته (مشيرًا

بكلتا يديه إلى الشعب الذي بدأ يملأ المقهى). فكثير من النصوص تفقد بلاغتها حالما تترجم، ومنها القرآن نفسه، فلا يبقى أثر للبلاغة، وهذا ما حدث في حديثي مع أندريه حول بلاغة القرآن الذي لم يجد فيه أية بلاغة.

- و للتأكد من هذا جرّب أن تُحوّل سورة من القرآن للهجتك العامية، ستجد أمامك نصًّا متهافتًا لا يحمل أدبًا ولا علمًا قياسًا ببلاغة أهل لهجتك والمعاني التي أتى بها الفلاسفة والحكماء على مر العصور.

- وما معنى التحدي الوارد في القرآن؟.

- فمن أتى بمثل ما أتى به امرؤ القيس؟ لا أحد.

- قال الحكيم معقبًا: لأن الحالة الإبداعية حالة متفردة تمامًا. ونحن هنا نقيم تحديًا جديدًا بأن يأتي أحد بقصيدة مثل الحمى للمتنبى، أو اليتيمة لدوقلة، أو الطلاسّم لأبي ماضي. إن الإتيان بمثل عمل إبداعي يعني تكرار الشفرة الوراثية والظروف المحيطة بالمبدع وهو المستحيل بعينه.

- وما ذا تقول عمّا قال الوليد بن المغيرة الكافر الملحد عند سماعه آية قرآنية: "والله إن له لحلاوة. وإن عليه لطلاوة. وإن أعلاه لمثمر. وإن أسفله لمغدق. وإنه ليعلّو ولا يعلى عليه. وإنه ليحطم ما تحته. وما يقول هذا بشر".

ابتسم طاها وقال:

- هذه مقولة لا يملّ الإسلاميون من تكرارها فهي دليل على الإفلاس. فعندما لا يجدون ما يقولونه يسألونك باستنكار: أنت أعلم بالبلاغة من أهلها الذين قالوا...؟ ويرددون على مسامعك مقولة الوليد هذه، والتي لا يدخل عقل وليد أنه قالها، فلو كان الوليد قال هذا فلم لم يسلم؟ وهل هناك استكبار في مسألة مصيرية مثل الدين؟ ومن الذي نقل لنا هذه المقولة؟ أليس هم علماء المسلمين الذين ذكروها؟ وهل كل من استمع لهذه المقولة مكابر معاند متأمر على الحق؟ فلم لم

يُسلم أحدهم نتيجة مقولته؟

- لم يسعدني الحظ أن أدرس القرآن في الأزهر مثلك.

- هذا من حسن حظك.

في قراءتي للقرآن وجدتُ أن الخمس آيات الأولى من سورة العلق نلاحظ أنها بدأت بداية جميلة "اقرأ باسم ربك الذي خلق"، فيها رحابة ورشاقة.

- ثم اتجه لتحديد لا أعرف له مبررًا سوى اللهات وراء الموسيقى الخارجية حين قال "خلق الإنسان من علق".

- فنجده يضحي بالرحابة التي قدمتها كلمة خلق غير المعرفة، بعد ذلك يكرر نفس السيناريو مع علم الإنسان ما لم يعلم، ومن يعلمنا ما نعلم؟  
- لا أعلم؟

اعتدل طاها في مجلسه وكأنه سينشد وقال في نفس واحد:

- معظم السور التي تسمى بالمفصل تشبه سجع الكهان، و لو أتى بمثلها الآن شاعر مبتدئ لعوقب بالحبس، مثل: الناس، والفلق، ولا أدري أية بلاغة في المعوذتين؟ كذلك الهَمْزَة والفيل وقريش و ..... إلخ، وخذ مثلاً آخر: "ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض" أية بلاغة تظنها هنا؟ ومعظم الأحكام جاءت بدون اهتمام أو تركيز على الصياغة الجيدة.

- قيل في التعجيز القرآني أن يُعجز البشر جميعًا عن الإتيان بمثله.

- لكن كيف نحدد " مثله " هذه؟ فالمؤمنون لا يرضيهم أي نوع من المقارنة.

- هذا صحيح، فهم يصادرون على الإمكانية مسبقًا قبل حتى قراءتها.

- ولأن البلاغة تخضع في كثير من الأحيان للذوق الشخصي.

- فالأمر يصبح مستحيلًا.

- وهم يجمعون عن تعريف " مثله " هذه بوضوح ومعايير مفهومة.

قال الحكيم:

- النص المعجز الذي لا يُمكن أن يحدث لبسًا ويختلط بكلام غيره، فهو لا يشبه غيره لا من قريب ولا من بعيد. وكيف هذا وهو معجز؟ فلو اختلط بغيره لكان غيره معجزًا أيضًا، فالملتقي البليغ الذي لا يميز بينه و بين غيره هو دليل على عدم إعجازه.

وأعاد طاها على الحكيم:

- النص المعجز يجب أن يكون معجزًا دائمًا. أي أن يُعبر عن الجمل بذات البلاغة.

أما الحكيم الفنان فقال:

- النص المعجز لا يخضع للتطور الذي يحدث لأي مبدع موهوب من ضعف واهتمام باستعراض الصنعة على حساب المعنى، مرورًا بالنضج الفني وانتهاءً بضعف يميزه عن الأول خبرة كبيرة. ولو رتبنا القرآن كيفما نزل سنلاحظ التطور في طول الجملة واستعمال الموسيقى الداخلية والخارجية ووحدة النص ... إلخ.

قال طاها:

- النص المعجز لا تضطره القافية للفظ لا يفيد المعنى كما بينا في حالة سورة العلق. وهناك مثال آخر وهو مثلاً قوله "سيصلى نارًا ذات لب" ما فائدة كلمة لب هنا؟ وهل هناك نار ليست ذات لب؟! ثم لماذا حافظ في السورة على الباء أربع مرات وكسرها في الخامسة؟ هل هناك من سبب بلاغي؟

obeikandi.com

## الفصل الحادي عشر

فيريدا كاهلو اتصلت تليفونيًّا بطاها بفندق "أوريانتال" إذ كانت في زيارة لمعهد العالم العربي للتعرف على الفنون والثقافة العربية، وبالتحديد عن مصر التي جذبها إليها سرّ طاها في حبه للفنون وتذوقه للمبصرات عند زيارته لمعرضها بصالة القصر الكبير. تلك المرأة القادمة من النصف الآخر للكرة الأرضية، والتي طارت فيها رأس عشيقها ليون تروتسكي الذي هرب من روسيا استالين إلى بيت فيريدا ودياجو بالمكسيك، ونشأ ما نشأ من علاقة بين تروتسكي وبين فيريدا، فيريدا الباحثة دائئًا عن الأعظم والأدهش والأعجز

والغريب والموحش والمفزع، والمتفرد والقهار والمغتصب والقوي والفلواذي. ولم ينج تروتسكي من يد استالين لا عشق فيريدا له ولا مأوى دياجو في بيتهم الأزرق.

وجدت كل أوصافها مجتمعة في رجل واحد من النصف الآخر من الكرة الأرضية، وإن شاركها أنهما من جنوب هذا الكوكب العجيب. لم تعد، ولم تسأل نفسها لماذا هي في المنطقة الخامسة؟! بل جذب كوكب طاها كوكبها إليه دون علم منها، فهكذا الكواكب تجتمع وإن شاءت تلتقي. رد عليها طاها مُرَجَّبًا وليس مندهشًا بوقع كلمات وكأنه يعرف تمامًا أنها ستتصل به منذ أن التقيا في المعرض وتبادلا صفحات التعارف. دعاها إلى مكانه وصعدت بالمصعد إلى الدور السادس، ودعاها طاها إلى الدخول وكان عطرها يسبقها وهبو جسدها يلقه. وقف لها محيئًا ووضعته يديها على منكبيه وطبعت قبلة على الخد اليمين وقبلة

على الخد اليسار، وجلسا وكأن حديثهما لم ينقطع بعد منذ لقاء المعرض. وقالت:

- لا تندهش أن أعمالها كلها واقعية. على الأقل بالنسبة لي.

- أعرف ذلك ولم يدهشني إلا تلك المعاناة في حياتك. وهي واضحة في لوحاتك

كل الموضوع.

- للأسف أن الفرنسيين لم يفهمون ما أرمي إليه.

- للفرنسيين مدارسهم ولوائجهم وحدودهم التي تجعل منهم فرنسيين.

- لأنهم وضعوني في قلب المدرسة السريالية.

- كان هذا واضحًا من كلمة السيد الفنان سالفادور دالي.

- وحتى من أندريه بريتون وأندريه جيد وغيرهم.

- كما ذكرت لك فإن فرنسا لها مذاهبيها حتى في الأدب والسياسة.

- الذي أعجبني فيك أني لمست فيك الصراحة والثقة فيما تقول.

سألها طاهها إن كانت تريد شراءًا. شكرته برقتها التي لا تقاوم، وطلبت قهوة

إكسبريسو وصبت فيها أنوثتها. ما دعا طاهها لأن يعقب عليها بقوله:

- لم أتوقع أن تطلي قهوة في تلك الساعة بل أن تطلي "تكيلا".

فعلًا إنها المشروب المكسيكي، وخاصة مع خلط عصير الصبار الكحولي هذا

بعصير البرتقال.

- ما يسمى سان رايز. أو الشمس المشرقة، قالها طاهها بابتسامة ملأت كل وجهه،

وفهمتها فيريدا التي زحفت يدها لتعانق يده.

طلب طاهها من خادم الفندق اثنين من القهوة الباريسية السوداء.

لا دخول الخادم ولا وضع فنجان القهوة بينهما منع يد فيريدا من مواصلة

الزحف المدروس من امرأة تعودت الزحف، وعانقت يد طاها يدها، ورشفا الاثنان رشفة السعادة والهناء من القهوة الباريسية السوداء. وغربت الشمس التي لم تشرق بعد لا بالتكيلا ولا بالبرتقال، ولا بالقهوة الأكسبرسو الباريسية السوداء، ولا حتى بخلط المغرب بالمشرق لأن عناقهما كان مشبعًا بكل أولئك وهؤلاء!.

سألته فيريدا عن صديقه الحكيم وهل هو مصري مثله؟ قال طاها:

- الحكيم ابن مصر.

- وأنت ابن الشمس.

- وأنتِ؟

ابتسمت فيريدا ضاغطة بيدها على يده:

- أنا هو أنا. وإن كنت لا أعرف من أنا إلا أني دائماً البحث عنها بين الرجال وبين النساء، بين السعادات وبين الأحزان، بين الألوان وبين الوجوه.  
- ليس غريباً أن تصنعي من أحزانك أعمالاً لا يصل إليها صانع الكون.

سرحت فيريدا بعيداً ويدها ما زالت تعانق يد طاها قائلة:

- أحب أعمالي وأسعد بها، أما خالق الكون هل محتمل أن يصنع فنًا يصنع له الغيظ والغضب والاشمئزاز والحسرة ثم يستمر في خلقه وهو يستطيع أن يخلقه أو يصنعه أو يصوغه بمستويات أخرى، لا تصنع له أي شيء من المشاعر الأليمة بل وتصنع له مشاعر سعيدة مريحة مفرحة؟

تشدق طاها وفتح فاه وتبسم ثم ردد:

- لا بد أن نؤمن ونعلن أن الإله يسعد ويفرح ويكبر بفعلنا لأخطائنا وخطايانا

المزعومة، لأننا بذلك نحقق حكمته وتعبده وكان ممكناً أن لا يفعلها.

- لقد حشد الإله كل قواه بكل أساليب الإغواء، حتى الأبالسة والشياطين حشدهم ووظفهم ووهبهم الخلود، وكل أسباب القوة والانتصار والتفوق لكي نكون محاصرين ومحكومين بأخطائنا وخطايانا بلا نجاة أو تخفيف أو اعتذار ..

عاد طاها بخياله إلى صحن الأزهر الشريف وهو ينقد شيخه الذي طرده من جنة الأزهر عندما قال واستمر وأصر وقاوم حتى قال:

- أراد الإله أن يخلق هؤلاء البشر لغرض عظيم ووحيد هو أن يطيعوه ويعبدوه ويفرحوا ويتحولوا إلى أعظم الأجماد والمسرات والانتصارات له، وإلى أجمل معارض العرض لجماله وعبقريته وتصوراته الفنية الشاعرية، وأيضاً لكي يسعدوا، أي هؤلاء البشر المحظوظون بهذا الإله، والصانعون له الحظوظ، بكونهم رعاياه وعبيده وحده وأن يفرحوا ويتطهروا أو يخلقوا فوق كل سماوات المجد والحب والتقوى والكرامة، لكي يجلسوا معه فوق عرشه، ليكونوا جلساءه وأخلاءه في وحدته الرهيبة الكئيبة.

- هذا ما علمونا إياه من قصص كقصّة الخلق هذه: أراد الإله أن يكون له صديق وحيب له متفوق. يصنع له المسرة والمجد والفخر. بعد تفكير وتدبير محملاً في النجوم خلق الإنسان ليكون له هذا الصديق الحبيب. ليكون عبده وعابده ليكون كل مجده وحبه وعبقريته فوق الأرض وفي السماء.

- وقد ذهب الإله بكل همة وقوة يحشد له كل القوى الشريرة على إنسانه هذا لإفساده وإغوائه، ويعلم الإله أن الإنسان لن يكون شيئاً ما أراد له.

- على رأيك يا فيريدا إن الإله صنع فينا الضعف والعجز والشوق والجوع إلى ما يسميه هو وأنبيائه الذنوب والمعاصي، ويريد ويدبر ويخطط ويشتهي أن نفعل

ذلك بل ويفرح ويسعد بأن نفعه لأن فعلنا له يحقق حكمته وتدييره الذكيين الرحيمين. بل يخلد الأبالسة والقوى الخفية ليكون ضلالنا وهلاكنا محكومين وخالدين.

- حدثوني عنك في معهد العالم العربي أنك غيث الشرق.
- أي شرق يا صديقتي المكسيكية؟ الشرق ناعس قد سكر باله ملتحقاً بالدين.
- ولماذا لا تسكر مثله؟
- أفضل أن أسكر بالتكيلا وليس بإله أو دين! أشك حتى في وجودهما.
- أنت الذي تعلمت في الأزهر؟!.
- هذه هي الطامة الكبرى. أتي تعلمت من أناس جهلاء رفضتهم رفضاً مبيناً وبدأت أفكر حرّاً طليقاً.

- ولماذا لم يقبلوا تفكيرك إن كان صحيحاً؟
- المؤمنون لا يقبلون السؤال. وأنا دائم السؤال لأخلص إلى معرفة. وإن ألححت في السؤال أعد كافراً، وهذا ما وصفوني به، فعن أي غيث تتحدثين؟.
- حدثني صديقكم عاطف يوسف عن ثورة في مصر. فهل تعرف مداها؟!.
- حتى أنت تعرفينه؟!
- أعرفه منذ جاء إلى المكسيك لزيارتنا.
- حدثني الحكيم عنه. لكنني لا أعرفه شخصياً.
- أرجو أن تلتقي به.
- أكد لي الحكيم ذلك.
- هل سيكون لك رأي في تلك الثورة؟
- لا ثورة دون فكر فلسفي تقوم عليه.

- هذا ما قاله تروتسكي وكان سبب نفيه.

- تروتسكي لم يُنَفَّ بل هربَ من حكم استالين. أما فلسفة الثورة البلشفية فقد أرسى قواعدها كارل ماركس وصديقه أنجلز وشرحها لينين وطبقها ماو تسي تونج. وكذلك الثورة الفرنسية التي أخذت الكثير من كميون دي باريس بعد أن درسها كارل ماركس، ومن مونتسيكيو وفولتير أخذ كل من دانتون وروبسبير فلسفتهم التي عمل بها ثوار باريس، ولنا كذلك في الثورة الصينية والتي أخذت من فلسفة هوشي مينه والجنرال جياب ولينين.

- إذًا أين أنت من الثورة المصرية؟!.

- هناك فرق بين الثورة والتقدم، وبين التقدم والعلم، وبين العلم والمعرفة، وهذا ما ترنو إليه بلادنا بما فيها المكسيك ولكن بدرجة أخف من مصر.

- أريد زيارة مصر!

- أهلاً وسهلاً، هل ستكون زيارة عمل أم سياحة.

- لا هذه ولا تلك، بل زيارة حب!.

- حب من؟

- حب مصر!

- عندما تحين الفرصة سأدعوك لزيارتها.

- أشكرك.

فيريدا

## الفصل الثاني عشر

بين العشاق أنا مشتاق ... أبكي وأنوح بالأشواق ... صدقني

عهدك t يا نور العين ... بالمفتوح تهوي اتنين ... جاوبني

واحد بس يهوي القلب ... قلبي ينوح له بالحب . . . طاوعني

أنا أهواك مين قساك ... أنا مجروح غاييتي رضاك ... واصلني

ما أحلاك وقت رضاك ... لما تلوح ما أبهاك ... كلمني

استلمت سنية رسالة طaha التي أرسلها لها صديقه في الرّبع. والتي تعرف عليها بدكان سعد الخردواتي بجوار المنزل، حيث كان يسلي نفسه مع صاحب الدكان عندما لا يوجد زبائن. فكان طaha يقرأ له بعض السور القرآنية أو يحكي له ما كان بالأزهر من نوادر المشايخ حتى حركاتهم كان خبيرًا بها، ويضحك أقرانه بتقليدهم.

وفي يوم جاءت سنية بنت حي السيدة زينب لتتسوق من ميدان الأزهر، ثم تحلي بقها من دكان الخردوات الذي في متناول اليد القصيرة. وقالت لطaha:

- أنت صوتك حلو يا شيخ طaha.

اعتدل طaha وعدل صدر الحبة وعوج الطاقية الأزهرية وقال لها:

- لأنك سميعة.

- ألم تغنِ يا شيخ طaha؟

- أحب الغناء لكن هذا يمنع من وجودي في الأزهر.

- وهل الأزهر لا يحب الغناء؟

- يجب الغناء ولا يجب الخلاعة.

- ولماذا تغني خليعًا؟

- أنا لا أحسن الغناء على كل حال أما الكتابة فأهلاً بها وسهلاً. وابتسم لها

محاولاً الاستزادة من حديثها، ثم قال:

- وأنتِ هل تحبين الغناء؟

- أحب الغناء؟! ... نعم.

- من تحبين من المغنّين؟

- أحب الست منيرة المهديّة.

- وأنا كذلك.

وجلست البنت بجوار طاها ما أحججه كثيرًا فقال لها:

- أما موسيقى كامل الخلي فلا يعلى عليها.

- أحب ألعانه فهو من الذين أفضلهم.

- لي سؤال يا سيّدة لماذا لم تكلمي تعليمك؟!

- كان منى عيني أن أواصل تعليمي. لكن اليد قصيرة. وأمّي وزوج أمي لم

يمهلاني حتى لمجرد التفكير في ذلك.

- إذًا عليك بالقراءة المستديمة الكاملة فهي خير معين للمرأة في حياتها وحيّة

بلدها ومستقبلها ومستقبل بلدها.

- عارفة يا شيخ طاها. ولاد الحلال كثير يبساعدوني في السيّدة.

- وأنا كذلك سأساعدك. ووقعت تلك الكلمة في أذن سيّدة موقعًا حسنًا،

واستأذنته وانصرفت على أمل لقائه مرة أخرى.

سعد طاها بلقاءها، وبدأ ينشد ويدندن ويكتب من الأشعار ما يوحي به قلبه الغصّ الذي عرف الحب قبل الأوان، وأنشد تلك القصيدة التي مطلعها: " بين العشاق أنا مشتاق ... أبكي وأنوح بالأشواق .. صدقني".

لم يجد طاها حرجًا من دينه ولا أخلاقه، ولا أزهره ولا تراثه في كتابة أغنية قدمها للموسيقار الكبير كامل الخلعي (1878 - 1948) ليقوم بتلحين كلماتها. واشترط طاها أن تغنيها أشهر مطربات زمانه منيرة المهديّة نزولاً على رغبة حبيبته السيدة.

وظهرت الأغنية في أسطوانة سجلتها شركة فونوغراف مكتوبًا عليها أنها من كلمات الشيخ "طاها حسين"، تلك الأغنية راقية المشاعر التي لاقت قبول الجماهير المصرية وخاصة البنت سيده وهذه هي سدرة المنتهى في عشق بنت الحنة.

تمكن اللحن والأغنية بصوت منيرة المهديّة من رأس طاها محاولاً أن يتخلص منه. لم يتمكن فنهض من فراشه النظيف ذاهبًا إلى دورة المياه مرة، ومرة إلى مكتبه، وعودة إلى سريره الوثير الدافئ والذي أدهشه أن لا صوت لمطر على أردواز سقف الغرفة. وتمنى أن يكون نهارًا مشمسًا. بدأت الحياة تدب رويدًا رويدًا برقزقة العصافير مرة ومرات بغدير الحمام. وكان صباحًا ناعمًا هادئًا، وتذكر صباح صباه من صياح بائعي اللبن، وعربات جامعي الزباله والهاثاف للصلاة ودقة عصا عم علي في الرّبع، ورزعه على الباب بصوته الأجدش: " ياللا يا بهائم قوموا للصلاة". وكأنها الزلازل أو الإعصار هب على الربع. وكان الصبي يتمهل ضاحكًا على عم علي، أبهذه الطريقة الهوجاء نستقبل يومًا جديدًا!؟.

قام طاها متجهًا إلى الحمام طلبًا لأخذ حمام بارد ليبعد عن ذهنه السيدة

والربع وعم علي وعم سعد الخردواتي. وتساقط الماء الدافئ على جسده، وضحك  
ضحكة عالية متذكراً أنه يستحم دون كوز ولا كرسي حمام ولا وابور غاز، ولا  
حتى ليفة بل قطعة من الإسفنج وصابونة ذات رائحة زكية ليست بحجم صابونة  
شاهين أو أبو دبة. بل صابونة رشيقة تحيطها الأصابع وتمسح الجسم وتشطفه  
بذلك النبع الدافئ المنعش. وجفف جسده بمنشفة ليست مهلهلة ولم يستخدمها  
أحدٌ غيره سميكة ناعمة دافئة. عاد إلى حجرته سعيداً محبوراً حول جسده معطفٌ  
من نفس مادة المنشفة مدندناً بصوت الست منيرة:

- "ما أحلاك وقت رضاك .. لما تلوح ما أبهاك .. كلمني "

وجلس على حافة مكتبه محاولاً إعادة كتابة الأغنية ليخلص إلى يومه المزدهم  
باللقاءات والمحاضرات والأصدقاء والصدقات، ودق خادم الفندق الذي تعود  
طاها سماع خطاه ونقره على باب الغرفة وكأنه منقار عصفور تائه. أذن له بالدخول  
مُصَبِّحًا بشوشًا سعيدًا أضفى على طاها سعادةً وهناءً وقدم صينية الإفطار  
الكوئنتنتال مع كوب من الحليب، وكرواساه مشقوقة شطرين عليهما مسحة من  
الزبد ومسحة من المرّي. وجلس طاها إلى المائدة يأكل بالصحة والعافية، وعادت  
ابتسامته التي تدل على أمر ذي بال ... تذكر طبلية الإفطار في الربع حيث كان  
يجلس الطاعمون من حولها على الأرض، وقد وُضع في وسطها طبق عظيم مليء  
بالفول غارقاً في السمن والزيت، وبدلاً من الحليب يوجد إناءً مليءً بألوان المخلل  
الغارق في الماء المالح يعب منه هؤلاء الشباب قبل أن يأخذوا في طعامهم، وقد  
ألقِيَتْ على المائدة جماعات من الأرغفة منها ما يُشترى ومنها ما يؤخذ جراءةً من  
الأزهر. وكنت أجلسُ بينهم وقد أطرق إلى الأرض، وأحني ظهري كأنه قوس،  
ويدي تذهب في أناة ووجل وخوف واستحياء بين هذا الرغيف الذي قد ألقى

أمامي وهذا الطبق البعيد عني. لا أكاد الأتم في نفسي بين هذا التهالك على الفول والمخلل وهذا التهالك على العلم والدرس. وبهتت الابتسامة ... وعاد إلى ما كان فيه. ورفع الخادم الصينية وقدم لهاها فنجانًا من القهوة التي تعودها فرنسية سوداء، وعلى حافة الفنجان قطعة السكر المغلفة وملعقة رقيقة أحب طاها رنينها وهي تُذيب قطعة السكر التي فك غلافها وصنع منه سهماً. وما هي إلا لحظات حتى دق الباب دقاتٍ تعود عليها طاها وسعد بها، وإذا بالحكيم يملأ الغرفة حركة وهرجًا ومرجًا وكأنه قادم للتوّ من الربع. قال طاها :

- ما بك متهللاً بشوشًا؟!

- ألسْتُ في باريس؟!

- أعلم ذلك!.

- إذًا فالسعادة تنتظرنا.

- هل أطلب لك قهوة؟

- أحب قهوتي في المقهى. ويا حبذا أن نذهب لتناولها في مقهى " كوليت "

لنصيِّح عليها قبل الذهاب إلى محاضرتك اليوم، وقد سألتني عنك.

- أشكرك، أنتهيت من القهوة للتوّ، وعلينا أن نذهب.

نظر الحكيم على المكتب، وقرأ كلمات الأغنية وغرق في الضحك.

- ما يُضحكك يا صاح؟!

- ألسْتُ عاشقًا للبنّت لسيدة؟

- هل قرأت القصاصة؟

- نعم.

- كانت أيام.

- لماذا تذكرتها الآن؟

- طافت بذاكرتي هذا الصباح قبل أن أستيقظ، وتمكنت مني حتى كتبتها لأبعدها عن خيالي، لكن للأسف ما زالت رغم الهناء الذي نحن فيه.

- من يترك الباريسيات وينظر إلى القاهريات؟!

- لأنهن قاهريات.

- أنت تعرف أنني كنت أحبها أيضاً.

- عرفت ذلك عندما كتبت تلك الأغنية.

- من يصدق أنك المغمم المجلب تكتب الخلاعات لكامل الخلعي؟

- ألم يلحن لك مسرحية الضيف الثقيل؟

- بلى، تمامًا.

- ليس العيب في كامل الخلعي ولا في منيرة المهديّة، إنما العيب في المستمعين

الذين يريدون التهليل والتصفيق. أما الفن الراقي فله أصوله وقواعده.

- سأشتري اليوم دليل المسارح لنختار مسرحية تروق لنا فنستمتع بها. والآن

هيا إلى "كوليت" ثم العلم.

يقع مقهى "كوليت" تحت بناية الفندق الذي يسكن فيه طاها، وعلى زاوية

شارع كاردينال لي موان وشارع المدارس الذي به مدخل جامعة السربون

الرئيسي. أحب طاها ذلك المقهى لأنه لا يكلفه مشقة السؤال عندما كان يريد

ترك غرفته إلى الشارع، أو كلما شعر بالوحدة. وهذا نادرٌ في باريس إلا لو طلب

هو ذلك. إذ يعرج يمين باب الفندق ثم بعد ثلاث خطوات وإذا به بين أحضان

كوليت عظيمة الجسد وصاحبة المقهى ومعلمتها. أحبها طاها من ظرفها ودسامتها

وحلو كلامها، تستقبل طاها دائماً بطبع قبلتين على وجنتيه وهو سعيد مغبوط

هانئ بذلك. وكانت تسمح له بلامستها لتسند له لصعود تلك الدرجات الثلاث إلى المقهى، وشعر طاهها بمدى اكتناز شحمها ولحمها الذي لم يكن يلائم صوتها المرسع الذي شبهه بمزمار فرقة كامل الخلعي. وتجلسه ليس ببعيد عنها لتنفص عنه وحشته كما وجدته ساهماً مفكراً سارحاً، وقال طاهها في نفسه:

- " سبحان الله " ما لي وهذا الشعب الفرنسي العطوف الحنون حتى من صاحبة مقهى لا تكسب مني شيئاً يُذكر إلا أنها كريمة محبة للخير والناس.

وسرح طاهها إلى حيث أخيه عندما كان يدعوه: "ياللا يا مولانا" فينفض الصبي متثاقلاً فيمضي مع أخيه متعثراً حتى يبلغ الأزهر ويجلسه في حلقة الدرس ويظل الصبي في مكانه حتى يعود أخوه، فيجذبه في غير رفق حتى يلقيه في مكان من الغرفة على ذلك البساط القديم البالي العتيق. وهنا يتيمأ الصبي لاستقبال حظه من العذاب، وكانت الوحدة المتصلة مصدر العذاب. وكانت كوليت تقدم له من آن لآخر كوباً من الماء المثلج، أو تأتي إليه بوضع يدها على كتفه مرتبة إن كان يريد شيئاً آخر أو تقدم له زبوناً من زبائنها أو زبونة من زبوناتها. وكانت تقدمه لهم باسم ابن الشمس الذي كانت تفضله عن سائر الأسماء التي تمنحها لزبائنها لجهاد بلاد المصريين وزياراتها المتعددة لها.

لامس طاهها ذراع الحكيم وسارا تاركين مقهى كوليت إلى مبنى السربون. وعرج كعادته على المكتبة ليحيي صديقه جان بيير بوتيه مديرها ويسأله عن الجديد في عالم الفكر الفرنسي. تركهما الحكيم على أمل اللقاء على الغداء. وبادر جان بيير طاهها قائلاً:

- أعرف أن ما تكتبه بالفرنسية غير ما تكتبه بالعربية.  
- هذا صحيح، لأن العقل العربي ما زال يرزح تحت وطأة الفكر الديني،

وعندما أكتب بالفرنسية فلأني أفكر بالفرنسية، وكتاباتي بالفرنسية هي طرق جديد لموضوعات جديدة.

- وهل الكتابات الآن في مصر ظاهرة دينية؟

- ظاهرة الكتابات الدينية التي شاعت الآن في مصر هي عودة صريحة إلى الفكر التقليدي.

في حين أنه يجب فصل الأدب عن الدين لكي يطير حرًا طليقًا غير مقيد بسلاسل الدين.

- أعرف منهجك في الشك الذي أخذته عن ديكارت، وأريد أن أقدم لك مجموعة من الكتب الديكارتية التي لم يطلع عليها أحد.

- فسر لي!.

- أمتلك طائفة من الكتب المخطوطة التي كتبت في القرن السابع عشر بعد أن مات ديكارت بسنين قليلة، والتي كانت محفوظة في مكتبة الملك الخاصة، حتى إذا كانت الثورة الفرنسية وتبدد ما في القصر ضاعت هذه الكتب، ولم يستطع أن يظفر بها من أنشئوا المكتبة الأهلية في باريس بعد الثورة. وأخذت أسرة من الأسر الشريفة تتوارث هذه الكتب، ومن تلك الأسر التي تناقلت تلك المخطوطات أسرتي "دى بوتيه". حتى وصلت إلى مقر الأسرة في بوجونيا. والآن أدعوك إلى منزل الأسرة هناك لأطلعك على مخطوطات ديكارت التي لم تعرفها المكتبة الوطنية حتى الآن.

- هذه ثروة فكرية وتاريخية قلّ من يمتلكها في هذا العالم.

- هي لك من الآن لدراستها لأنك أهل لها.

تهلل وجه طاها بشرًا وفرحًا لذلك الاكتشاف حتى غاب عن محاضرتة وعن صديقه. إلى أن حضر وكان موعد الغداء.

obeikandi.com

obeikandi.com

## الفصل الثالث عشر

الحى اللاتىنى ىنبوع النهضة المصرىة الزاحفة ثقافىًا وعملىًا واجتماعىًا وسىاسىًا مع رحلة الأنجال التى أمها الشىخ رفاعة رافع الطهطاوى، إلى لوعة سهىل إدرىس، ومن فكر الحكىم إلى فلسفة طاها، ومن كل أولئك وهؤلاء ظهر "الجدع" المهاجر السكندرى الذى نقب فى قاع بارىس، بارىس العهر والفجور، بارىس المخدرات ونساء اللىل، بارىس المخثنىن والمخنثات، بارىس علب اللىل، بارىس الحب ومزاولته فى وضع النهار، بارىس الوجه الآخر الذى غاص فىه "الجدع" حتى أصبح واحدًا من معلمىها وكبارها. بارىس التى أتاها الجدع أجبىرًا، وخرج منها منتصرًا على مافىا اللحوم الأشد قوة وجبروتًا، بارىس التى أتاها الجدع متسولًا، وارتقى فىها حتى صار على سطحها ىطلب وده حكام بارىس بل حكام فرنسا. بارىس طاها حسىن والحكىم ىسىران على الأقدام فى حىمها الذى وُلدا فىه وأحباه وكأنه وطنهما. وصل الصدىقان إلى مطعمهما المفضل بشارع سان سىفران من شارع هوشىت، استقبلهما بناىوتى بمرح أولاد مىناء بىرىه أو مىناء الإسكندرىة. وتحدث مع طاها بالىونانىة التى درسها، والتى كان مؤهلاً لأن ىكون أستاذًا فىها، والآن ىزاول مهنته فى المطعم على خىر ما ىرام، وىتحدث مع علماء السربون بىونانىة صحىحة. وقد كوّن صداقة مع طاها من حب وتقدر لابن البحر الأبىض المتوسط. استقلًا بطاولة جانبىة، وبدأ بناىوتى بإكرامىاته المعهودة والتى لا تُنسى من طعام مختلف ألوانه وشراب مختلف مذاقه.

وبادر طاها بالسؤال:

- ألم تشعر في هذا الحي بأننا في أوطاننا؟

قال الحكيم:

- أشتاق دائماً إلى تلك المنطقة التي تذكرنني بحي السيدة، ولكن ينقصها السيدة. أو إن شئت ينقصها الدين.

- الأديان تتغير، وتتوالى، أو تتعدد . بداخل الوطن تجيء الأديان وتذهب - طال عمرها أو قصر - وتبقى الأوطان ما بقي الزمان.

- وهل هناك مرض الحنين للدين؟

- المعروف هو مرض الحنين للوطن. ولو حصلت أنت أو أنا على الجنسية الفرنسية سيبقى الحنين للوطن بداخلنا، جمرًا قابلاً للاشتعال!...

- هذا صحيح، فالوطن يستوعب أديان عديدة، ويحتملها جميعاً.

- أما الدين فقد لا يحتمل إلا نفسه، كما جاء في الآية 85 من سورة آل عمران " وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ " . وكثيراً ما لا يحتمل الدين نفسه فينقسم إلى مذاهب. وكل مذهب يعادي المذاهب الأخرى.

- هل تعتقد أن الدين ينكر الوطن؟

- من المؤكد ينكره! بالرغم من أنه يعيش فوق ترابه وتحت سمائه ويعتبر نفسه هو الوطن.

- مثلاً يعتبر الدين - وبجراحة - أحق بالإنسان من أهله ومن ذويه.

- بمعنى أنه قرصنة مقدسة!

أرى في الهجمة الإسلامية الآن أنهم لا يعترفون بالوطن ويرون أن الدين هو الوطن.

- هؤلاء ليسوا تيارًا وطنيًا مهما بلغ عددهم، بل هم تيار ديني فقط. ولا شأن لهم بالوطن ولا بالوطنية ولا بالمواطنة. واعتبارهم تيارًا وطنيًا هو محض تدليس.

توقف الحكيم لحظة عن الأكل وتجرع ما بقي في كأسه من خمر أحمر قانٍ، ونبه طاها إلى شيء خطر بباله، وسأل:

- ألم تلاحظ أنك تأكل بين جمع كثير، وفي مطعم عام بعد أن كنت تحجل أن تأكل مع إخوتك؟

- لا تُدكرني يا صديقي بتلك الأيام التي كدت فيها أفقد عقلي من الخجل والتقنوط عندما أكل؛ خوفًا من أن تسقط نقطة من الطعام على صدري، فتفضحني بين أقران الأزهر أو حتى بين إخواني الذين إما أن يقهقروا أو يضحكوا، وكنت أتصيب نجلاً.

- أما هنا فلا أحد ينظر إلى الآخر بمنظار العجز، ولا يقدم المساعدة إلا لو طلبت منه.

- هنا شعب راقٍ وواعٍ، ويوفر لكل محتاج حاجته.

وما زال بنايوتي بهما، ويهم بتغيير الأطباق ووضع غيرها مداعبًا طاها مرة والحكيم مرة.

قال الحكيم:

- قضيتُ عمري أتقلُّ من مطعمٍ لمطعم حتى خبرت كل مطاعم القاهرة ودسوق والإسكندرية وباريس، فلم أجد خادمًا مثل بنايوتي.

- هذا هو حبك للوطن.

- أعرف تمامًا أن الدين وراثته إجبارية، ونتاج تلقين منذ الطفولة.

- أما الوطن فشيء آخر تمامًا، فالإنسان نبتة من ضمن نباتات أرضه، يحبه الإنسان مثلما يحب أمه. وحبه ساكن بداخل الإنسان كحبه لأمه.

سأل طاها بنايوتي وهو يجمع الأطباق:

- ما هو الدين بالنسبة إليك؟

قهقه بنايوتي وبخفة دمه قال:

- الدين مثل زوج الأم، أو مثل زوجة الأب، يجب أولاده فقط، وقد يضطهد

غيرهم ..

علق طاها على قول بنايوتي للحكيم:

- الوطن عطاء .. الأصل في الوطن هو العطاء، الوطن يعطيك أولاً، من قبل أن يأخذ منك ... وقد يعطيك فقط دونما أخذ ... والدين يأخذ منك ثمن الموعظة .. وإن لم تتلقها، وإن لم تحتجها، وإن لم تطلبها، فإنه يطالبك بدفع زكاة وصدقات وعشور، وذبايح وشعائر أو جزية وخلافه! ...

نَبّه الحكيم إلى أنه التقى بعاطف يوسف عند مروره بباريس لوضع ساعات. وتحدثا عن أخبار مصر، وهجمة المسلمين الشرسة على الوطن وتمزيقه ومعقبا على كلام بنايوتي قائلاً:

الوطن لا يجب أن يمزقه أولاده بحرب أهلية تفرقهم عن بعضهم!

انتفض طاها تاركا سيجارته قائلاً:

- لكن الدين قد يشتهي تمزيق الوطن وتقسيمه، ولو بحرب أهلية لأجله هو

ولأجل رفعتة. - وأخبرني عاطف يوسف أيضًا بأنه وباسم الدين اندحرت الدولة العباسية وماتت بتمزيقها إلى دويلات متناحرة حتى انتهت تمامًا، انتهت بغداد قلعة الأسود. واليمن السعيد الذي انتهى إلى اليمن التبعيى بفعل الدين وتناحر لبنان بين المارونية والشيعية وحزب الله العظيم! وتعرضت سوريا لحرب أهلية طاحنة بين فروع الإسلام المتعددة حتى اندثرت عاصمة الدولة الأموية. وتناحر السودان بين شماله وجنوبه وشرقه وغربه، وكذلك ليبيا وتونس والجزائر، وحتى المغرب العربي وصحراؤه الموريتانية. أما مصر فبفضل الحكم الإسلامي اليوم ستعود إلى ما قبل التاريخ يوم أن كانت صحراء جرداء لا ماء ولا كلاً. وستكون نهاية التاريخ الفرعوني على يد المد الديني الإسلامي، بحبس ماء النيل - في خزانات أثيوبيا وكينيا وسائر بلاد حوض النيل الساعية إلى نهضتها - عن مصر والسودان. وهكذا تذب زوجة الأب أولاده أو يذبح الدين أولاده. وأكد لي عاطف بأن زيارته القادمة لباريس ستكون لك وحدك.

- أتمنى ذلك!

قال الحكيم:

- كيف يكون الدين وطنًا كما يروج الفقهاء والدعاة؟

- الوطن فيه أماكن: مكان مولدنا... ومكان تعليمنا... ومكان أشغالنا، وسكننا،

وموتنا، وقبرنا! فكيف يقوم الدين بتلك المهام حتى نعتبره وطنًا؟!

- الوطن والمواطنة حقيقة... يندر أن يقوم حولها خلاف أو جدل.

- هذا حق، أما الدين في رأيي فهو محض عقيدة. والعقائد كثيرة، قد تصح وقد

لا تصح وكل صاحب عقيدة يظن أن عقيدته أصوب العقائد!.

- هل تعلم يا طاها أن في العالم ثلاثة آلاف عقيدة؟! والجدل، والخلاف،

والنقاش، والاختلاف حول صحة وعدم صحة كل عقيدة هو أمر لا ينتهي ولا يُحسم!. وكثيرًا ما ينتهي بالغضب وبالكرهية، وبما هو أكثر من ذلك بالحروب كما ذكر لنا صديقنا القادم من بلاد الفراعنة.

- هناك كلمة أخرى حول الدين والوطن، الوطن لا يُطاردك ولا يلاحقك إن اتخذت لك وطنًا آخر. ولكن الأديان تفعل ذلك!...

قال الحكيم بصورة تمثيلية وكأنه على خشبة مسرح بيت مولير:

- الوطن يسمح لك باتخاذ وطنٍ ثانٍ وجدت فيه سعة الرزق أو سعة العلم، ولا يحرمك من جنسيته ... ويرحب بك عندما تعود إلى زيارته، ويدعوك لأن لا تقطع عروق المودة معه، لأنك نبتة من ترابه على رأيك.

- لكن الدين يأبى ... فإن انتميت لدين غيره ... قطع معك كل روابط الرحمة والمودة والإنسانية، وقيم عليك مأتًا كمن لحق بالأموات!

تابع الحكيم صديقه بقوله:

- الوطن لا يبيع لك مواعظًا لا يعمل هو بها ... الوطن ليس كذبة، ولا نصبة، أما قاداته وفقهاؤه فهم النصابون.

- الوطن يمنحك نفسه ... أرضه ... ماءه ... وسماؤه.

خط بنايوتي بخفة ودون أن يقاطعهم بقلمه على مفرش الطاولة الورقي الحساب كاملاً مع الشكر.

## الفصل الرابع عشر

ترددت سوزان كثيرًا على طاها بعد عودتها من "مونبلييه"، أعدت براد الشاي و"كوبين" اشترتهما خصيصًا له. وحملت الصينية مع بعض البسكويت إلى حجرته. استقبلها كعادته بالترحاب والثناء عليها وعلى اهتمامها به، أسعده كثيرًا رائحة الشاي الذي كان يتلطف على شربه بحكم التعود وبحكم العناد مع إخوته في تلطفهم على ذلك المشروب، وخاصة بعد الأكل الذي كان (أرديجي) طوال الأسبوع إلا من بعض الدسم يوم الجمعة إن كانت هناك زيارة من أهله أو أهل أحد ساكني غُرْفِ الربع. أما عدا ذلك فالفول كل يوم أو العدس وعيش الجراية. استطلع طاها أول الهالئين من عطر الأنسة سوزان ومن رائحة الشاي ووردة القرنفل الحمراء التي كانت تحرص سوزان على قطفها وإهدائها إليه بعد قطف شمة منها. ويحتضنها طاها بين راحتيه متشممًا متلفتًا هائمًا سعيدًا مبتهجًا مسرورًا مغتبطًا، ترقص له السعادة بداخل عينيه، يُحسها يمسها يحدثها يتعاطفها يحضنها يناغها يناجها ينهل منها رحيقها. وقال في نفسه:

- ما أبهجنى ما أشجاني فما أنا فيه إلا الحب.

قدمت له سوزان الشاي في كوب مضع صغير ساخن، على طبق صغير عليه قطعة من البسكويت الفرنسي "مادلين"، وقالت في رقة:  
- تفضل يا طاها الشاي مع قطعة من المادلين.

أجابها بابتسامة ودودة:

- لا أفهم عليك يا سوزان. الكوب المصنع أنا الذي قلت لك حكايته، أما ذلك المادلين فكيف عرفتِ جبي لمذاقه؟

- كان أندريه جيد في زيارة لنا بمونبلييه، وكانت والدتي قد أعدت هذا النوع من البسكويت ليوم أحد القديسة مادلين، وقال لنا إنك تفضل هذا البسكويت عن غيره. فحجزت بعضه، وهأنذا أقدم لك البسكويت من صنع والدتي.

- أنت رائعة يا سوزان، فأنت لا تقدمينه إلي بل وكذلك من صنع والدتك، والأجمل أنك تذكرتيني في عيد القديسة مادلين، وكيف حال صديقنا أندريه؟ - يعدّ لرحلة أخرى إلى شمال أفريقيا.

- أتمنى أن أجالسه بعد عودته.

- الأمر هام؟!

- أي حديث بينه وبينني فهو هام، حيث قال لي في آخر لقاء: من ينطلق نحو المجهول عليه الرضا بالمغامرة وحده. وأعجبت بحديثه خير إعجاب.

- أندريه هو فيلسوف الأسرة. وأنا أشاوره في أموري الشخصية والهامة، وأمي دائماً تشاوره وتعمل برأيه، وهكذا نحن مشتركون في حب فيلسوف واحد.

- هذا إن صح التعبير. لكنني أوافقك من حيث المبدأ.

- كنت أتمنى أن تأتي معي إلى مونبلييه للراحة والاستجمام.

- أكيد عندما يخلو لي المقام. أحب تلك المدينة الساحلية!.

- تحبها لأهلها؟!

- أحبها لأمرين: الأمر الأول أنها كانت آخر ما وصل إليه العرب في أوروبا.

والأمر الثاني أنها من أبرز المدن الدينية الفرنسية منذ القرن الحادي عشر. وهي مقرّ القديس يعقوب، وفي القرن السادس عشر بنيت جامعها وأصبحت مركزاً تجارياً وثقافياً، أما حديقة نباتاتها فلا تضاهيها حديقة.

- أنت تعرف عن موبلييه أكثر مما أعرف أنا المولودة بها!.

- هي عادتي يا سوزان، لا أستطيع الرحيل إلى مكان إلا إذا وقفت على تاريخه وأصله وفصله، فما بالك ببلادٍ أنتِ وُلدتِ على أرضها.

- أتنبأ لك يا طاها بالعالمية. وأنتِ لن تموت أبداً.

- أشكرك يا صديقتي.

- لي طلب أرجو أن تجاوبني بالإيجاب!.

- إن كان لي إليه سبيل.

- أريد أن أقرأ معك كل يوم ساعة ونصف إلى ساعتين. أتقبل هذا؟

- أقبله؟! وهل هذا سؤال يا سوزان؟ هذا أمرٌ محبوبٌ إلى قلبي وذهنِي. لكنه

سيكون إجحافاً بوقتكَ في الدرس.

- لا ... لأن درسي في الأدب لا يتعارض مع ما أنتِ بصدده. ولكن ماذا

ستقول للآنسة "ماريز"؟

- ماريز ما هي إلا ماكينة قراءة تنطق الأحرف كما لو كانت غير آدمية، ولن

أستغني عنها، وسأقول لها إن السماء انفتحت لي وأرسلت ملاكاً ناطقاً بحروف

الفرنسية كاللؤلؤ ينزل إلى الأذن منزلة الندى من الورد ليستقر في العقل.

- إذًا علينا أن نبدأ من الغد.

- وهو كذلك. ومن ذا الذي لا يقبل السعد؟!

- ماذا سنقرأ إذًا؟

- لي بحث على درجة عالية من الأهمية لم أذعه في مصر؛ لأنهم لن يقبلوه، وسأذيعه هنا لأنهم يقبلونه وإن لم يؤمن البعض بما في هذا البحث.

- ولماذا لا تذيعه في مصر؟!

- المثقف المصري ما زال واقعًا تحت أغلال الدين، لم يتحرر منه ولم يفصل بين الدين والدولة، وبين الدين وحرية الطائفة المغردة السابحة المعبرة المنقبة المتغلغلة الناقدة دون حدود في الأدب.

- شوّقتني للقراءة من الآن. وما الموضوع الذي تريد كتابته؟

- أريد أن أكتب عن الإله والعقاب والثواب عند أبي العلاء المعري.

- منذ حديثك عن أبي العلاء المعري وأنا دائماً البحث والقراءة عنه. وقد ذكّرني بالأديب الفرنسي "مارسيل بروست" في البحث عن الزمن المفقود عن موضوع العلة والمعلول ومثاله عن تغميس قطعة البسكويت مادلين في فنجان الشاي.

- أعتقد أنه كان يجب هذه الحلوى مثلنا.

- أعرف أنك قرأت له البحث عن الزمن الضائع.

- نعم قرأته.

إنها رواية رائعة كانت مُعْرَضًا للعالم الخارجي الذي عاشه وعرفه بعمق ورسمه بقلم موهل في التحليل والتركيب. وهي ليست رواية التصوير الصادق لمجتمع من المجتمعات الباريسية قبيل الحرب العالمية الأولى وخلالها، بل على العكس هي أول رواية لم تصور (الواقع) بل صورت ضربًا من الحلم الواعي الدقيق في توصيفه، وانطوت على فترات من الزمن ينزلق بعضها في بعض؛ ليختلط ويمتزج وينصهر في عالم الذكريات، لتتقدم الرواية للقارئ نظرة جديدة للكون والوجود وتصورًا

جديدًا للحياة والإنسان بعد إتمام قراءتها.

- هذا صحيح يا آنسة سوزان. أما أبو العلاء المعري فقد ذهب لأبعد من ذلك في العلة والمعلول! لأن في رأيه أن العالم يأتلف من أشياء يتصل بعضها ببعض، ويؤثر بعضها في بعض، ومن هنا ذهب إلى أنه لم يكن بين أحكام العقل أصدق من القضية القائلة بأن المصادفة محال. وأنه ليس في هذا العالم شيء إلا وهو نتيجة من جهة، وعلّة من جهة أخرى، نتيجة لعلّة سبقته وهو في مثال بروسث الشاي. ومقدمة لأثر يتلوه، وهو تغميس البسكويت فيه. ولولا ذلك لما اتصلت أجزاء العالم. ولما كان بين قديمها وحديثها سببٌ، ولا بين الثورة والثوار سبب، ولا بين الحاكم والمحكوم سبب.

- أراك وأشعر بحماس زائد لديك تريد إفراغه.

- ما دفعني لذلك أخبار جاءتني من مصر عن حركة الشارع والشعب ضد حاكمه وحركة الشارع والشعب ضد المهجمة الدينية الإسلامية العنصرية التحكيمية العنيدة ضد الوطن.

- هل أنت مستعد للكتابة؟

- من المؤكد بعد تلك المقدمة السخية في الحديث إليك أن ينجلي عقلي عما أنا بصده من أفكار عن الإله والعقاب والثواب عند أبي العلاء المعري، وموقفه من الآلهة والزعماء والرؤساء والحكام والسلاطين والأمراء والملوك العرب.

- وهل أنت على استعداد للكتابة؟

- هيا بنا إلى غرفتي لكي لا يزجنا أحد.

أخذ طاها مجلسه على فوتيل وثير يملأ رُبع الحجره تتخذه سوزان سريرًا بجوار النافذة وتحت يده كوب من الشاي الساخن. ومدد ساقيه على مقعد "دكة" وثيرة

في نفس ارتفاع قاعدة الفوتيل يطلق عليها (العثنالي). وألقت سوزان على ساقيه غطاءً من الصوف الخالص اتقاءً لبرد السكون، واستعدت هي لأول إملاء عليها وشرع طاهها في الإملاء:

- تلك محاورة أبي العلاء المعري للإله في موضوع الثواب والعقاب إذ قال:

الثواب والعقاب ولا سيما العقاب اضطرارٌ وحاجة وعجز عن البديل، وأنت يا إلهي فوق الاضطرار والعجز والبديل ... أليس كذلك؟ ... هل يحدث أن يترك اللص أو القاتل أو المفسد أو المخرب يقتل ويفسد ويخرب لكي يعاقب؟ مع القدرة على منعه ومع العلم السابق في لوحه المحفوظ أنه سيفعل جريمته قبل أن يفعلها؟؟ والثواب ليس إلا أسلوبًا قد يحسب مذهبًا أو متخفيًا من أساليب الرشوة. وصعب جدًا أن نفسرك بأنك كالحاكم الذي يترك اللصوص والقتلة والمفسدون يفسدون لكي تعاقبهم وأنت قادر على منعهم. وعالمٌ أيضًا بأنهم سيفعلون جرائمهم قبل أن يفعلوها! وحتى هذا الحاكم هل وُجد أو هل يمكن أن يوجد؟ يا إلهي الذي رأته كل العيون المغلقة ولم تره عين واحدة شجاعة ذكية قارئة مبصرة ببصيرتها، الذي وجدته كل العقول الغائبة المتوقفة ولم يجده عقل واحد حاضر أو متحرك بالمحاورة أو بالمسائلة، يا إلهي الذي لن يُرى ولم يُر إلا في الظلمة، ولم يسمع صوته إلا المصاب بالصمم الشامل ولم يجده إلا المصاب بالغيوبة الشاملة!

إن الثواب والعقاب لن يكونا إلا تعاملًا مع المستقبل، وإن لم يبق مستقبل يخاطب ويعامل ليصاغ ويحمى فلن يكون هناك ثوابٌ أو عقاب. أو لن يكون لهما أي معنى أو قيمة ... إن العقاب والثواب ليسا نشوة أو شهوة أو ممارسة جنسية، ليسا غناءً أو رقصًا أو فرحًا أو طقوسًا دينية، أو تمجيدًا أو تكريمًا أو تعظيمًا أو تكبيرًا أو إسعادًا للذات المثيية المعاقبة، وليس كذلك شفاءً أو

استجابةً للحقد أو الغضب، ولكنهما تداوٍ وجراحة وشفاء. والإنقاذ والحماية والجمال لمستقبل يبدأ من اللحظة الحاضرة. إن الثواب والعقاب ليسا تعبيرًا عن الحقد والعداء والبغضاء والأساليب والنيات التي تُعبر النبوات بها والقيادات والزعامات العربية عن أحقادها وبغضها وعداوتها. إن أيًا كان لو أراد أن يعاقب نفسه عقابًا منطقيًا أخلاقيًا على ذنب أو خطأ لما عاقب إلا بالتحاور والتعامل مع مستقبل يبدأ من اللحظة الحاضرة والمتجهة إلى المستقبل. والآن كيف تصورت يا إلهي قضية ثوابك وعقابك في الحياة الثانية؟ أي أن تكون متقبلًا ومريدًا أن تكتب على اللوح المحفوظ كل الجرائم لكي تثيب أو تعاقب عليها! إن المستقبل كله قد مات في الحياة الثانية، إن كل شيء قد مات ..

إن فكرة الثواب والعقاب ضد الأخلاق!.. وسأعطيك مثال الحاكم العربي أو القائد العسكري العربي أو السلطان أو الملك أو الأمير أو الخليفة العربي، يفرض على رعيته أن يطيعوه ويعبدوه ويقدموه ويمتدحوه ويهتفوا له ويؤلفوا الكتب والقصائد في تمجيده وتزيينه وتأليه، ويعلن أن كل من يطيع ويفعل ذلك فسوف يعطيه أجزل العطايا ... يعطيه الجواري والعبيد والحريير والذهب، ويعطيه كل ما يؤكل ويشتهي حتى الخمر والغلمان والقدرة الهائلة على ممارسة العلاقات الجنسية ... ويعطيه الخمول والكسل والاسترخاء والفراغ الدائم دون أي اهتمام أو حماس أو تفكير في أي شيء سوى هذا الاستمتاع الجسدي البذيء الوحش الفضح ... أما من لم يفعل ذلك فيعلن الحاكم العربي أو الزعيم أو القائد، العقاب وأقبح وأنذل وأقسى العذاب لأنه أي الإنسان قرر وصمم أن تكون جبهته وقامته جبهة وقامة إنسان فيه كل نموذج الإنسان، لا جبهة وقامة برغوث أو صرصار. أليس هذا الحاكم والزعيم والقائد سخيًا وجاهلًا وخارجًا على جميع المقاييس الأخلاقية ومفسدًا لها؟ أليس من يطيع هذا الحاكم أو الزعيم أو القائد منافقًا وذليلًا وكذابًا

وجباناً وصغيراً؟ لا يختزن في ذاته أي معنى كريم يمكن أن يطمع فيه ليكون له مجداً أو فرحاً أو سعادة أو قوة أو جمالاً لكي يدفع ثمنه مهما هان وصغر ثمنه؟ إن هذا المطيع ليس مطيعاً بأي تفسير من تفاسير الطاعة ... هل يوجد هجاء كالامتداح المدفوع ثمنه أو المطالب بثمنه؟ هل يوجد هاج لنفسه مثل من يقول: اعبدوني واشكروني لكي أدخلكم الجنة؟ إلا أن يكون إلهاً أو زعيماً أو قائداً أو رئيساً أو ملكاً عربياً؟ بكل صيغ العفن لا يوجد هذا الحاكم والسلطان والأمير إلا أن يكون عربياً في كل الكون وفي كل التاريخ. هل الامتداح أيها الإنسان العربي إلا بصاق للضعف والنذالة على الممدوح؟ أليس هذا البصاق على الحكام والزعماء والأولياء والأنبياء والإله العربي إلا امتداحاً وتمجيذاً وولاءً لهم. ها هو الإنسان العربي عارٍ من كل ما يستر. من كل شيء إلا من جسده المغطى بكل الدمامات والتشوهات والعاهات الرهيبة!. وها هو الواعظ والإمام والقائد والزعيم والخليفة يخطب بموعظة ضاجة راقصة متفجرة بكل الجراءة والرغبة عما في جسد الإنسان العربي المشوه من معجزات الجمال والاكتمال. أليس كل خليفة وسلطان وقائد وزعيم وأمير وحاكم ونبي عربي بل وإله عربي في كل زمان يصنع ويكرر هذا المنظر؟ وحوله حشود المادحين والشاكرين والمؤمنين والمصلين والعابدن الهاتفين المتضرعين المتحدثين عما في أقبح العاهات والدمامات والتشوهات العارية المتعرية في كل العيون من معجزات الجمال والاكتمال والعبقرية لكل العيون الرائية والعيون العمياء؟ أليس التاريخ العربي أو الوجود العربي مؤلفاً من هذا المنظر أو المشهد؟ هل وجد أو يوجد في الحياة العربية مشهد أو منظر يساوي أو يشبه هذا المنظر في عراقته وأصالته أو في ديمومته؟

وأكمل أبو العلاء المعري في حديث آخر:

.... أجل يا إلهي ألست في ثوابك وعقابك نموذجًا أو تقليدًا لهذا الحاكم العربي الذي يفرض على أتباعه ورعيته وجنوده السمع والطاعة ليعطيهم ثمن طاعتهم وإيمانهم به أو يوقع بهم كل العذاب والهوان؟

يا كل البشر وكل من ليس بشراً، يا كل من في الكون وخارج الكون، حذار أن يطالب أحد منكم الآخر بأن يطيعه أو يعبده أو يمدحه أو يشكره أو يهتف له ليعطيه ثمن ذلك جوارى وغلماً ولبناً وخمراً وحريراً وذهباً وخملاً وكسلاً وفراغاً كثيباً بليداً، أو أن يحذرهم من ألا يفعلوا ذلك له لئلا يصنع أقسى وأقبح عذاب في أعماق أقسى وأقبح جحيم. إنك يا إلهي الكائن الوحيد الذي لن يستطيع أن يراه أو يقرأه أو يحاوره إلا الأميون. الأميون الذين لن يستطيعوا أن يكونوا رائيين قارئين أو محاورين أو مفسرين أو فاهمين أو شاكين. ولولاك يا إلهي لما وُجد المجرمون والعصاة والسفلة لكي تحاكمهم وأنت أعلم بإجرامهم وسفالتهم وعصيانهم وسفحهم دماء شعوبهم على لوح جبريل المحفوظ. إنك يا إلهي الكائن الوحيد الذي لا تستطيع أن تراه إلا الأعين المتوقفة عن الرؤية. بل الكائن الذي لا تستطيع أن تراه أية عين إلا بعد أن تصاب بالرؤية المضادة لكل الرؤية، والذي لا يستطيع أي عقل أن يعقله أو أن يعقل أي شيء فيه إلا أن يكون عقلاً مضاداً لكل العقل. إنك خارج كل أمانى ونماذج وشروط العقل والمنطق والأخلاق والحب والفرن والقوانين والجمال. أنت اللاعن المهدد بكل عقاب كل من يخرج عنك، كل من يخرج عن شيء أنت خارج عليه كله!.

توقف طاهها عن الحديث ليرتشف من الشاي الذي أوشك أن يبرد. وتركت سوزان القلم لتريح أصابعها وتمطت قليلاً، وأشفق عليها طاهها من كثرة الكتابة فقال

متسائلًا في حنوّ:

- أتعبت اليوم يا سوزان؟
- أنت تملي علي ببطء، وهذا يريحني.
- أعتقد أن الوقت المحدد قد انتهى اليوم .
- لكنني ما زلت في نشاط أحسد نفسي عليه معك.
- أشكرك يا آنسة.
- ما رأيك في التريض بعض الشيء؟ ثم نعود لنكمل الحديث مع أبي العلاء المعري.
- هذا جميل منك، ويدهشني أنكِ عرفتِ عني حبي للسير.
- رجل مثلك لا بد من معرفة كل خطاه لتهتدي بها. لأنك ستكون يومًا مُعالمًا للأجيال وخالدًا في نفوس شعب مصر والعالم العربي.
- أنت تبالغين يا آنسة سوزان.
- ما أمليته علي اليوم يشهد بذلك. هيا بنا نخرج ونواصل حديثنا سيرًا على ضفاف نهر السين.
- وهو كذلك، وتلك أمنيّتي أن نسير سويًا.

## الفصل الخامس عشر

عاد طاها من جولته مع سوزان، استوقفهما موظف الاستقبال بالفندق، وسلم لها حزمة من الأغراض مع رسالة. صعدا إلى حجرة طاها، طلب منها أن تفضّ الخطاب وتقرأه عليه، وقبل أن تبدأ في القراءة طلب منها أن تخبره عن كتب تلك الرسالة، وكانت يامضاء صديقه توفيق الحكيم. ضحك طاها وقال:

- ههنا فيلسوف مصر.

وشرعت سوزان في القراءة:

- صديقي العزيز، تلقيت كتابك الكريم. ومع أنني عرفت أن علي الهبوط من شمال فرنسا إلى جنوبها، ثم الصعود من الأرض إلى القمم على ارتفاع أربع عشرة مائة من الأمتار، وأن أركب القطار ثم أنتقل من وإلى " الكار " حتى أخذني الدوار!.. فإنّ أقصى جهودي أن أهبط من الفندق إلى المقهى، وأصعد من المقهى إلى الفندق ... فإذا غامرْتُ يوماً وذهبتُ إلى حي متطرف من أحياء باريس فإني أقول: "اللهم ردّ غربتي!..." وأعود حالاً إلى مقري وأنا أتنفس الصعداء ... ثم كيف أترك باريس الآن؟ وقد بدأت المسارح تفتح أبوابها باباً بعد باب .. وأخذ المحار البرتغالي " والمول " البحري تظهر بشائره في مطعم "ملك الأصداف" في ميدان "كليشييه" ..! وأنا من هواة "المحار" .. لا أتعب من ملاحظة بئعه وهو يفتحه بسكينه، ويرصه في أطباق يحملها خدم المطاعم ... فتسافر أنظاري خلف الأطباق، على حد تعبير بديع الزمان...

لا؛ ليس من السهل أن أترك باريس الآن ... خاصة أن مقامي فيها لن يجاوز اليوم العشرين من هذا الشهر ... فأمامي إذن أقل من أسبوعين أعدّ فيها عدتي للرجوع إلى مصر ... فإذا أردتم من مصر شيئاً فإني رهن الإشارة ... وختاماً أرجو

لكم مقامًا طيبًا وعودًا حميدًا ...

وأن أراكم في مصر هذا الخريف على أحسن صحة وأتم هناء بإذن الله والسلام.

توفيق الحكيم

حاشية: السجائر التي عندي كيف أوصلها إليكم؟ .. وكذلك لكم في ذمتي هدية زجاجة "أولد بار"، جئت بها لكم من مصر ونسيت أخبركم بأمرها ... أظن الأوفق أن أجعل هذه الأشياء في حزمة وأن أودعها أمانة لكم عند بواب الفندق.

عقب طاها على رسالة الحكيم:

- هذه هي الأعدار الواهية، والحكيم يعلم تمامًا أننا ما زلنا في باريس ولم نغادرها، والدليل أنه ترك لنا تلك الحزمة هنا في الفندق، وطلب من سوزان أن تفض الحزمة.

قالت سوزان:

- هل تريد كأسًا؟

- ولم لا؟ فلنشرب نخب صديقنا الحكيم ونشعل سيجارتين ماركة "الوينجز" المصرية الشهيرة.

- هل تعتقد أنك ستري الحكيم قبل مغادرته إلى مصر؟

- لن يغادر باريس لأن مغادرته باريس تعني كارثة على حد تعبيره ...

- أليس من الأفضل أن تتصل به وتخبره أنك ما زلت في باريس؟

- هو يعرف ذلك وهو الذي أخبرني عن افتتاح موسم عروض المسرح وتركت

له حرية اختيار العرض الذي يروقه لنشاهده سويًا.

- هو كاتب مسرحي قدير.

- إن صح التعبير فهو أول من كتب للمسرح المصري، إن لم يكن للمسرح العربي  
إذ أنه ممثلاً أكثر منه قاصّ ...  
- هل قرأت "عودة الروح"؟  
- نعم.

- أرى الحكيم في "عودة الروح" قاصّاً، ولكنه يمثل على الرغم منه. قد صور في  
تلك الرواية الحياة المصرية كما يحياها الأوساط من المصريين. وكما يحياها الفقراء  
من المصريين أيضاً. وصوّرت هذه الحياة المصرية في كثير من الحب والشغف بها  
والفناء فيها كأنما كان يصور نفسه؛ لأن كل المصريين الذين صورهم في هذه القصة  
يتصلون به من قريبٍ أو بعيد.  
- هل توفيق فلاح؟

- توفيق مصري. حيث صور الشعب المصري الجادّ الكادح، وليس لهذا  
الشعب قوة ولا ثبات إلا إيمانه بنفسه، وثقته بمستقبله، وإكباره لماضيه، لقد  
عرف الحكيم شعباً يجهل نفسه، وهو على جهله بنفسه يقدر نفسه! يعرفها في  
ضميره الخفي ويجهلها في ضميره الشعوري.

شعب مصر غني قوي يجهل ثروته ويجهل قوته ويجهل نفسه.  
- هل أنت متحامل على الحكيم؟  
- لا يا سوزان. بل أكتب له لأوضح للقارئ ما يقصد إليه الحكيم؛ لأنه كما ذكرت  
لك عندما يكتب فإنه يمثل أكثر مما يكتب.  
- هل تقارنه بموليير؟

- لا وجه للمقارنة بينه وبين مولير؛ لأن مولير كاتبٌ وممثل. أما الحكيم فكاتِبٌ  
ممثل، فإن كان مولير يتحرك على خشبة المسرح فإن الحكيم يتحرك على صفحات  
الورق.

رشفت سوزان آخر رشفة من الكونياك المعتق ثم قالت لهاها:  
- هل تريد أن أملاً موضوع أبي العلاء المعري أم تُرجئه ليوم غد؟  
- إن كنت ترغبين في الكتابة الآن فليس لديّ مانع.

وانتفضت سوزان بسعادة وهي تمسك الورق والقلم، وأومات برأسها كمن تطيل  
الإصغاء واستعدت للكتابة، وتمهل طاها ثم استقر في مجلسه وقال:  
- طرح أبو العلاء المعري سؤالاً حيره كثيراً وهو:

"لماذا خلق الإله العذاب؟ ولماذا خلق الإله من يستحقون العذاب؟

وللإجابة على ذلك السؤال جاءت إجابة المعري بسؤال آخر، أو قل بأسئلة  
أخرى: كيف تعاني يا إلهي في خلق من يستحقون التعذيب لكي تذهب وتعاني  
في خلق أدوات التعذيب؟ وفي رؤية المعذبين وسماع صرخاتهم وآهاتهم؟ ما هي  
يا إلهي حكمتك أو فرحتك أو مجدك في أن تُوجد من يستحق العذاب لكي  
توجد العذاب؟ إلا لو كنت أنت يا إلهي حاكماً أو قائداً أو خليفة أو سلطاناً أو  
أميراً عربياً؟! ليتنا يا إلهي نستطيع أن نعلمك شيئاً من العقل أو التعقل، لكن  
هل يوجد كائن لا يتعلم سواك؟ آه يا إلهي. كم يجب الرثاء لك ولعقلك ولضميرك.  
آه يا إلهي ... هل أنت موجود؟ هل يوجد عدوان عليك أو هجاء مثل أن تكون  
موجوداً؟ ... إنك الكائن الفريد الذي لا جمال ولا ذكاء له في أن يكون الفاعل  
لكل الذنوب والدمامات أو ألا يكون موجوداً . ولأني أريد لك الجمال فإني  
أرفض أن تكون موجوداً! ...

ما أجمل وأعظم وأنفع أن يتعلم الإله من الإنسان! وما أقبح وأردأ وأخسر أن  
يتعلم الإنسان من الإله! إن كل حضارة ومعرفة لم تولد أو توجد إلا حينما كان الإله

يتعلم من الإنسان. وإن كل بدادة وجهالة لم تولد أو توجد أو تبقى أو تعظم أو تنتصر إلا حينما كان الإنسان يتعلم ويسمع من الإله. إن كل المعارف والحضارات إنما تعلمها الإنسان من الإنسان، وكل الجهالات تعلمها الإنسان من الإله.

وختم أبو العلاء المعري أخيراً قائلاً: "أليس الإله هنا مظلوماً ومكذوباً به؟ عملت سوزان على راحة الأستاذ بعد الانتهاء من التدوين، حيث ذهب ليغتسل وينظف أسنانه وعاد منشرحاً لنوم هادئ، وودعته إلى لقاء الغد. لم ينم طاهها كعادته منذ الصغر إلا أنه في تلك الليلة قرر النوم هائناً راضياً ليس للعفاريت والشياطين من وجود حوله ولا أصوات الباعة والهاثف إلى الصلاة، ولا دبّ العصى الغليظة لشيخ الربع لإيقاظ الحاملين عن الله، أما ما كان يزعجه حقاً فهي تلك الأصوات التي تأتي إلى أذنيه من شقوق الحائط، ومن خشب الأرضية، من زحف الحشرات وطنينها والتي لا تسعى إلا في الظلام، وعند إدارة أخيه لزرّ المصباح وخروجه إلى صحبه مطمئناً لنوم أخيه اليقظان أبداً، وهذا سرٌّ أن لا ينام طاهها إلا والمصباح مشتعل في الغرفة. أما اليوم فتطمئن عليه عادة مهذبة ليست من دينه ولا مجتمعه، ولا ثقافتها من ثقافته، ولا مجتمعا من مجتمعه، ولا معتقدها من معتقده، ولا دمها من دمه وترعاه، وتخاف عليه أكثر من أخيه وذويه وأهله وصحبه فبأي آلاءٍ ترغبون؟ وبأي حب تحبون؟ وبأي دين تتمسكون؟ وبأي عشق تكبرون؟ وبأي ثقافة تهيمون؟ ولأي أخلاق تقلدون وبأي علم تتعلمون؟ وبأي فلاح تفلحون؟ وبأي حب تهيمون؟

obeikandi.com

## الفصلُ السادس عشر

لم يتوقع طاها زيارة الحكيم بعد راحة القيلولة التي لم ينقطع عنها ... لكنه هو، هو الحكيم بصوته الجهوري وكأنه يكتب مسرحية جديدة. والحق يقال أن طاها سعد بتلك الزيارة المفاجئة، خاصة أنه كان يعلم أن الحكيم ليس في باريس. إلا أن لدى طاها الكثير الذي يريد أن يبثه صديقه عن تلك العاطفة الناشئة بقوة تجاه الأنسة سوزان. عندما شعر توفيق بتلك الرغبة الجارحة لدى طاها، كتم سبب الزيارة المفاجئة إلى أن يكتمل سعد صاحبه بالإفراج عما في نفسه. استعد طاها للخروج بالرغم من أن توفيق لم يشر عليه بذلك. لكن طاها يعرف جيدًا أن صاحبه لا يطيق أن يكون في مكان واحد يزور ويحكي ويكتب وينام ويقابل بل هو يعمل كالشيخ المقشبندي، ممكن أن يكون في مكانين مختلفين في وقت واحد، وخلقت حوله أي حول الحكيم الأقاويل والحكايات عن تلك المقدره الغريبة لعدم الصبر أن يكون في مكان واحد. تهندم طاها ونثر حول عنقه رذاذ بارفاه " أير" للرجال من إنتاج شانيل. وابتسم الحكيم قائلاً بمكر:

- حتى البارفاه وجد طريقه إليك!

- هذا من حسن طالعي.

- من حسن طالعك أم من حسن طالع من أهدته إليك؟!

- لماذا تتكلم بصيغة التأنيث.

- هذا البارفاه الباريسي لا يعرفه إلا الباريسيات.

- خاب ظنك يا صديقي! إنها ليست باريسية.

- ألم أقل لك من أهداه إليك امرأة؟!

- كسبت الرهان يا صديقي فأنت زير النساء.

- أنا لستُ زير للنساء بل أعبد الجمال.

- ولماذا لم تتزوج إلى الآن يا عبد الجمال؟!

- أنت تعرف أنني لا أحب القيد، وإن أحببتُ امرأة فلكي تُهديني إلى غيرها.

- ألم تسأل نفسك وما ذنب النساء في هوايتك تلك التي تسبح بجمالهن؟

- السؤال! السؤال هو همنا الأكبر وهو سبب وجودنا هنا!

- نعم! نعم السؤال الذي لم يتعود الشرقي على طرحه وكأنه محرم علينا السؤال.

نظر الحكيم إلى صديقه متفحصًا هندامه، وأثنى على شياكته وقال:

- علينا الذهاب إلى ممبرناس.

- هيا بنا.

وكما عود الحكيم طاها استقلا مترو الأنفاق من أمام الفندق، وما هي إلا خمس محطات حتى صارا في ممبرناس، وصعدا الدرج الذي ألقاهما أمام مقهى الروتوند. وشعر طاها بطنين الناس والمارة وروائح المقاهي المنتشرة في الحي والتي هي أبرز سمات العاصمة الفرنسية. ذلك الانتشار الكثيف للمقاهي التي أحباها الحكيم. ذلك الانتشار الذي يضيء عليها حيوية تميزها عن سواها من المدن الأوروبية.

وقال توفيق لصديقه الذي لاحظ نشوته بتلك الحركة وذلك الطنين:

- أعتقد أنك تعرف جيدًا أن المقاهي تشكل جزءًا لا يتجزأ من المشهد

الباريسي ومن حياة الباريسيين وعاداتهم اليومية التي طبعوها بطبعهم.

- هذا لأنك تعشق الحرية أيها الحكيم.

- تلك الحرية المرتبطة بالمقاهي الباريسية التي أصبحت جزءًا من تراثهم وتاريخهم.

- لأنها واكبت تطورهم السياسي والفكري والاجتماعي منذ القرن الثامن عشر.  
- والأهم أن لكل مقهى من المقاهي الواقعة في هذا الحي أو ذلك من باريس سيرته الخاصة المرتبطة مباشرة بنوعية وشخصيات رواده. فالمقاهي هنا تشهد دائمًا ولادة الحركات الفكرية والتيارات الأيدلوجية الجديد. حتى أن بعض المقاهي كانت بمثابة مقارًا من قبل فلاسفة عصر التنوير، ومن المقاهي من شهد ولادة الثورة الفرنسية.

- ذكرتني بصديقك المصري عاطف يوسف.

دخل الصديقان مقهى الروتوند الأهل، وتبادلوا التحية بالوجه تارة وبالمصافحة تارة وقادهم النادل إلى مكان فضله الحكيم وكان في أثره بزجاجة البيرنو، صب للحكيم وزجاجة الويسكي " شيفاس ريجال"، صب منها لطاها على مكعبات الثلج ليشرح له صدره، وليعينه على ما سيقوله لصديقه من سر الأسرار.

وقال الحكيم:

- لماذا تذكرت صديقنا عاطف يوسف الآن؟

- هو صديقك أنت إلى حين أن ألتقي به.

- هذا مؤكد، وسيكون قريبًا، أما ما علاقته بحدِيثنا؟

أخذ طاها رشفة متأنية من الشيفاس ريجال وقال:

- تحدثني كخبير عن المقاهي الباريسية وكيف أنها مركز النشاط الفكري وولادة الثورة. إن قارنت هذا التركيز في الفكر وفهم حركة التاريخ والصراع الثقافي بما نقله

لك صديقك عن مصر، وولادة الحركات التمردية في الميادين نجد أن في مصر الآن نفس الروح الثورية الفرنسية التي وُلدت بواسطة مفكرين وفلاسفة وكتاب، وبينما في مصر تولد الآن من رحم الميدان دون تركيز ولا فهم لا لحركة التاريخ ولا للصراع الطبقي ما يفصلها تمامًا عن الحكم أو الطبقة الحاكمة، والتي ستؤهل تلك الحركات لولادة مشوهة بدون طبيب ولا حكيم ولا داية، ولا عملية قيصرية بل إجهاض ونزيف ودم.

- إذن هل يُعد ذلك حركة جديدة من حركات التاريخ؟  
- المستقبل هو الذي سيحكم عليها.  
- والمستقبل سنطلع عليه عند لقائنا بصديقك القادم من هناك.  
- أعتقد أن عصر الزعامات ولى وانقضى وحل محله عصر الميدان.  
- هذا ما أشاهده الآن في أوائل القرن الحادي والعشرين، لكن حركة الميدان تتسم دائمًا بالهوجائية وليس التقنينية.  
- لأن الذين يقومون بتلك الحركات ليسوا على دراية بحركة التاريخ الإنساني، وليس لديهم خلفية اقتصادية تؤهلهم للتفكير السليم فيما ستؤول إليه حركة الميدان.

- إن اندفاع الميدان بقوة الشباب الهادرة زلزلت بعض أركان الدولة ولكنها لم تستطع أن تقود الحركة الميدانية إلى النجاح.  
- بالرغم من أن الميدان تخطى كل فلسفة وكل فكر منظم إلا أنه -أي الميدان- استمر في اندفاعه الأهوج إلى أن كسره ... إما المؤسسة العسكرية الأكثر تنظيمًا أو جماعة الإخوان المسلمين الأكثر شراسة.

- لكن حركة الميدان ستستمر في قيادة الدولة بعنفوان الشباب الذي أصبح المحرك الأول لماء الدولة الراكد، وبدلاً من أن تصبح البطالة نقمة أصبحت نعمة

لإنتاج مجتمع جديد ستشهد مصر ولادته.

- وسيحل صراع الميادين محل الصراع الطبقي وتحل الانتفاضات محل حركة التاريخ.

تذكر الحكيم فحأة أن معه مقالاً كتبه صديقه على جريدة "أمواج سكندرية" تحكي عن الأحوال في مصر هل هي سياسية أم ثقافية وقرأها على طاها:

### الصراع الثقافي في مصر

الصراع في مصر بين قطبين لا يمكن لهما أن يلتقيا إلا بانتصار طرف. قطب الحداثة والقطب التقليدي، فكل منهما ثقافته التي لن يجيد عنها لأنهما في تجاذب مستमित وصراع أعمى يصل إلى حد الإزهاب وحرب العصابات والقتل والدمار باسم المسلمات الدينية.

هذا الصراع في الواقع يقوم أساساً بين نموذجين معرفيين ينطلق كل واحد منهما من رؤية للحياة مناقضة للأخرى، ولا يمكن لهما أن يتلاقيا تحت أي ظرف.

النموذج المعرفي الأول: هو الحداثة والنموذج المعرفي الثاني: مناقض للحداثة، ويقوم على أساس محاولة استعادة نموذج تقليدي إسلامي هو الخلافة الإسلامية وفق مشروع إخواني محدد الملامح والسمات.

والحداثة تعني الديمقراطية في المقام الأول، بمفرداتها المعروفة، وهي: حرية التفكير، وحرية النقد وحرية التعبير، وحرية التنظيم، والانتخابات الدورية النزيمية سواءً كانت برلمانية أو رئاسية لو كان النظام السياسي جمهورياً، وقبل ذلك كله تداول السلطة.

أما الحداثة الفكرية فتقوم علي مبدأ أن العقل هو محك الحكم على الأشياء، وليس النص الديني.

ولو طبقنا معيار الحداثة الغربية بكل أبعادها لاكتشفنا أننا في العالم العربي أخفقنا لأسباب متعددة في تحقيق الديمقراطية، ولم نستطع أن نحقق الحداثة الفكرية.

ويمكن القول بيقين إن التطرف الإيديولوجي الذي تمارسه الجماعات الدينية مثل جماعة الإخوان المسلمين أو الأحزاب السياسية الدينية الأخرى هو أحد المعوقات الرئيسية للنمو الديمقراطي في العالم العربي. وبعض هذه الحركات التي تمثل التطرف الإيديولوجي قد تندفع إلي ممارسة العنف ضد الدول القائمة، والذي يصل إلي حد ممارسة الإرهاب المنظم سعيًا إلى قلب الأنظمة السياسية القائمة، بدعوى أنها لا تطبق شرع الله.

إن المصالحة السياسية مستحيلة في ظل هذا الصراع الثقافي، لأن جماعة الإخوان المسلمين فيما يبدو ليست مستعدة للتنازل عن جميع مفردات مشروعها السياسي الأساسي والذي يتمثل في إقامة دولة دينية. والسعي لإقامة دولة الخلافة الإسلامية، وعدم الاعتراد بمقتضيات الوطنية المصرية ولا بقداسة حدود الدولة، والاستئثار المطلق بالحكم، والرفض القاطع لمبدأ تداول السلطة مع أنه ذروة القيم الأساسية للديمقراطية، وتلك هي قمة الصراع الثقافي بين فكر تقليدي عفى عليه الزمن وأيدولوجية حديثة لم تتوقف عن التطور، والتي يطمح إليها الشعب المصري وحتى إلى ما بعد الحداثة وإلى عصر المعرفة. ورغم تعنت الجماعات الدينية وتحجر عقولهم وانغلاق كل أسباب العقلانية إلا أن الدولة القوية هي القادرة على أن تفتح لهم أسباب المدنية والحرية والديمقراطية والكرامة الإنسانية بمفتاح العلم

الذي يبدأ من اللبنة الأولى لجيل جديد، وحشد ثقافي معرفي على العالم الخارجى لتكون فاعلين لا مفعول بنا، مجتمع منتج لا مستهلك لإنتاج الغير، مجتمع متفوق علمياً واقتصادياً وسياسياً وثقافياً، نهل من تراثنا ونعطي لأطفالنا لمستقبل أفضل دون تعصب ولا تحجر فكري.

قال الحكيم:

- ما تقول في هذا يا صاح؟

أجاب طاها:

إن تحليل صديقك لأحوالهم في مصر هو تحليل علمي صحيح، لا يبعد كثيراً عما نحن بصدد لرفعة مصر وأتمنى أن أسمع منه باقي الحديث.

- بمجرد أن يرسل لي سأخبرك.

وجاء نادل الروتوند بمربلته الطويلة البيضاء، وصديري أسود تحته قميص ناصع البياض بعقدة بابين أسود جعلت منه ما يشبه حيوان البنجوا البحري. وضحك طاها من وصف توفيق للنادل. وكررا الطلبات مرة أخرى من بيرنو وشيفاز ريجال. وقال الحكيم وهو يخلع البيريه ويهرش رأسه:

- أتيت معك لهذا المكان لأن لي موضوعاً أحب أن أكله معك.

وسعدت عند حضورك للفندق دون سابق ميعاد لأن عندي موضوعاً هاماً أريد أن آخذ رأيك فيه بالرغم من أنني أخذت فيه قراراً.

- إن كان الأمر كذلك فأستطيع أن أوجل حديثي معك ليوم آخر. وما علي إلا أن أستمع إليك في هذا الأمر الجلل الذي كما قلت سيغير مجرى حياتك.

وضع طاها طرف أصبعه في كوب الويسكي حتى لامس طرف سبابته مكعبات الثلج السابحة على وجه السائل والغائصة في قاعه، وجعل يحرك أصبعه في دائرة قطرها الكوب الكرستال المصنع وتحسس شفثيه بسبابته - كمعتادي الشراب عندما تطرق رأسهم فكرة - واستعد للحديث إلى صديقه.

- بالرغم من تعدد معارفنا وأحبائنا هنا في موطننا الثاني باريس إلا أنك الوحيد الذي أثبتته خلجات قلبي.

وضع الحكيم كوعه على الطاولة الرخامية المستديرة وأسند رأسه على طرف أصبعه في وضع المفكر الذي سيسمع تجليات ستهبط عليه وحده، ليكون شاهداً على الحكمة الخالدة لطاها حسين.

- تعرفتُ على عديد من النساء في باريس وفي رحلاتي خارج باريس خاصة عند زيارة صديقي جان بيير بوتيه في البورجوني. وكانت لي علاقة مع ماري تيريز شقيقتها استمرت طيلة دراستي مذكرات ديكارت الخاصة عن فلسفة الشك.

أعرف ذلك، أما الذي لا تعرفه أنت هو مقابلي أمس في سان جيرمان مع فيريدا كاهلو، حيث كانت بصحبة العديد من فناني السوراليزم، وعندما رأيتني جاءت إلي وسألتني عنك.  
- إنها امرأة رائعة.

- وروعتها في أنها لا تتقيد بأسلوب في أعمالها، ولا بالتقنيات الفنية بل باهتمامها بمشاعرها وذاتها كما تخبرها وكما تعرفها بعمق، وهذا هو سر نجاح الأديب أيضاً.  
- وكذلك سر جمال لوحاتها. وأنا ما زلت عند وعدتي لها بدعوته لزيارة مصر.  
أما سواتها الوحيدة فهي أنها متعددة الرجال.

- ومتعددة النساء أيضا!.

- أكمل الموضوع، وبعدها نحكي عن فيريدا.

- إن اهتمام الأنسة سوزان بي وقراءتها المستديمة، أشعل في قلبي عاطفة لم أشعر بها مع أي امرأة أخرى، فهل هذا هو الحب، وهل لي أن أحب من هي ليست على ديني ولا ملتي ولا جنسيتي ولا وطني، وأنا الذي أدرس وأناضل من أجل رفعة الوطن والمواطن.

- لك أن تحب من تشاء وتتزوج من تشاء لأن لا الدين ولا الملة ولا الجنسية ولا الوطن ولا حتى الدم يمنعك من مواصلة ما أنت فيه.  
- وكلام الناس؟!.

- هذه سخافة شرقية نعلق عليها أخطاءنا! وهل فاتحتها في مشروع الزواج؟  
- بالطبع لا.

- وماذا تنتظر؟! هل تنتظر أن أذهب أنا لأخطبها لك؟ كما أراد أن يفعل صديقنا أندريه عندما علم بولهي وحببي وعبادتي لسوزي دي بويه بائعة تذاكر مسرح الأديون.  
- لا.. لا يا صديقي ليس كذلك.

- قال لي أندريه: اذهب وقل لها إنك تحبها، وإن رفضت فلن تخسر شيئاً.  
- أخشى أن أفقدها وأفقد صحبتها.  
- هذا غير صحيح، لأنها إن رفضت الحب فلماذا ترفض العمل معك. إن هذا أمرٌ وذاك أمر آخر.

تجرع طاهها ما بقي من الشراب المثلج لينعش به صدره وقد شعر بفقدان وزنه وخفته حتى كاد أن يطير فرحاً، وتمتم:

- "إن الحب لا يساوي الحب أو الظفر به ولكن يساوي الشوق والحنين والتطلع والانتظار والخوف والغيرة والحرمان والمغازلة والمرادة والهجر والوصل والبعد والقرب".

- هذا ما كنت أشعر به تجاه سوزي دي بويه لكن من طرف واحد. وقلت ساعتها إن ممارسة الحب مع ذاك الملاك هو قتلٌ للحب.

إن جمال الحب وقوته وحياته ونبضه ليس في فعله، بل في الشوق إليه والبحث عنه والخوف عليه.

- إن السعادة والفرح لا يساويان أن تبقى في ذاتك. وأن تتعامل بهما وتحياهما وحدها بل أن تخرج وتهاجر منهما خوفًا ومللاً ورفضًا وطموحًا وشوقًا وتطلعًا ويبحثًا عن الجمال والحب والفرح والسعادة.

- أي بحثًا عن الذات ... أنت كذلك أبدًا يا صديقي لأن البقاء أبدًا في الذات ليس إلا موتًا أو شيئًا أكثر موتًا وتعذيبًا من الموت.

- أتفق معك رغم الكأس الخامس ... وهل يخرج أو يهاجر من ذاته إلا من يبحث عنها ويهاجر إليها مثلنا؟

- وهل تمكن الهجرة إلى الذات أو البحث عنها إلا بالهجرة والخروج منها؟

- وهل تطاق الحياة أو الذات إلا بالصراع ضدها ومعها وفيها ومن أجلها؟

ألقى طاها بظهره إلى الخلف وقال كالمذكور:

- إن خلافي مع الأزهر والأزهريين هي هذه الأسئلة التي لم يصغها العربي. وعندما هممتُ بالسؤال كانت الطامة الكبرى وقُذفتُ بالفسق وبالزندقة والخروج عن قواعد الأخلاق، وحتى بالكفر والإلحاد ... وحرمتُ من الدرس لأني سألتُ،

وليت تقوى شيوخرنا تتحول إلى تقوى أخلاقية.

- ليت وقار الإيمان في الإنسان العربي يتحول إلى وقار في سلوكه ونفسه لأن أنبياء العرب يتعاملون أبدًا مع إيمانهم وليس مع إنسانيتهم!.

- لماذا لم يتحول أي إله أو نبي عربي إلى جناح للطيران؟ لماذا ظلوا قيودًا وأثقالًا؟!

- أنت كثير الأسئلة يا حكيم! إنها أسئلة لم تصبح حتى ولا أسئلة عند العرب .

- هذه هي طامة العرب الأولى، حتى الأسئلة لا تصبح أسئلة عند الإنسان العربي!.

تذكر طاهها الأزهرين وتعاليمهم المؤسفة وقال:

- إن الذين يسألون أو يسألون هم الذين يرون وينكرون ويتعجبون ويدهشون ... أما الثابتون أبدًا في صيغة وعقل وصور وانفعال وتاريخ وقدرة ورؤية وكنينة واحدة فلن يسألوا أو يتساءلوا ...

تنبه الحكيم وأسند ذقنه أو رأسه التي أصابها الثقل على يد عصاته العاج وقال:

- لماذا يسألون أو يتساءلون؟ إن الصامتين في صيغة واحدة لا بد أن يصابوا بالصمت عن كل الأسئلة والتساؤلات!..

- إن الصيغة الواحدة الثابتة ترفض وتنكر وتنافي كل سؤال وتساؤل، إن التساؤل والسؤال ليس إلا تغييرًا وبحثًا عن التغيير ورغبة فيه. فعليك أن تحفظ عن ظهر قلب كل ما يملى عليك حتى وإن لم تكن مقتنعًا به، وحتى وإن كان الملقى غير منته لخطئه.

- حفظنا القرآن والأحاديث والسنة والعروض والتفاسير حتى المعلقة. ولم نتعلم المنطق والبحث والاستقصاء، حفظنا دون فهم ولا تحليل ولا سؤال. نمث عقولنا على الحفظ وماتت عقولنا عن البحث.

- لأن السؤال أو التساؤل لن يكون إلا ارتحالاً أو قدرة على الارتحال أو غربة في الارتحال من الذات والمكان والتاريخ.

- هي رفض للقيود والأغلال التي غزلها ونسجها وفتلها وعقدتها وربطها على الرؤى والعقول والأخلاق والتطلعات والأمانى الآلهة والأنبياء والتاريخ والمنابر والمحاريب والنصوص المقدسة أو المزعومة مقدسة.

واستمر الحكيم:

- لماذا يسأل من لا يريد أن يستطيع أن يتغير أو يفارق أو يرفض أو يقاوم؟

أما طاهها الذي عاش الشك والرفض ليتعلم وليعرف؛ فقد أثقله مشايخه بما لا يطاق وقال لهم:

- لقد جاء كل الآلهة والأنبياء والأديان والتعاليم والمذاهب والانتماءات لتكون رفضاً ومقاومة لكل الأسئلة والتساؤلات. لتكون قتلاً وطرداً وعقاباً وإسكاً لكل من يريدون أن يسألوا أو يتساءلوا..

- أي أن الأسئلة ليست إلا أسلحة تطلقها العيون والعقول والأخلاق.

- نعم ... نعم تطلقها على الآلهة والأنبياء والزعماء والملوك والقواد والرؤساء والمشايخ والسلطين والأمراء وعلى جميع المعلمين والمقنين.

- الأسئلة هي أذكى وأتقى وأفضل وأنفع الأسلحة التي قاتل بها الإنسان في كل حروبه!.

رفع الحكيم رأسه من على مقبض عصاه على وقع خطوات النادل، وتقديم

الحساب الذي أصر على دفعه تيمناً برحلة صديقه عن السؤال والتساؤل والحب  
والمحبة. وتأبط كلاهما ذراع صاحبه وهما بالخروج من محراب الفكر الباريسي  
إلى خضم الشارع الذي لا يهدأ متجهين إلى المنطقة الخامسة سيراً على الأقدام.

obeikandi.com

## الفصل السابع عشر

لم يغفل له طرف. ترك له الحكيم الإضاءة لعلها تهدئ من روعه فيهدأ ويخلد للنوم. إلا أن أرقه أقوى من الإضاءة، ونبضات قلبه تزداد سرعة كلما اقترب من منطقة الخطر الذي كاد أن يفصله عن بعثته ودراسته وحتى عن شكه. هذا الإحساس الخطير الذي لم يتعوده قط ولم يكتب عنه لا أبو العلاء المعري ولا حتى الجاحظ. إن الشرق ناعس أبدًا في ماديته والغرب مستيقظ أبدًا في تخيلاته، يحسبها ويضرها ويجمعها، ليصل إلى مبتغاه إن كان بالرغبت أو القبول. تلك الفتاة التي ملأت عليه حياته وحولته من نافر ومنفور من المجتمع إلى حاضن ومحضون للحياه السعيدة التي تنتظره. تلك الفتاة التي قبلها كان أعمى وبها أصبح مبصرًا يرى الأشياء بعينها ... عرف معها معنى للجبال وارتفاعها والبسط وانبساطها والألوان ومكوناتها، والطير وزقزقاتها والبحر واتساعه والموج وزبده. عرف الجليد وهطوله عرف، دور العرض وما تعرضه. كيف إذاً أن تحرمه من عينيه؟ كيف إذاً أن تعود به إلى الجحيم أو إلى الربع؟ كيف يتقبل أن يعطف عليه المتعطفون؟ اليوم رفع رأسه واستقام عوده، بها أحب الدنيا وأقبل عليها بشغف. ولم يفصله عنها سوى الغرفة المجاورة. هل يذهب إليها ليعلمها ما انتواه أم ينتظر الصباح ليعلمها؟ هل يعلمها قبل الإفطار أم بعده أم أثناءه؟ ولماذا لم يكن إعلانها لها في مكان محايد، في الجامعة أو في مقهاها المفضل؟ ولأول مرة يلجأ طاها إلى الله يطلب منه العون! وقرأ ما قرأ من آيات القرآن إلى أن غفلت عيناه وطار

في حلم جميلٍ إلى أن سمع زقزقة الطيور تعلن عن يوم جديد.

نهض مغبوطاً، سعيداً، خفيفاً، مبسوطاً، مبتسماً، مشرقاً، مغرداً، مدندناً بأجمل الألحان، ذهب كعادته كل صباح إلى الحَمَّام، وحاول أن يكون خفيفاً دون جلبّة لكي لا يوقظ جيران الدور السادس، أو قل لكي لا يوقظها هي على وجه الخصوص. عاد إلى غرفته وهندم من نفسه وثيابه، ولم يمضِ من الوقت إلا القليل ظنه الدهر! حين طرق الباب طارق أنصتت له أذناه وأسقط له قلبه، وارتعش فؤاده وتلعثم في كلمة: ادخل، وإذ "بالبنجور" - أي صباح الخير - تأتيه من خادم الفندق حاملاً إفطاره. ابتسم له وردّ التحية وهبط من عليائه ليجلس خلف الطاولة التي قدم عليها الخادم صينية الإفطار كما تعود عليه طاهها من قطعة الزبد التي لا تتعدى عقليتي أصبعين، وبعض المربي في غلاف لا يتعدى قطره قطر نظارته، وقطعة من الجبن الفرنسي عديم الطعم والرائحة. وكوب من الحليب خالي الدسم مع شريحتين من الخبز لا تسمن ولا تغني إلا إن كانت على "طبلية" الربع. والتي كان يتبارى فيها الإخوة على حجم "اللُقمة" التي سيغترف بها من صحن الفول أو النابت أو حتى العسل المتر.

شكر خادم الفندق واستعد لتناول إفطاره، ولم يستطع أن يمنع نفسه من سؤال الخادم إن كان هناك أحد استيقظ من ساكني الدور السادس. لعل اسمها يقع في مسمعه، فيرضى ويطمئن فؤاده أنها ستأتي إليه ويفاتحها بما نوى. وأتاه الجواب دون أن يقع على أذنيه ما كان يتوقع أو يظن. وظن الظنون: أما زالت نائمة أم مستيقظة؟ أم ذهبت أم متعبة؟

ولم يستطع أن يتناول إفطاره حتى يطمئن على من ستكون زوجته. ابتسم وقال: ما أنت إلا متسرع؟! أليس من الجائز أن ترفض؟ حتى وإن رفضت فليس أصدق

من الحكيم أني لن أخسر شيئاً. نعم ... نعم ... سأخسر نعمة الحديث إليها وسماع صوتها العذب. لكن ماذا بي وهي لم تعرف ما أنا مقدم عليه؟!

ودق الباب، ودق قلبه معه، ولم يتلغثم وتكلم بجدية لا تخلوا من حنوٍ داعياً الطارق للدخول؛ وفتح الباب وسبق الداخل صوته "بالبنجور" صباح الخير. دون حس ولا شعور. وهو كذلك لم يغتم من وجود من ستعيه ذراعها تصطحبه إلى درس السربون دون حديث ولا نقاش ولا كلمة ولا حتى أخبار الطقس.

نظرت إلى طاولة إفطاره التي لم يمسه، وقالت:

- أمامنا الوقت لتناول إفطارك. هز رأسه يميناً ويساراً علامة الرفض، وقام إليها متجهين إلى الجامعة سيراً. وعند مدخل الجامعة لقيه صديقه جان بيير بوتيه. وودع المرأة وسألها أن لا تعود لصحبته بعد انتهاء الدرس لأنهما سيكونان سوياً، واصطحب طاها إلى قاعة الدرس ذات رائحة المطهر النفاذة الذي يطهرون به قاعة الدرس كل يوم، ولم تكن تعودت أنف طاها عليها بعد.

انتهى الدرس بعد فترتي راحة استمع طاها خلالها ما لم يتوقعه من أستاذ يهودي. جمع لهم من فلسفة الديانات ما لم يسمعه من قبل لا في الأزهر "الشريف" ولا في حلقات درس مشايخ الأزهر، ولا بين إخوته وأصدقائهم ولا حتى في الجامعة المصرية. كيف يكون للدين فلسفة هو الذي اعتنق الإسلام بالوراثة، ولم يجمع بين الديانات السماوية وغير السماوية في طبق واحد ليكون هناك درس حول ما هو الدين وما نفعه من ضرره. وما تأثيره على المجتمع والأسرة والدولة. تلك أشياء كانت غائبة عنه رغم سؤاله وإلحاحه في السؤال على مشايخه وعلمائه الأزهريين. هنا في السربون لا نتعلم الدين ولا أصول الدين ولا نحفظ حتى آية واحدة بل نعم ونبحث في معنى هذا الذي يطلق عليه ديناً.

وجده جان بيير في مكانه لم يبرحه. حيّاه وسأل إن كان قد أمضى الدرس على ما يرام. وتجادبا أطراف الحديث، ثم طلب جان بيير إن كان لديه من الوقت متسع لشرب قهوة لاستعادة نشاطه للدرس الآخر. لم يفهم طاها ماذا يقول صحبه. بل عاد إلى ما كان يلقي به أمام عمود درس الأزهر، ويأتي أخوه بعد انتهاء الدرس فيجرّه من كم جلبابه ليلقي به أمام عمود الدرس الآخر، أو يجرحه متعثراً في الطريق إلى غرفة الرّبع ليلقي به على حصيرٍ بالٍ مع كسرة خبز الجراية وذلك العسل الأسود الذي تحول مذاقه بقدرة قادر من حلو إلى مرّ. وها صديقه الفرنسي يأتي إليه بشوشاً يسأل عن درسه، ويطلب منه بكل أدب إن كان لديه من الوقت متسع لشرب قهوة لاستعادة النشاط للدرس القادم، وتقولون له: لماذا أحب وعشق وهوى وفضل وارتاح ووجد نفسه في تلك البلاد الكافرة المسيحية الملحدة العاهرة السافلة الساقطة الداعرة اليهودية المعرّبة؟ ولكنها غير مسلمة، إن كان الأمر كذلك فأفضل أن أكون ملحدًا كافرًا وسعيدًا عن أن أكون مؤمنًا مكبرًا مغمومًا.

وافق صاحبه على الخروج إلى مقهى "لي زي كول" أمام جامعة السربون ويؤمها عديد من المبعوثين العرب والمصريين.

طلب جان بيير اثنين من القهوة الأكسبرسو الباريسية الشهيرة، وسأل صاحبه عن درس اليوم فأجاب طاها بعد أن تحسس الفنجان:

- هذا درس ممتع حقًا لم أكن أتصور أن هناك فلسفة أو عقلاً أو تفسيراً أو شرحاً لماهية الدين!!! رغم علمي بأن الأستاذ يهودي.

- أنت في جامعة السربون يا صديقي، دراستك أكاديمية لا دخل لمعتقد الأستاذ فيما يفسر.

- هذا صحيح، وقد قال الأستاذ: إن العقل البشري إدراكه كله حسي أو قابل للمعاينة والاستدلال، ولا تخرج عن المادة كونها المكون الوحيد والفريد الذي يُشكل وعينا وإدراكنا وليس بالضرورة أن ندرك الأشياء بعيوننا، وأناملنا بل يمكن أن ندركها ونعاينها ونتلمس سلوكها بوسائل مادية ومنطقية تجعل لها حضورًا ووجودًا.

- تلك هي أزمة العقل الديني، أنه تلقى مجموعة هائلة من الغيبيات والخرافات عن طريق التلقين والوراثة، لتعرف طريقها إلى العقل ك معلومة دون أن يتلمسها ويتعامل معها ويجد لها أي وجود أو مدلول أو حضور.

- العقل الديني تلقى المعلومة الميتافيزيقية مع شحنة قوية من المشاعر والعواطف أحاطت بها وحصنتها، وجعلت لها وجودًا وحماسًا يُحسد عليه متلقيها.

- ولكن لا يجب عليك أن تندهش من قوة هذا الاعتقاد بعد أن تدرك كيف تم تصدير هذه النصوص إليه، وأن الأمور في النهاية شديدة الهشاشة تتساقط مع أول معول للنقد، وتلك هي رسالتك سواء عن ابن خلدون أو المعري.

- تلك هي ورطة العقل الديني، أنه يمتلك كمًّا هائلًا من المعلومات التي ليس لها أي وجود في الواقع سواء اليوم أو غدًا ... فبالرغم عن آلاف القصص عن الجن والعفاريت والملائكة والشياطين والبعث بعد الموت والعالم الآخر بجنته وجميمه ... وبالرغم من مئات القصص عن معجزات ووحى وأساطير، فليس لها أي حضور في الواقع ولا يمكن الاستدلال عليها بأية وسيلة مادية. فيكفي أن مدعيها يقولون عنها إنها غير مادية ... فلا تعرف ماهية غير المادية تلك!!! وكيف عرفها المدعي الأول!!!

- ولكن الأفكار الدينية تمثل أماناً وحاجة نفسية لصاحبها ...

- هي هشة أمام أي فكرة ناقدة وشاكة؛ لأنها بالفعل لا تمتلك ما تقدمه سوى الاستفاضة في المزيد من الافتراضات والظنون.

انتهى طاها من فنجان القهوة وكان يداعبه خيال سوزان. وحاول مفاتحة صديقه في أمرها، لكن جان بيير واجهه بسؤال عن تلك المحاضرة الهامة إن كان الأستاذ تطرق إلى الإرهاب والوعيد.

ابتسم طاها وعاد بذهنه إلى قول الأستاذ في ذلك:

- أسوأ منتجات العقل الديني في مواجهته للأفكار الشاكة أن يتعامل بدائية وبداعة.

- هو أسلوب يتبعه المؤمنون كوسيلة احترازية واحتراسية من عذاب يوم قادم ...

- هو يعتقد أنه بهذا كفيلاً بالرد على ما يثار من نقد حول منظومته الدينية.

- فهو يتحصن من عذاب هذا اليوم ويصدره لناقده.

- قد يكون التهديد والوعيد بعذاب يوم قادم موجهاً لنفس المؤمن الذاتية فهو يُرهب ذاته عن الخوض في أمور قد تأتي بالانحراف عن الإيمان مما سيكون له سوء العاقبة.

يذكر طاها ما كان له من مشايخ الأزهر وقال:

- من أحقر الأساليب التي يتعامل معها الديني هو السب والسخرية والتهم ليصيب صاحب الفكر الناقد في شخصه كحالة للنيل منه ... وهذا ما حدث لي بالضبط في مصر.

إنهم متصورون أن أسلوب السباب واللعنات قد تقوض الفكرة الناقدة  
لئسكت صاحبها عن الخوض فيها.

وقال طاها:

- هم يتصورون أن الإنسان ما زال تحت نير العبودية الفكرية القديمة، وأن  
حد السيف المشهور سلاحًا أو سبًا كفيل بالردع، متوهمين بهذا الأسلوب البدوى  
البدائي تُقهر الأفكار.

تنبه جان بيير إلى أن موعد المحاضرة اقترب، واصطحب طاها إلى الدرس  
وهما سعيدان من حديث مثمر لم ينته بعد.

الفصلُ الثامن عشر

لامس كتف طاهها يدًا لم تكن غريبة عنه، بل تعودها وأضحت له ضرورة. ابتسم  
للبيد التي لامست كتفه ولم تنبس بكلمة، وهو كذلك لم يكن في حاجة لأن يتكلم،  
ولا لأن يسمع ولا لأن يرى!!! بل إحساسه كان مزيجًا من كل تلك الأحاسيس  
مجتمعة في تلك اللمسة الرقيقة المحببة إليه. ليست لمسة أمه ولا أبيه ولا إخوته ولا  
أصدقائه ولا معارفه ولا جيرانه، ولا لمسة عطوف، ولا نذير ولا ملاك ولا شيطان،  
بل من المؤكد لمستها هي وليس أحد غيرها وقال:

- هأنت ذا يا أنسة سوزان!.

دهشت!! لأنها لم تنطق بكلمة وقالت:

- هأنا بجوارك. انتهيت لتوي من درسي، وعلمت من جان بيير أنك ما زلت  
في الدرسي.

لهذا انتظرت خارج القاعة حتى يفرغ الأستاذ.

- إني سعيد بوجودك. وهل يوجد أسعد من رجل تنتظره فتاة؟! وأية فتاة؟!

- كيف عرفت بوجودي؟!

- ألم تعرفي أن بوجودك أرى كل شيء.

- أنت تبالغ يا طاهها!.

- لا أقول إلا الحق الذي أشعر به.

- أشكرك على شعورك النبيل نحوي. هل أنت منتظر أحدًا لصحبتك إلى

ما شئت؟

- إن وجودك هو كل شيء بالنسبة لي.

- أشعر أنك تريد أن تقول لي شيئًا ما تخفيه عني!

- نعم!

- هل لي أن أعرف ماذا تخفي عني؟

- لا أخفي شيئاً بل أعلن أشياء.

- وما الذي تريد إعلانه إذًا؟

- هيا بنا نخرج من قاعة الدرس، ونعتذر لجان بيير الذي انتظرني لصحبتني

إلى المنزل.

- لقد تحدثت معه. وطلبت منه أن يذهب لأنه كما تعلم يسكن خارج باريس.

- حسناً ما فعلتِ يا آنسة سوزان. والآن هيا بنا نترى بعض الشيء.

- وستعلن لي ما أردت إعلانه؟!

تأبط يدها وسارا بضع خطوات إلى الجي اللاتيني ... إلى نهر السين، وكانا ينشدان الهدوء على النهر. حاذيا في سيرهما بائعي الكتب المتراصين على سور نهر السين والذي يعج بأهمات الكتب المستعملة. وقع بصرها على كتاب لشارل بودلير، نهبت صديقها لهذا الكتاب، أخرجه الكتاب مما هو فيه. أوقفته وتصفحته الكتاب. وقرأت خلف الكتاب: شارل بيير بودلير 1281-1281 شاعر وناقد فني فرنسي، يعتبر من أبرز شعراء القرن التاسع عشر ومن رموز الحداثة في العالم. حيث حُسب شعره على أنه متقدم ومتجاوز لشعر زمنه فلم يفهم جيداً إلا بعد وفاته. بدأ بودلير كتابة قصائده النثرية عام 1281 عقب نشر ديوانه الشهير "أزهار الشر"، مدفوعاً بالرغبة في شكل شعري يمكنه استيعاب العديد من تناقضات الحياة اليومية في المدن الكبرى مثل باريس.

قالت سوزان:

- سأشتري هذا الكتاب.

- سنشترك في شرائه على أن تقرئي لي أزهار الشرائع التي لم أسمع بها.

واقفت سوزان ونقدت البائع نقوده وتمنى لهما حياة سعيدة.

توقف طاها عند تلك الكلمة وقال لصديقتة:

- أتعقدن فيما قال البائع؟

- هذه كلمات حسن المعاملة التجارية. وهل أنت فهمت غير ذلك؟

- نعم ... فقد تمنى لنا حياة سعيدة سويًا، وهذا على وجه التحديد ما أريد أن

أقوله هل تتزوجيني ونحقق لهذا البائع نبوءته؟

ابتسمت سوزان وقالت:

- تريد الجواب الآن أم بعد أن نقرأ بعضًا من شعر شارل بودلير هذا؟

- إذاً هيا لنقرأ بودلير الآن.

وسارا الهويني إلى أن طالعم الفندق هناك على حافة مرتفعات القديسة سان جونغيفير، فصعدا ودخل كلُّ غرفته، لتعود إلى غرفة طاها ببعض البسكويت والشاي، وقالت له بكل سلاسة وبساطة وبراءة وحب وعز وكرامة وشجن إنها ستجيب على سؤاله بعد إجازة الصيف. اعتبر طاها هذا وعدًا بالزواج. لكنها نبهته إلى أنها تريد التفكير ومفاتيح أهلها وإعمال فكرها، وبعدها تقرر الإيجاب أو النفي بإرسال بريقة له إن كان هناك أمل في ذلك.

صبت له الشاي وقدمت قطعة من البسكوت المفضل له، وشرعت في تعريف بودلير لطاها بقولها:

- يعتبر شارل بودلير (1821--1867)، زعيم الرمزية، أو المدرسة الشعرية

الحديثة، وهو شاعر اللذة والألم، وأكبر شعراء فرنسا بعد "راسين" في القرن

التاسع عشر، صاحب مجموعة "أزهار الشر"، وهي قصائد غنيّة بالصور، والخيال البكر، والعاطفة المتأججة الجاحمة، لها رنة موسيقية عذبة. وعندما ظهر ديوانه "أزهار الشر" شنت الصحف عليه حملة عنيفة أفسحت السبيل لملاحقته قضائيًا. فصدر الديوان بتهمة انتهاك بودلير لحرمة الآداب العامة، وقد برأت ساحة صاحب "أزهار الشر" بعد مرور 92 سنة على تجريمه. لقد كان بودلير يرى في أمه صورة حبيبته، بل كان يرى فيها رمز الطهارة مجسمًا. فحزّ في صدره زواجها الثاني بعد انقضاء ثمانية عشر شهرًا على وفاة أبيه. واعتبر هذا الزواج خيانة له. ونحن نرى هذا الشعور المكبوت في أول أزهار الشر في مباركة المولود:

"لما حُمّ القضاء الذي لا رادَ لحكمه، وخرج الشاعر إلى هذه الدنيا العانية الكليّة برغمه، ريعت أمه، وأخرجها السخط عن طبيعتها فلوّحت للسماء بقبضتها، والسماء رائية لنكبتها.. آه، ليتني كنت قد ولدت وكراً كاملاً من الحيات، ولم أكن والدة لهذا المسخ دون سائر الوالدات، ملعونة، ملعونة بما كان فيها من متاع عابر، تلك الليلة التي فيها حملت بطني العاقر بمن كان ميلاده كلقصاص مني تكفيراً عن أكبر الكبائر".

قرأت سوزان عليه القصيدة التي أثرت في جيل بأكمله، وسألها إن كان قد سجل يومياته؟

أن تقرأ يوميات بودلير، يعني أن ترى الحياة بعين شاعر حقيقي، يكتب كما يعيش ويعيش كما يكتب.. أن تُستلب بالتأملات والرؤى البكر التي قدّر لها أن تصلنا في صورة الدفع الأول، وذلك لأنها نُشرت بعد وفاة كاتبها بعشرين عامًا، ما يعني أنه لم يتح له أن يشدّها أو يجري عليها عمليات تجميل... يتبدى لنا بودلير في هذه اليوميات كأوضح ما تكون الرؤية يفكر ويشك، ويحسم ويتراجع، وينحاز

ويتخلى، ويهجم ويدافع، يمدح ويهجو، يقارع الحججة بالحجة، ويتخذ لنفسه موقعا من كل ما حفل به عصره، قد نشاطر بودلير إعجابه بـ "أدجار آلان بو" أو "أوفيد" أو "فاجنر"، وقد لا نشاطره سخريته من "فولتير" و"موليير" و"جورج صاند"، لكننا نسجل له أنه مارس حريته في قول ما يريد بل وفعل ما يشاء.

يستمتع طاها إلى صوت سوزان ويتعلم منها ما لم يعلم، والتي لا يمكن أن تتاح لمثله إلا في طلب المواد التي كانت مقررة، لقد فتحت سوزان له أبوابا وأبوابا ومواضيع يرح فيها ويرداد علما على علم، في الفلسفة، وفي الشعر، وفي الحياة الباريسية التي لا تتاح لأي طالب مصري آخر بعث إلى فرنسا. تلك الحياة الباريسية الغنية والتي نحن هنا في باريس للتعرف عليها ونقلها - إن جاز ذلك - لبلادنا. لأن البعثة في حد ذاتها ليست بذات قيمة ومن الأسهل أن ننقل الكتب والمراجع إلى بلادنا لدراستها ولكن ليس من السهل بل المستحيل نقل الحياة الباريسية أو الفرنسية من وإلى إلا بالعيش فيها والانغماس في عاداتها وتقاليدها، حتى تكون واحدا فاعلا مجربا باحثا ماهرا فيها. قال لها:

- هذا البودلير شاذ وغريب.

- هكذا عظماء فرنسا.

- ولمن الغلبة؟

- وهل أحد له الغلبة على المجتمع؟!..

- إن النظر إلى عمق الحياة هي مهمة الشاعر الحقيقي..

- ولكن الشاعر لا بد أن يكون إنسانا قبل كل شيء، بما يحمله هذا الإنسان

بداخله من تناقضات صارخة: الحب والكراهية، والصدق والكذب، والخوف

والإقدام، والنبيل والخسة، والغموض والوضوح!...

- إن المواءمة بين الشرط الشعري والشرط الإنساني هي التي تصنع الشاعر الحقيقي.

- إن الأعم لا تنجب العظام إلا مرغمة.

- إذن لن يكون الرجل عظيمًا إلا إذا انتصر على أمته جمعاء.

وبصوت رخيم قالت سوزان:

- الجميل عند بودلير هو شيء ما متأبج وحزين، شيء ما يُفسح المجال للتخمين.. ويجعل من شروطه الغموض والندم، ويضيف إليهما شرط التعاسة.. وهو بذلك لا يزعم أن الفرح لا يجتمع مع الجمال، لكنه يعتقد أن الفرح حلية من أكثر حلى الجمال سوقية، بينما الكآبة هي - إذا صح القول - قرينة الجمال الرفيعة إلى الحد الذي لا يتصور معه بودلير نموذجًا للجمال لا تسكنه التعاسة.

وسنكمل غدًا أو بعد غد حديثنا عن بودلير، أو إن أردت عن شاعر آخر أو أديب آخر.

- أنت معلمة ماهرة. ولأول مرة لا أعلق ولا أشجب ولا أنقد قولًا لك، فأنت

الحق كله والجمال كله، والدعة والذوق والعلم، فماذا يريد المرء أكثر من هذا؟

- قلت لك سابقًا إنك تبالغ يا طاها.

- لا أقول إلا الحق ليس تملقًا ولا تشدقًا.

- أشكرك يا طاها وإلى الغد في قراءة جديدة.

اطمأنت عليه إلى أن رقد أو هُييء لها، وتمنت له ليلة جميلة وأحلامًا سعيدة مع قبليتي المساء على الوجنتين حين يمسي، وقبلتي الصباح على الوجنتين حين يصبح، وقبلتي اللقاء على الوجنتين ساعة التلاقي، وقبلتي الوداع على الوجنتين ساعة الفراق، ما أهنأك يا طاها! أين كانت تلك الحياة المفعمة بالمحبة والسلام

والدعة والكرامة والهناء والجمال والحسن والفرحة والانسجام والانبساط  
والمشاركة، وحب الآخر وحب الآخرين والنشاط، وحب الحياة والكرم والعلم  
والصحة والثقافة، مما كنت فيه يا طاهيا من خشن الحياة وسوء المعاملة والغربة  
والقهر وقلة القيمة والحسرة والوحدة والخمول والكسل والغيرة والجوع والجهل  
والمرض؟ حتى كاد الانتحار يكون سبيل الخلاص.

## الفصل التاسع عشر

" أمامكم مناهل العرفان فاغترفوا منها بكتنا يديكم ... اقتبسوا من فرنسا نور العقل الذي رفع أوروبا على قارات الدنيا. وبذلك تردون إلى وطنكم منافع الشرائع والفنون التي ازدان بها عدة قرون في الأزمان الماضية، فصر التي تنوبون عنها ستسترد بكم خواصها الأصلية، وفرنسا التي تعلمكم وتهذبكم تقي ما عليها من الدين الذي للشرق على الغرب كله! ...".

وتساءل الحكيم مرة أخرى عن وراء هذا:

- قالها ذلك المهندس الجغرافي الفرنسي فرنسوا جومار أحد علماء الحملة الفرنسية في استقباله لبعثة الأنجال التي اصطحبها رفاة رافع الطهطاوي مقرئاً للقرآن وإماماً للصلاة مع البعثة.

قال الحكيم:

- ومر على لقاء الطهطاوي مائة عام وما زلنا لم ننهل من المعين الفرنسي ولم نتقدم مصر قيد أنملة.

ضحك طاها وتهكم على مأساتهم أو مأساة مصر وقال:

- ونحن هنا في باريس ورتاء رفاة رافع الطهطاوي وما علينا إلا الإلحاح في طلب العلم العقلي ونقله إلى بلادنا.

- تعلم يا طاها، حتى في إلحاحنا على طلب العلم الذي تقدمه لنا فرنسا غير

عرفان بالجميل إلا أن بلادنا غير مستعدة لذلك.

- كل جديد يقاوم حتى وإن كان فيه مصلحة البلاد ومنفعة للعباد.

- إذًا علينا قبل النهل من المعين الفرنسي أن نهيء المزاج المصري لتقبل ما هو نافع ومفيد .

- على الشرق ومصر خاصة أن تنسلخ عن المعتقد الديني وأن تؤمن بأن العقل هو محك الحكم على الأشياء وليس الحكم بغيبات الجنة والنار.  
- وليس في هذا لا كفر بالله ولا إلهاد لدين.

- هذا ما فعله أبو العلاء المعري قبل الفرنسيين بقرون، ولذلك ازدهرت العلوم الفكرية والفلسفية والاجتماعية، ووازتها العلوم المعرفية من صناعة وزراعة وطب وجبر وهندسة.

- إذًا تهيؤ الرأي العام المصري لاستيعاب تلك العلوم هو الفاتحة.  
- الفاتحة تبدأ من العلم وليس أي علم بل العلم التحليلي النقدي، الذي يعتمد على البحث والتحليل لا على الحفظ والتلقين.  
- إذًا فدارسنا فاشلة!.

- الفشل ليس في المدرسة، بل الفشل في طرائق التعليم وليس مناهج التعليم.  
- وتلك نتيجة منطقية للسياسات التسلطية، إلا أنه ما لم تتغير الثقافة السلطوية التي تسود المجتمع فإن بعثات الطهطاوي، أو محمد علي أو نحن، لن تكون فعالة في مجال النقلة الديمقراطية المرغوبة لتدشين الدولة العصرية.

- ماذا تقصد بالسلطوية يا طاها؟

- أقصد كما هو معروف في علم السياسة نظامًا سياسيًا يقوم على استحواذ جماعات قليلة من النخب السياسية الحاكمة على السلطة والقوة معًا.

- هذا حديث عن السياسة وليس التعليم.

- لأنك أردت أن تبدأ معي من الصفر، فالصفر في المجتمعات يبدأ عند السياسة!

- والسياسة تبدأ من ممارسة السلطة والقوة.

- لأن بهما يسهل ممارسة القمع السياسي، وحصار الأحزاب السياسية المعارضة ضمناً لاستمرار الحكم غالباً لمدد غير محددة لأن باب تداول السلطة يتم إغلاقه بإحكام عبر إجراءات غير دستورية.

- وكأنا في المجتمع المصري والمجتمعات العربية، أن موضوع الثقافة السلطوية السائدة لم يلق ما يستحقه من اهتمام مع أهميته القصوى.

بل إننا نؤكد أنه ما لم تتغير الثقافة السلطوية السائدة فإن أمل الانتقال من الديكتاتورية إلى الليبرالية لن يتحقق، وسيستمر الحال كما هو عليه لقرون أخرى. - أرى أن هناك ثلاث ظواهر أساسية في المجتمع العربي والمصري بوجه خاص، وهي هيمنة النص الديني على العقل الجمعي، وتهاوت أداء العقل العربي وسيادة البنية الاجتماعية القمعية في ظل ما يطلق عليه المجتمع البطريركي أو المجتمع الأبوي الذي تُمارس فيه السلطة سياسية كانت، أو ثقافية بطريقة مطلقة.

تذكر الحكيم مقالاً آخر يحتفظ به بين الأوراق الكثيرة التي يحملها دائماً تحت إبطه لصديقه عاطف يوسف نُشر في نفس الجريدة السكندرية عن رفض الأبوة وقرأها على طاها:

أنت لست أبي!

تكم مصر أنفاسها صعوداً وهبوطاً، وتفرز حبات عرق الصحة والعافية على

جبينها، وقد متّعها الرحمان بتوأمين ولد وبنت، سبحان الله، الخالق الناطق أبوهما الذي سيعلمهم الأدب والأخلاق والحكمة ليظلّا تحت يده ورحمته ويعيد ويزيد دائماً على مسامعهما كباراً "لولاى لما جئتما".

التوأمين كبرا وأصبح لهما باع في الثورات، وليسا في حاجة إلى حكمة ولا الحكم الأبوي الديكتاتوري المتسلط باسم الأبوة. أجيال مرت على مصر وشاخت الأبوة، وهم ما أوصلوا مصر إلى ما هي فيه الآن من علل الفقر والمرض والجهل. وما زالوا قابضين بأسنانهم على حكم مصر، ومقاليد البلاد حتى النفس الأخير. ويحللون تحاريفهم بمجلس شيوخ. يخشون الشباب، يهابون الدماء الجديدة المتدفقة في سرعة الرياح العاتية. مرعوبون من الخطأ والصواب. أما أخطاء عواجز الدولة فهي نجاحات، وعلى الشباب أن يفخر بها، وأما نجاحاتهم - إن وجدت - فهي مقدسات لا يجب المساس بها. إنجازات الأب والرئيس والزعيم والقائد الملهم لا معادل لها ولا معقب عليها. آياتٌ ربانية نستبح بها ونستغفر القائد الملهم على ما من به على البلاد والعباد من بنات أفكاره الربانية.

الرئيس المصري هو الأب الروحي للعباد. هو الديكتاتور المبجل، هو الفاشي الملهم، هو الحاكم باسم الرب والأرض ومن عليها له ولأولاده من بعده. في شرع من يتهافت الشعب المصري على رئيسه أو قائده أو معلمه أو شيخه أو مدرّسه أو قسيسه بهذا الشكل الذي يعفر جبينه التراب. هذا المجتمع الأبوي الديكتاتوري البطريكي يرفضه التوأمين اللذان تعلما أن يرفعا رأسيهما، وأزاحا رئيسًا وعزلا آخر. أزاحا الخوف والرعب من على كاهلهما، ولم تنطل عليهما فكرة الرئيس الأب، والحاكم الأب والقائد الأب، والمعلم الأب والشيخ الأب والقسيس الأب. الشعب المصري وُلد من جديد، يتطلع إلى سلاح العلم رافعاً رأسه يفلح أرضه

ويبني مصانعه، يدشن أسطول المدارس والمعاهد والجامعات ودور البحث بسواعد شابة ذكية قوية بروح عصر مقتحم حرّ أبي بعيداً عن آباءه، وعن مجتمع الأبوة الذي نبجله ونرحمه من عناء سنينه التي هدته. ليحمل الشباب شعلة التقدم ويمحو عار سنين الدعم والتسول من هنا ومن هناك. ويصبح الرئيس القادم لمصر برتبة موظف على رأس الدولة يديرها بمجموع الشباب البرلمانية والوزارية طبقاً للقواعد الديمقراطية الصحيحة، محل المجتمع الأبوي لأنه لا الرئيس ولا القائد أبي!

وبعد أن أثنى طاها على المقال واصل حديثه:

- يمكن القول أولاً إن المجتمع العربي يتسم بسيادة روح التدين بين الجماهير الشعبية ويتسم بسيادة روح التدين بين النخب الفكرية علي السواء، مما يجعل للنص الديني سواء في ذلك القرآن الكريم أو الأحاديث النبوية مكانة مركزية في الوجدان العربي.

- نعود إلى ما قلته يوماً من أنه نتيجة لعوامل سياسية وثقافية شتى تحولت النظرة الوسطية للدين - والتي كانت سائدة - إلى نظرة متطرفة، نتيجة تشكل جماعات دينية متشددة اتخذت من الماضي مرجعية لها وأعلت من شأن النقل على حساب العقل.

- وأكثر من ذلك أنها استخدمت آلية القياس الخاطئ والتفسير المنحرف لصياغة مذاهب دينية تشجع على الإرهاب ومعاداة الآخر.

- ومن هنا تبدو أهمية صياغة سياسة ثقافية تهدف إلى وضع النص الديني في موضعه الصحيح؛ من خلال التأويل السليم له بما يتفق مع روح العصر. وإلا فلن يكن لوجودنا معنى في بلاد الفرنساوية.

أما الحكيم فله رأي في العقل العربي إذ قال:

- إن العقل العربي يحتاج إلى تحديث لأنه عقل ساكن، هيمن الجمود على جنباته، كما أنه يحتاج إلى نقد جذري، يكشف عن الأنظمة المعرفية الأساسية التي يقوم عليها.

- هناك خلط في المفاهيم المعرفية لدى المجتمع العربي، إذ نجد على سبيل المثال جماعات سياسية تُعلي من شأن العقل، في حين أن جماعات أخرى كالصوفية تُعلي من شأن الإلهام والكشف، ونجد كذلك جماعات ثلاثة تشبث بحرفية النصوص بالرغم من مجافاتها لروح العصر.

- وقد أدى هذا الخلط إلى تشوه الوعي الاجتماعي والفكري للجماهير العريضة. أما ظاهرة سيادة المجتمع الأبوي حيث النخب السياسية الحاكمة التي تشبث بالسلطة المطلقة وترفض الدخول في حوار حقيقي مع جماعات المعارضة . كما نجد أيضًا ممارسة للسلطوية الثقافية عن طريق جماعات تريد الهيمنة على العقل الجماهيري باسم الدين .

وتأمل طاها في مجلسه لارتفاع الضوضاء حوله من رواد المساء في مقهى فلور المفضلة للحكيم وقال:

- وخلاصة القول أن التحليل الثقافي للمجتمع المصري والعربي المعاصر، والذي يكشف عن هيمنة النص الديني والممارسات العقلية المعيبة، بالإضافة إلى هيمنة الثقافة السلطوية الأبوية يكشف لنا أهمية التصدي لهذه الثقافة إذا أردنا تحولاً ناجحاً من الديكتاتورية إلى الديمقراطية، ومن التخلف إلى التحضر، ومن الجهل إلى العلم، ويجعل لبعثتنا معنى وقيمة وقيمة مضافة أيضًا.

## الفصل العشرون

أوصله الحكيم إلى باب الفندق. استقبله الحارس بنصف عين ... سلمه رسالة وهو يتنأب ... يعرف جيدًا طريق المصعد. ضغط على الزر السادس ... تفكر... من يا ترى باعث تلك الرسالة؟. الحارس نصف نائم ... لم يرغب في إزعاجه ... دخل غرفته وهو متأكد من أن الضوء يملؤها. سعد بتلك الفكرة ... تحسس سريره بحذر. وضع الرسالة على الوسادة.

عاد من الحمام منتعشًا ... وتساءل: هل تلك السعادة لأني تحدثت مع الحكيم بشأن البلاد؟ أم بسبب تلك الرسالة؟ أم من مشروب الشيفاس ريجال؟ أم لأن الضوء يملأ الغرفة وضحك وسعدت معه الدنيا. استسلم لنوم هادئ، لم يتذكر كم لبث نائمًا، والذي كان متأكدًا منه أن تلك الليلة مرت بسلام. لم يكن فيها ما ينغص عليه أفكاره، ولا ما يلوث به نفسه من المقارنة الدؤوبة بين ما كان عليه وما هو عليه الآن!!! وبين ما مصر عليه وما يتمناه لها! القرية التي أعمته، والإخوة الذين أنكروه، والأزهر الذي أهانه بالعمى، وبالْحاحَة تارة، ونقده الدرس مرات، لكنه في هذه البلاد لا يشعر بعجز ولا بعمى، بل هو كامل الأوصاف يشغل وقته بين الدرس وتحصيل العلوم والأصدقاء من الجنسين، يلهو معهم ويستمتع إليهم ويستمعون إليه ... إنها دنيا كاملة له ما له فيها من حقوق، وعليه ما عليه من واجبات ... غفل ... ونام.

زقزقة العصافير تبدأ في الرابعة والنصف صباحًا ... اليوم هو الأحد ... لا

دراسة، ولا جامعة ... أعاد الغطاء على جسده واستسلم للنوم. استيقظ على نقرات أصابع خادم الفندق على الباب بالإفطار ... هب سعيدًا مغردًا، وكأنه طفل مسرور ... قدم له صينية الإفطار الكونتنتال مع كرواساه بالزبدة، نفذت راحتها إلى خياشيمه وشكر الخادم. إلا أنه استوقفه قليلا ليقراً له تلك الرسالة؛ فضها الخادم وقرأ بفرنسية صحيحة:

"عزيزي طاها اليوم الأحد وأعرف أنك لن تذهب إلى السوربون اليوم. فعزمتُ أن ألتقي بك لنذهب سوياً لقداس الأحد في كاتدرائية نوتردام القريبة من الفندق، أو إلى أي مكان تفضله، أما أنا فأفضل أن أكون بصحبتك. سأمرّ عليك هذا الصباح في التاسعة ... سأكون سعيدة إن تنتظرنني؟".

إمضاء فيريدا كاهلو

شكر طاها الخادم، واستعد للإفطار السعيد ... نام مغتبطاً، واستيقظ فرحاً، والسعد ينتظره. الدور السادس عادة يسكنه الطلبة، وبعض من جنسيات عمالية أخرى كالإسبان أو البرتغاليين، وكلهم يتسابقون للحديث مع طاها؛ لوده لهم وتواضعه معهم ومعاملته الريفية الكريمة مع الجميع. مما شجع الكل على طلب ودّه خاصة عندما وصل إلى مسامعهم أنه يُعد لدرجة الدكتوراه من جامعة السربون. وهذا شيء عظيم لعامل أجير أن يكون صديقاً لقامة اجتماعية مرموقة، حتى وإن كان أجنبيًا. اليوم الأحد والكل لا يعمل، والزيارات تبدأ مبكرًا والأطفال بملابسهم النظيفة المكوية وأحذيتهم اللامعة، والنساء والرجال يستعدون بملابس يوم الأحد للخروج إلى الكنيسة، وتسابق الحيران لدعوة طاها لكي يأتي معهم إلى الكنيسة لحضور قداس الأحد. وردهم طاها بأدب جم، لأنه على ميعاد، وشكرهم فضلهم وودعوه على أمل اللقاء، وتمنى لهم قداسًا مباركًا. جلس يستمع إلى المذيع

وإلى نشرة الأخبار التي تأتي كل ساعة، وأحاديث الصحافة وحتى آخر صحبات  
الموضة والبارفان بالرغم من أن فرنسا خارجة لتوها من الحرب. إلا أن ذلك لا  
يمنعها من البهجة والجري وراء سباقات الخيل والسيارات والرياضة والجمال،  
وبناء فرنسا الحرة من جديد بإرادة قوية وعزيمة فولاذية بعد أن هدمت الحرب  
مؤسساتها ومصانعها وأحرقت زرعها. لكن المذيع يذيع البهجة والنشوة والقوة في  
قلوب الفرنسيين؛ لينهض بعزائمهم لبناء البلد بأيدي من تبقى من شباب فرنسا  
الذي استبسل في حرب لم يكن له فيها ناقة ولا جمل.

أعلن الراديو العاشرة صباحًا ودق الباب، وكان عطرها يسبقها إلى أنفه ...  
إنها فريدا كاهول. وطلب إليها الدخول ونهض ممشوقًا لاستقبالها مرحبًا، وطبعت  
هي قبلي الترحاب على خدي طاها الذي ابتسم من جانبي شفتيه ولمحت ذلك  
فيريدا، واعتبرت ذلك استحسانًا فضمته إليها أكثر وأكثر فزادت ابتسامته،  
وسألته:

- علام تضحك؟!

- لأنني لم أكن أتوقع أن تأتي إلي صديقة بحجمك إلى غرفتي لتقضي الأحد معي.

- أتيت إليك لأنك طاها الصديق وليس طاها العالم، ويوم الأحد مقدس لنا

في المكسيك نحجزه لأفضل رفيق.

- أنت تعلمين أنني لست مسيحيًا.

- أعرف أنك مسلم، والمسلم يذهب إلى بيت الله. والكنيسة بيت من بيوت

الله والمعبد كذلك.

- هذا حق، والمسلم لن يكون مسلمًا إلا بالاعتراف بالفضل والهوية والإقرار

والإيمان والحب والافتناع بكل الرسائل السماوية. لكن لماذا لا تذهبين إلى

كنيسة الساكري كير القريبة من سكنك في مومارتز؟

- لا أضع قدمي في تلك الكنيسة التي ناصرت اليمين ضد الثوار الفرنسيين أثناء الثورة الفرنسية.

- ليس هذا سببًا كافيًا لكي تهجري بيتًا من بيوت الله!.

- هنا يجب أن أقف موقف المناضلات بجانب جماهير الشعب الذي انتفضت من أجل ثورته التي كانت درسًا للعالم، يشرب من معينه حتى اللحظة.  
- حتى الدين.

- نعم إن استغلّ سياسيًا. انظر إلى العالم العربي الذي وحدته الأرض.

قال طاها وهو يعاود ابتسامته من جانب شفتيه:

- وحدته الأرض وفرقتها السماء بين شيعةً وسنة، وعلويين ومحمديين، وأنصار وخوارج... إلخ.

- إذًا فلنذهب إلى كاتدرائية نوتردام القريبة من هنا. خاصة أي أعرف القس الذي سيؤم الصلاة اليوم. وأنت كذلك تعرفه، كان في يوم افتتاح معرض القصر الكبير وقدمته إليك، لأنه رسام ماهر أيضًا.  
- نعم ... لم أكن أتوقع أن يكون قسًا ورسامًا!  
- هنا باريس!

اصطحبته بعد أن تأكدت من أنه على أحسن حال كما يجب أن يكون، وتأبطت ذراعه، وعبرا شارع كاردينال ليموان، وكذلك نهر السين، وإذ بهما أمام الكاتدرائية. وكانت تلك أول مرة يدخل فيها طاها تلك الكاتدرائية. أشارت عليه فيريدا أن يرفع القبعة، وأشارت بعلامة الصليب على صدرها، وركعت، وكان صديقها القس في استقبال المصلين وقدمت طاها إليه، وقد تذكره من الوهلة الأولى، وشدّ على يده بكلتا يديه مرحبًا. وعرجت يسارا لتوقد شمعتين وهو

مندهبش من تلك الطقوس! وعلق قائلاً:

- إن هذه الكنيسة كبيرة جداً ومرتفعة السقف جداً ومتسعة الجدران. ضغطت فيريدا على ذراعه امتناناً لذكاء صديقها الذي رأى ما رأى عن طريق صدى الصوت، وقوة حسه السمعي وتحليله لكل ما حوله في لحظات لا يستهان بدقتها. وبدأ زحف المؤمنين على صلد الكاتدرائية ذات العُد والبنيان المتين. ورائحة البخور عبقت المكان، وشاهد طاها من خلال رائحتها العطرة مقام السيدة الطاهرة في قاهرة المعز. وتنغمت آلة " الأورج " بألحان عذاب تحدر الحس وترفع الروح إلى أعلى المكان الطاهر. وبعد تلك المقطوعة المخدرة تنحنح القس من خلف المذبح المقدس مرتلاً داعياً إلى المحبة والسلام. وأعلن القس ما لم يكن يتوقعه على الإطلاق. أن أذاع القس بأن "معنا اليوم في ذلك المكان الطاهر هدية من السماء لرجل عظيم حابي الرب به هذا المكان، وهو السيد طاها حسين جاء من مصر أرض السلام فلنرحب به"، احتضنت يد كاهلوي يد طاها وهو ذاهل من تمتات الناس، وطلبت منه أن يرد تحيتهم بإيماءة من رأسه، ففعل وهو متغيب عما يدور من حوله.

انتهى قداس العاشرة صباحاً، ووقف بجوار باب الخروج بين القس وكاهلوي لوداع المصلين، ومرّ العديد من أمامهم يصافحون طاها ويشكرون الرب على هديته لهم.

سار طاها وفيريدا في اتجاه معام المدينة الشهير "أوتيل دي فيل" أو فندق المدينة، وهو مقر حاكم باريس. والذي أطلق النار فيه على سفاح الثورة الفرنسية رويسبير، وكسر فكّه واقتيد إلى السجن، حيث تجرع من نفس الكأس الذي طالما شرب منه الفرنسيون، وأعدم بهبوط المقصلة على قفاه، وفصلت رأسه عن

جسده، وكانت تلك آخر قطرة من دماء الفرنسيين التي طالما شربت أرضها منه، وبدأ عهد جديد للثورة الفرنسية. هكذا كانت تتحدث فيريدا وهي متأبطة ذراع طاها، وأثنى عليها ولعها بالتاريخ الفرنسي.

جال حول ذلك المبنى ليعلم طاها كم هو كبير، وذكرت له أسماء العديد من التماثيل التي تزين المبنى، وهي لحكام المدينة من كل العصور. تخطى شارع ريفولي الموازي لمبنى البلدية في اتجاه شارع الأرشيف الذي أحرقه النازي لمحو شخصية باريس من الوجود، إلا أن الباريسيين كانوا أكثر ذكاءً وأعلنوا الأسماء الفرنسية المستمدة من القديسين الفرنسيين، وانتهى العد إلى ثلاث مائة وستين قديسًا، وعلى كل مولود أن يختار من ذلك التقويم اسمًا فرنسيًا، إلى أن أعيد أرشيف باريس من جديد، واستمر العمل بتلك النتيجة إلى الآن. اعتقد طاها أن صديقتها الرسامة عالمة بدقائق أمور باريس، حيث قالت دون اكتراث منها:

- تلك معلومات عامة علينا الإلمام بها.

- كنت أظنك رسامة فقط.

- وما يعيبي في أن أعرف عن باريس كل شيء؛ لأضع لمسات الفرشاة على روح باريس وليس على جسدها فقط.

وجد طاها في تلك المرأة الكاملة كل معاني الحياة التي لم يطعم عليها لا في الأزهر ولا في حيه الشعبي ولا في الربع ولا في قريته، ولا حتى في جامعة السربون. وآمن أن الجامعة ليست المبنى بل الحياة في طرقات باريس، وصدقت فيريدا على قوله، وتذكر هو صديقه الحكيم وقال لها:

- تعرفين صديقي الحكيم حدثني عن صديق له سيأتي من المستقبل، وقد أتى إلى باريس ليدرس في جامعاتها، ودرس خير دراسة في مجالات اللحوم والخمر

والجبين والخضار والألبان، درس في سوق باريس وتخرج فيها معلمًا من معلمي باريس الفسيحة ليعلم للعالم أن باريس هي ملك للإنسانية.

قالت فيريدا باهتمام:

- وهل تعرف هذا الشخص؟ لأني أحب أن ألتقي به.

- لا، للأسف لم ألتق به، بل وعدني الحكيم بأن نلتقي قريبًا وسأخبرك بذلك في حينه.

- الحكيم رجل مهذب، وملتقي كثيرًا في مونترتر.

- أعرف ذلك فهو يسكن بجوارك.

- هو دائم الحديث عنك، وعليه أعرف كثيرًا عنك.

- أتمنى أن تعرفني كل خير.

- أنت الخير عينه، وإلا لم أتأبطك الآن وأسعد بصحبتك.

- أشم رائحة ليست غريبة على عقلي.

- نحن نسير في الحي اليهودي، وتلك مأكولات اليهود ذات الرائحة النفاذة التي تُسيل اللعاب.

- هي كذلك، لكن تلك الرائحة ليست غريبة بل هي رائحة الفلافل المصرية دون شك.

- هي كذلك، وتلك محلات صغيرة تباع سندوتشات الفلافل بالطحينة والسلطة أو الباذنجان.

- فعلاً هي مسيلة لللعاب هيا نأخذ شريحتين.

- هيا بنا!

- أعتقد أن هناك مارة كثيرين يظهر من زحفهم.

- نحن الآن أمام الدكان الصغير.
- بل هناك ازدحام ! هل سنقف في كل هذا الطابور؟
- نعم لتذوق أكلاتكم الشعبية المصرية.
- وهو كذلك.

وبدأ لغط الناس خلفهم، مما يشير إلى أنهم في وسط الطابور، وقد قطعوا شوطاً للحصول على تلك الشريحة الشهية. وسارا في الشارع الضيق يقضون اللقيات متسارعين في الأكل كطفلين سعداء بأشهى المأكولات التي توحشت طاها، وكان يظن أن عهده بالفلافل قد انقطع.

كاتدرائية نوتردام - باريس

## الفصل الحادي والعشرون

قام من مضجعه. توجه إلى باب الحجرة. حيث مفتاح النور على يسار الباب. ضغط عليه إلى أسفل للاطمئنان أن لا ضوء في الغرفة. عاد يسلم نفسه إلى مضجعه الوثير. حاول النوم. لم يداعب ولم يثقل النوم عينيه. أسلم عقله وروحه إلى أحلام اليقظة. تذكر يومه. ابتسم في سرور. مر اليوم وأيام آخر كصور متحركة يربط بينها رابط واحد. لم يعهده من قبل، وهو هذا الشخص القادم من المستقبل. لا يخالجي أدنى شك في الحكيم. ولا في أقواله ولا أفكاره ولا عاطفته ولا إحساسه بنفسه وبالزمن أيضاً.

قال له عاطف:

- ألم يصل إلى علمك ما يفعله الإخوان المسلمون في مصر الآن؟
- طبعاً أقرأ الجرائد يومياً، وأسمع المذياع كل ساعة. نحن نبني وهم يهدمون، نحن نصلح وهم يفسدون، نحن نتطلع إلى المعرفة وهم يتطلعون إلى الجهل. نحن نطمع في العلم وهم يطمعون في السلطة.
- كل هذا صحيح، أما الأbesch فهو استخدام الأطفال والنساء وأولاد السبيل كدروع يراهنون عليها لصدّ المدنية والتقدم وللحاق بعصور الظلام!...
- إنهم لم يخرجوا بعد من عصورهم الوسطى.
- يقدمون أطفالهم للموت حاملين أكفانهم ليكونوا خادمين لهم في الجنة.

- تلك الجنة التعيسة التي يعملون من أجلها، وهؤلاء الغلمان البؤساء يعملون على راحة الكسالى الخاملين في الجنة ... يا لها من حياة بائسة.

- لقد قال آخر الأنبياء: إن الإله أعد ما هو أجمل من الخيال لأصفيائه وحكائه في الجنة غلمانًا يهابُ ويخجل كل الجمال أن يواجهه أو يرى أو ينافس شيئًا من جمالهم.

- لهذا يقدم الإخوان أولادهم على مذابح الإله قربانًا؟

- نعم لأنهم أي الغلمان مخلدون في غلاميتهم. وأن يكونوا عبيدًا وخدمًا أبدًا، ويكونوا لهواً وفرحاً وحباً وضحكاً وسعادة لسكان الفردوس من النساء والرجال الكسالى السكارى الخاملين المسترخين العاطلين من كل عمل؛ ليارسوا فقط الجنس والسكر والكسل والأكل والبلادة والبله والتثاؤب والنظرات المتبادلة التي لا ترى أو تقرأ أو تفهم أو تتساءل أو تتعجب أو تندهش أو تُنكر أو تخجل !!

- وهل من أعمال أخرى لهؤلاء الغلمان في الفردوس؟

- إن كل أوقاتهم يزينون ويغسلون ويمسحون وينظفون ويعطرون مضاجع سادتهم وممارساتهم السريرية. ويظلون طائفين عليهم بالكؤوس، بل واضعين الكؤوس في أفواههم !! وكذلك يرقصون ويغنون ويهتفون لسادتهم حين ممارساتهم السريرية تحريضًا وتقويةً وشحنًا لأسلحتهم!

- ألم يفهم أو يفسر هؤلاء المسلمون من الإخوان أن الإله في آيته محبٌ متغزلٌ في الغلمان؟

- إن جميع مجانين الغرام لا يستطيعون منافسة الإله في تغزله بهم.

- تلك هي إذًا دعاية للفردوس فاتنة الإغراء لدى المصابين بحب الغلمان؟

تنبه طاها إلى أن هؤلاء الغلمان وأوصافهم والرواية عنهم إنما جاءت باللغة العربية في الكتاب المقدس العربي، الذي أنزله الإله على نبي عربي مغرباً ومخاطباً به الإنسان العربي أي أعضاء وشهوات الإنسان العربي.

قال عاطف:

- أي أنه إن لم يكن العرب مرضى بعشق الغلمان لما كان لحديثه عن غلمان الفردوس أي معنى ... ولكن كيف لم يغضب ولم يثر ويحارب ويمنع العرب هذا الاتهام؟

- لأنهم حاملون كسالى يعجزون عن أن يملكوا شيئاً من مشاعر الغضب أو الثورة أو الفجيعة أو الاحتجاج، فكيف بالمقاومة ومنع أطفالهم أن يكونوا قرباناً أو يحملون الأكفان؟

- كنت أتمنى أن لا يقرأ "ماكين" السناتور الأمريكي كتاب العرب المقدس لئلا يفظن إلى هذا الاتهام، وذلك الخمول في بدن وفكر وعقل الإنسان العربي. عليك أن تفهم يا صديقي أن الإله ستار، وهو في الحقيقة فضّاح للعرب! وأن حبه لم يكن إلا فضحاً وهجاءً لمن يجب! لهذا لم يفضح أو يهجّ قومًا مثلما فضح وهجا العرب، لأنك - أي الإله - لم تحب ولن تحب قومًا مثلما أحببت وتحب العرب، لهذا جعلت كتابهم ونبيهم إغاءً لكل الكتب والأنبياء...

قال عاطف:

- هل عرف العرب أو أحد منهم أن الإله وخاتم أنبيائه محمدًا النبي العربي قد اتهم العرب بقصة الغلمان، وهذا أقسى وأندل وأوقح وأقبح اتهام؟

تلقت طاها يميناً ويسارا، واستطرد في حلم يقظته:

- يا للهول إن لم يكونوا قد عرفوا! وويلي من عارهم وهوانهم وصبرهم وتقبلهم إن

كانوا قد عرفوا ثم ظلوا أصدقاء لمن وجه إليهم هذا الاتهام النذل.  
- ومن ثم لم يعلنوا كل الحرب بكل فنونها على الإله وخاتم أنبيائه الذين أُلصقا بهم هذا الاتهام البذيء.. أو لم تتعذب الإناث من العلاقة بين الغلمان ورجلهن؟!  
- ذكور الفردوس يختلون بهؤلاء الغلمان في خلواتهم الشهوانية، وحول سرهم وهم مثقلون بحليهم وأصباغهم وجمالهم الغلامي، وبكل تعبيرات ومعاني غلاميتهم  
... و...

وكذلك مع إناث الفردوس وحوهن خالياتٌ بهنَّ خالين بهن ...

ضحك عاطف متخيلاً الشيطان قائلاً:

- يا لها من علاقات تصنع للشيطان كل الفرح والسعادة والمجد والانتصار  
والآمال الحيدة برفضه دخول الفردوس! ألم يتصور صانع الفردوس كم سيصيب  
ذكور وإناث الفردوس من عذاب الغيرة وجنونها.  
- أضع سؤالك كالآتي: "هل يمكن أن يُتهم الإله والنبي محمد اللذان بشرا بهؤلاء  
الغلمان بأنهما لم يتصورا عواقب ذلك؟ أو بأنهما تصوراها؟ وأي الاتهامين أقبح؟  
- الإله والنبي يعرفانه ومع ذلك يصنعانه ويبشران به.

انتبه طاهها أن صديقه جاء ليحدثه عن الثورة أو الهوجة أو الانتفاضة، أو  
التهريج أو الانقلاب أو الانفلات في مصر وقال:  
- أليس محتملاً أو محتوماً أن تتفجر في مصر كما في الفردوس ثورة لا مثيل  
لغضبها ونقمتها وقوتها؟ يفجرها هؤلاء الغلمان وكثيرون آخرون عاطفون عليهم  
وعارفون بمأساتهم عاجزون عن غفرانها وعن تحملها ورؤيتها؟ أقول لك إذا لم  
تحدث أو لم تحدث هذه الثورة فلن يكون لذلك تفسيرٌ غير بلادة وهوان سكانه!  
- إني أقف على شكك مصداقاً أننا لا بد أن نتعذب ونقاسي من الفجيعة،

حين نجد أو حتى نتصور أن الإله العربي والنبى العربي قد صنعا أو تقبلا أو حتى تصورا مثل هذا المجتمع الفردوسي ورأياه أعلى نماذج الجمال والخيال والفن والحب والسعادة مسكونًا بالكسالى والسكرارى الذين لا يعملون أي شيء أو يفكرون في أي شيء، أو يطالبون بأي شيء، حولهم غلمان محلون ومزنيون بكل زينات الجسد المحرصة على الغواية والندالة والوقاحة والتفاهة والبذاءة، وفي أيديهم الكؤوس لصبوها في أفواه هؤلاء الكسالى السكرارى المطروحين على الأرض والسرر من الخمول والخمود والتبلد والعطل والفراغ البليد القبيح.

- آه يا إله العرب ويا نبى العرب كم أنتم هجاء إن فضائح للعرب!!! أما ما بُلي به العرب فهو أقبح من ذلك الفردوس، وهي عملية إخصاء العقول العربية والأخلاق العربية والرؤى والتصورات وكل المعاني الإنسانية. وهل نأسى ونخجل لأن أمتنا العربية هي أول من أجريت عليها هذه العملية الإخصائية؟ إن أبشع فنون الإخصاء هو إخصاء المعاني الإنسانية وليس إخصاء الأعضاء الجنسية. ليس كل البشر محصين هذا الإخصاء بدرجات متفاوتة؟

- لقد أتيت إليك الآن يا مفكر العرب لأقول لك إن العالم الإنساني كله حتى غير المتحضر منه يعمل ويفكر، ويحاول بكل قدراته وإمكانياته وتمنياته إكرام واحترام وحماية الأطفال أي الغلمان بكل الوسائل والأساليب واللغات والتعبيرات... لا أن يقدمهم للشهادة كما يفعل الإخوان المسلمون.. بل.. الإخوان المجرمون.

- لأن إله العرب ونبى العرب خارجان على كل معاني الإنسان وقيمه.. ليس إله العرب ونبى العرب قد رأيا وقررا وأعلنا وشرعا ونفذا بكل الوحشية والندالة والقبح أن يكون الغلمان أي الولدان أي الأطفال خدماً وعبيداً لغرف وسرر مضاجع ومشارب وملاهي همج العقول والإيمان والأخلاق والرؤى والتصورات؟

- لا أتصور قسوة وعدواناً على الطفولة مثل عدوانكما وقسوتكما هذه. كيف  
يصمت العالم على ذلك؟

- لا بد أن تتساءل: هل العرب يعرفون أو يقرءون أو يسمعون بقراءتهم  
أو بمعرفتهم أو بالاستماع إليهم؟ هل من يسمع أو يقرأ للإنسان العربي أو يراه أو  
يخاطبه يُعد سامعاً أو قارئاً أو رائياً أو مخاطباً؟ أليس العرب هم الكائنات المتفردة  
التي لا تقرأ أو تسمع أو تفهم بالقراءة أو بالاستماع أو بالفهم؟! أي التي لا تحسب  
قراءتها أو الاستماع إليها أو الفهم لها قراءة أو استماعاً أو فهماً؟

- إن أحدًا في التاريخ كله لم يُهن معاني الطفولة، وإن أحدًا في المستقبل كله لن  
ولم يهنها مثلما أهانها إله العرب ونبى العرب والإخوان العرب. ويسترقان الطفولة  
سلوكًا وتعليماً .. إن منظر العرب في الفردوس مع نبيهم أليم وقبيح لا يستطيع  
أن يتقبله أو يغفره أو يقرأه أو يسمعه أو حتى يتصوره إلا الإله والنبى العريبان  
..العريبان جدًّا؟

- لم أفاجأ بالثورة في مصر، وأن نناضل لنمنع إله العرب ونبيهم من أن ينفذا  
فيها هذه الوقاحة ... من أن يحكما عليكم بأن تكونوا وتظلوا أبداً خدماً وعبيداً  
وسقاة في ملهائم الدميم البذيء الوقح المسمى فردوساً... نعم، إنّا لنعدكم أيها  
المصريون الذين لا مثيل لمأساتهم بأن ننقض هذا الحكم الذي حكم به الحماكان  
البدويان: الإله والنبى العريبان.

قال طاها بأسى:

آه يا إله العرب ونبى العرب، ليتكما لم توجدا، إذًا لجا افتضح العرب وعارهم  
أقل أو أخفت صوتاً ... أليس أقبح القبح أن يكون للقبح لسان؟!!

- تريد أن تقول أن أنبل وأتقى النبوات والزعامات والقيادات العربية هي التي تُخلق بلا ألسنة؟

- بل أصرح لك أن أكثر وأقوى أنبياء العرب نبوة واقناعًا ووقارًا واتزانًا هم الذين لا يأتون بأي كتاب مقدس ولا يصعدون فوق أي منبر ولا يتحدثون عن أي إله.

- أي هم الذين لم يأتوا ولن يأتوا!؟

- وأكرر سؤالِي ... أليس تركيب اللسان العربي هو أقسى وأندل وأوقح عدوان عليه؟

- لهذا فان أشعر وأخطب شعراء وخطباء العرب هم الذين لم يقولوا قصيدة أو خطبة!

- سأفسر لك القول يا من أتيت من المستقبل: هل توجد جريمة أو فضيحة تساوي تركيب اللسان في الإنسان العربي؛ أي في الإله أو النبي أو الزعيم أو الحاكم أو الفقيه أو الشاعر أو المفكر أو المعلم الداعية الثوري العربي؛ أو حتى في الإنسان العربي البسيط جدًّا؟

- بمعنى أن الطبيعة أو الآلهة لم تعاقب أو تشوه أحدًا أو شيئًا مثلما عاقبت وشوهت الإنسان العربي حينما ركبت فيه اللسان!..

- هذا صحيح لأن الطبيعة أو الآلهة لم تكن عاشقة للافتضاح بكل الجنون والوقاحة إلا حينما أرادت وأحبت أن يكون الإنسان العربي ناطقًا.

سبح عاطف في تأملاته وقال لطاها:

- رغم قسط العرب العقلي والإبداعي والحضاري والأخلاقي والجمالي والحبي والصفائي والإشراقي والديني فقد أعطاهم الإله سلاح بترول رهيبًا مذلًا كل سلاح ومدنية وحضارة!

ضحك طاها من سلاح المستقبل القريب وقال لصاحبه:

- لكنهم محرومون أي العرب من هذا الجمال والصفاء والحب والإشراق والظهر النفسي والقلبي والديني والعرقى والتاريخي بل واللغوي، أليس إعطاء الإنسان من خارجه مع حرمانه وتفريغه وقحطه من داخله هو أسمى تشويه وإحراج وتعذيب وفضح له؟ آه أيها العرب؛ لقد شوهتكم العالم بأكاذيبكم وبترولكم، ولم يكن ربيعكم ربيعاً عربياً بل خريفاً عربياً، قدمتم الأطفال بأكفانهم، والنساء بأعجابهم، والرجال بأنصاف جلاليتهم، لتطفئوا الشمس بأجسادكم.

ولم يتذكر طاها أن أغلق النور أم ما زال مضاءً، نهض متثاقلاً إلى الباب، ووضع طرف إصبعه على مفتاح النور ورفعته إلى أعلى ليضيء غرفته التي سينير ضوءها ظلام بلاده، واستسلم لنوم هادئ بحلم مستقبل سعيد لتلك البلاد.

## الفصل الثاني والعشرون

قرأت له سوزان رسالة مطولة باللغة الفرنسية من صديقه توفيق الحكيم بعد عرض مسرحيته "الضيف الثقيل" في القاهرة:  
عزيزي طاها ..

بعد منع الرقابة لمسرحية الضيف الثقيل؛ أثقل علي هذا الأمر ما سبب اعتكافي بدار الكتب أقرأ وأبحث في الفن والمسرح. لكن لفت نظري كوكبة من فناني مصر يتألقون في سماءها، سأعرضهم عليك. هذا وأردت أن أشاركك همي المسرحي وغمي وإحباطي لأنك الوحيد الذي يشعر بي، ولمعرفتي بحبك للمسرح والذي قلت عنه دائماً أبو الفنون، وما زلت عند وعدي أن أصطحبك إلى أحد المسارح الفرنسية خاصة بيت موليير؛ لمشاهدة افتتاح الموسم القادم بمسرحية الشجرة 12 لصديقنا أندريه جيد. أما رسالتي هذه لك فأعدها تأريخاً لنجوم يهود حملوا لواء الفن في مصر، وأجزم أن نجوميتهم ستظل أبد الدهر تتلألأ في سماء مصر.

قال طاها بصوت حالم:

- مصر عروس الزمان أبدية الحسن. عجيبه أنت يا مصر... بوتقة عملاقة ينصهر فيها كل من هاجر إليها ليخرج مصرياً من أبناء "أم الدنيا" مهما كان لونه أو عرقه أو ملته ...

وتضفي "عبقرية المكان" سحرها على الإنسان فيدع في العلم والفن.

ومتى هاجر اليهود إلى مصر؟

بعد أن دمر ملك بابل "نبوخذ نصر" "أورشليم" وهيكلها تدميرًا شاملاً، رحب فرعون مصر "أبريس" (980 - 960 ق م) من ملوك "العصر الصاوي" الذي تسميه التوراة "خفرع" باليهود الذين نجوا من "السبي البابلي". فكانت موجة من الهجرة اليهودية إلى مصر، وردت أخبارها في "سفر أرميا" في العهد القديم من الكتاب المقدس، وقد أنزلهم "أبريس" في منطقة "تل الدفنة" التي تسميها التوراة "تحفحيس". وكانت تقع على بعد اثني عشر ميلاً غربي "القنطرة" وتتحكم في مدخل الدلتا من جهة الشرق. وقد انتشر اليهود في مختلف أرجاء مصر: في منف والفيوم ودهشور والبهنسا، والأشمونين وإخميم وطيبة وأبيدوس وإدفو وإفنتين وأسوان. وكانت الجاليات اليهودية في هذه الأجزاء على اتصال وثيق فيما بينها.

ومنذ عهد "محمد علي باشا" تربعت العائلات اليهودية الشهيرة على قمة الهرم الاجتماعي في مصر، إلى جانب الصفوة والأعيان من المصريين. ولعب اليهود دورًا بارزًا في مجال الفن والسينما والمسرح بدءًا من "يعقوب صنوع" أبو المسرح المصري. فإلى جانب إنتاج وتوزيع الأفلام من خلال شركات "جوزيف موصيري" و "إدجار موصيري" و "إدوارد ليفي" تألقت كوكبة من النجوم من اليهود المصريين في سماء الفن: المخرج الشهير "توجو مزراحي"، والفنانة "كاميليا"، المنسوبة لليهود وهي ليست منهم، فقد أشيع أن "كاميليا" نجمة عصرها كانت يهودية؛ وفي الحقيقة هي من أصل إيطالي ثمرة علاقة آتمة لأمها مع تاجر أقطان إيطالي مسيحي هرب إلى روما بعد أن خسر كل أمواله في بورصة القطن، فنسبت في شهادة ميلادها إلى

يهودي يقطن في البنسيون الذي كانت تملكه أمها "أولجا" وسميت: "ليليان ليفي كوهين"، وإن كانت قد عمدت كمسيحية كاثوليكية بكنيسة القديس يوسف، أما الفنانة الرقيقة "راقية إبراهيم" فكانت يهودية واسمها "راشيل أبراهام ليفي"، وكانت الفنانة "نجمة إبراهيم" - وهو اسمها الحقيقي - وهي أروع من جسدت الشر على الشاشة الفضية يهودية. وكذلك الفنان "إلياس مؤدب" الذي شارك كبار نجوم الكوميديا في العديد من الأفلام، وكان يسكن في شارع سوق الفراح بحارة اليهود، ويمتلك مع شقيقه محلاً صغيراً لتصليح الساعات بشارع عبد العزيز أمام محلات "عمر أفندي". وفي المسرح لمعت "فيكتوريا موسى" في دور "إيزيس"، ووصفت بأنها أقدر ممثلة في مصر، وكذلك الأوبريت الغنائي "هدى" من تلحين الشيخ "سيد درويش"، فكتبت عنها مجلة "الكشكول" في 8 يناير 1926... تخرج من أوبريت هدى ولا صورة انطبعت في ذهنك ولا سحر أثر في نفسك غير صوت فيكتوريا موسى وجمالها وفتها.

ومن الممثلات اليهود أيضاً "نجوى سالم"، واسمها الحقيقي "نينات سلام" وقد اشتهرت بضحكتها الرنانة الفاتنة ومطها للكلام بغنج ودلال ... وقد مثلت نجوى سالم دور "سمحة" ابنة كوهين اليهودي في مسرحية "حسن ومرقص وكوهين" أمام الممثل عادل خيرى. و"سندريلا النيل" ليلي مراد ولدت عام 1916 بحي العباسية وكان والدها "زكي مراد" من نجوم الطرب والتلحين تتلمذ على يد الملحن اليهودي المبدع "داود حسني"، وكان زكي أو "زكي موردخاي" "حزاناً" يؤم الصلوات في المعبد اليهودي، وأخوها "موريس مراد" هو الملحن الرائع "منير مراد" الذي أشهر إسلامه عندما اقترن بالفنانة "سهير البابلي" في أوائل الستينات. وقد حاول الصهاينة إقناعها بكل وسيلة ومثوها بالوعود أن تهاجر إلى إسرائيل ولكنها رفضت. وأيضاً بقيت نجمة إبراهيم ونجوى سالم ومنير مراد، وكثير من

الفنانين من اليهود المصريين الذين ولدوا وعاشوا ودفنوا في مصر.

الموسيقى والطرب :

في مجال الموسيقى والطرب يبرز رائد من رواد النغم هو "داود حسني" واسمه الحقيقي "دافيد حايم ليفي" الذي ولد عام 1881، وعاصر اثنين من أساطين الطرب والتلحين: "عبد الحامولي" و "محمد عثمان" وأخذ عنهما. وقد استوحى من البيئة الشعبية في مصر ألحاناً ما زالت تتردد حتى الآن مثل "قر له ليالي" و "على خده يا ناس ميت وردة" وقد لحن أكثر من خمسة وعشرين مسرحية غنائية منها "معروف الإسكافي" و "ليلة كليوباترا" حقاً عجيبة أنت يا مصر !!!

- عزيزي طاها، لا أعرف أحسبك على وجودك في باريس أم أحسد نفسي على وجودي في مصر؟ رغم حزني الشديد وأسفي على رفض الرقابة الجائرة على مسرحيتي. وإن كنت في باريس ولعنت حتى الحكومة الفرنسية فلن تمنعني الرقابة الفرنسية من التعبير عن رأيي، ورأيي أنا حرٌّ فيه، وعلى الجمهور أن يحكم وليس الرقيب. سأكون في باريس عند إقلاع أول مركب من الإسكندرية التي سأذهب إليها للاستجمام بعض الوقت حتى الرحيل أو حتى اللقاء، تحياتي لكل أصدقائنا خاصة صديقتك سوزي وأندريه وفريدا، وقهوة فلور والدوم والديه ماجوه والكوبول والكنترسكارب وبول ميش، وطبعاً سأحمل ما طلبته من سجائر وكونياك في أول صعودي إلى السفينة.

إلى أن نلتقى لك مني أطيب المنى..

الحكيم

فضت سوزان المظروف وبه بعض الصور لممثلات أعجب بهن الحكيم، أراد أن يزين بهن طاها سحرته. وأتت سوزان على ذوق الحكيم في النساء وخاصة الممثلات اللاتي أشجبن سمع طاها بأصواتهن التي ترن في أذنيه كأعذب الألحان.



كاميليا



راقية إبراهيم



ليلي مراد

حزن طاها على بؤس صديقه وسعد بقرب إبحاره إلى بلاد الحرية؛ لينعم بحريته، وپروض نفسه بعدما أصابه بعد إلغاء الرقابة عرض مسرحية الضيف الثقيل، والتي شجب فيها الإنجليز في احتلالهم لمصر. ومثلهم بالضيف الثقيل ما أغضب عليه السفارة البريطانية والسفير، وأمرت بإيقاف عرض المسرحية. قرأت سوزان الرسالة عدة مرات وكل مرة يتأثر طاها تأثيرًا شديدًا.

قال طاها لسوزان:

- سرْتُ يومًا مع صديقتنا المكسيكية في الحي اليهودي، هل لنا أن نذهب إليه؟
- تقصد فيريدا كاهو؟
- نعم وأعجبت بالحي الذي تفوح منه روائح الشرق التي تعشش في الذاكرة، وقد فتح على الحكيم نافذة جديدة لم تخطر ببالي أن أفُتحها.
- وما هي تلك النافذة؟
- اليهود المصريون! كيف لم يخطر في بالي أنهم يهود وأنهم مصريون؟!
- إن كان هذا سؤالًا، فإجابتي عليه بسيطة: لأنك لم ترهم بغير ما هم عليه؛ أي أنهم مصريون.
- هذه حقيقة ولكنني لم أزر معبدًا قط!
- ولا أنا..
- إذًا هيا بنا لزيارة بيت من بيوت الله.

تأبطت ذراعه وسارا إلى نهاية الشارع حتى نهر السين، وكان الجو يسمح بالمشي. ولم يفصل الحي الخامس عن الرابع إلا نهر السين حيث الحي اليهودي بضيق شوارعه وازدحامها وروائحها وارتفاع أصواتها.

قال طاها:

- أشعر أننا اهتدينا إلى شارع " لي روزيهه " .

قرأت سوزان يافطة الشارع، وكان فعلاً هو المقصد!

قال طاها:

- إذن على يسارك مطعم "لأس دي فلافل" أشم رائحة هذا الطعام الشرقي

الشهير.

- بعد انتهائنا من زيارة المعبد نأتي إلى هنا لأتعرّف وأتذوق تلك المشهيات.

- وهو كذلك. عند نهاية هذا الشارع الضيق سيكون شارع "لي بافيه" وعلى

اليسار سيكون المعبد، هكذا قالت لي فيريدا.

- ها هو المعبد. صعدا ثلاث درجات رخامية متهاكة من كثرة الاستخدام.

يا له من مكان بديع!

- أشعر باتساعه من صدى الصوت.

- يشبه كنيسة، وبدلاً من الصليب على المذبح هناك شمعدان.

- لا يوجد أحدها نساءً عن مواقيت الصلاة.

جاء اليهم خادم المعبد وهو شاب هادئ الصوت، وطلب منهما إن كانا

يريدان مساعدة.

قال طاها:

- تلك أول مرة أدخل فيها معبداً يهودياً، فهل لنا أن نتعرف على مواقيت

الصلاة؟

أجاب الخادم:

- تفضلاً معي، سأقدمكما إلى كبير الرهبان.

ضغطت سوزان على كف طاها، ونضح العرق على أيديهما وقبلا الدعوة، وسارا خلف الخادم الذي قدم إلى طاها "كوبة" ليضعها على رأسه وشالاً صغيراً من الدنتيل وضعته سوزان على رأسها احتراماً للمكان والراهب الأكبر.

المكان متسع، وعلى الحوائط الأربعة مكتبة من الخشب مزدحمة بالكتب والمراجع، ويتدلى من السقف شمعدان كبير وبساط سار عليه ولم يشعر بنهايته، وفي الصدارة مكتب كبير من خشب الورد خلفه شاب في الأربعين من عمره أو أزيد قليلاً، ملتج، وعلى رأسه قبعة سوداء مستديرة والشبابيك كلها معشقة بالزجاج الملون، وعليه الشموع وآيات من التوراه في لغة لم تقمها سوزان رغم وصفها الدقيق لملاحح المكان الرهيب ..

نهض كبير الرهبان، ودار من خلف المكتب الضخم متقدماً ليصافح طاها وسوزان مقدماً نفسه "جوزيف"، وجلسوا جميعاً أمام المكتب على مجالس من الجلد ناعمة الملمس غطس فيها طاها مما أراحه وهذا من روعه.

وابتسم الراهب جوزيف وهو يقول:

- هل أستطيع أن أقدم لكما من خدمة؟

أجابت سوزان:

- تلك أول مرة نزور فيها معبداً.

وأكمل طاها الحديث:

- الآنسة سوزان مسيحية وأنا مسلم.

اتسعت ابتسامه جوزيف وقال:

- وما العجب في ذلك، أنما في بيت من بيوت الله.

قال طاها:

- هذا ما شجعنا على زيارة المعبد.

خفض جوزيف رأسه مرَّحِبًا وقال:

- أهلاً بك وسهلاً في أي وقت.

وعادت سوزان لطلبها:

- نريد أن نعرف مواقيت الصلاة؟

مد الراهب جوزيف يده إلى المكتب وسحب بعض المنشورات مقدماً إياها

لسوزان:

- هذه هي مواعيد الصلاة وكيفية الصلاة وآداب الصلاة.

أشرق وجه سوزان وهي تقول:

- أشكرك يا سيدي على كرمك.

وقال طاها:

- أقدم لكم شكري، لسْتُ هنا لأتحول من الإسلام إلى اليهودية بل حب المعرفة

هو الذي قادني إليكم، بعد أن استلمت رسالة من صديق لي من مصر يخبرني أن

الفن هناك قائم على تألق اليهود في مجالات الفن والموسيقى والمسرح والتجارة، ولم أكن أشعر بذلك وأنا في مصر.

قال جوزيف مبتسمًا:

- لأن اليهود المصريين هم مصريون أبًا عن جدّ. حتى وإن كنت مهاجرًا إليها وعشت على ترابها وشربت من نيلها فأنت مصري دون شك، لذلك لم تشعر بوجودهم لتأقلمهم وخلطهم وعجنهم وزرعهم ونبتهم من الطينة المصرية.

وأكمل جوزيف بروحه المرحة وابتسامته السعيدة:

- ها هي سوزان مسيحية وأنت مسلم وأنا يهودي، وما جمعنا هنا سوى كلمة الله الواحد الأحد في اليهودية أو المسيحية أو الإسلام. فرحبا بكما في أي وقت.

عادا في مرجح إلى آس الفلافل الشهير في الحي اليهودي لتتعرف سوزان على الوجبة الشهية التي تربي عليها صديقها المصري. تناولا شريحتين من الفلافل وسارا في نهر الطريق الضيق.

obeikandi.com

## الفصل الثالث والعشرون

مومارتر ليس حيًا ككل أحياء باريس. فلكلّ طابعه وأهله وعاداته وتقاليده وثقافته ومسارحه ومكتباته، وسوقه ومقاهيه ومطاعمه وشكائيه ومتشرديه، وكتابه وأدبائه وشعرائه ومرتفعاته ومنخفضاته وسهراته وناسه وبوليسه ومخبريه ومومساته، وجريدته ومركز ثقافته ونبیذه. هذا في كل حي من أحياء باريس العشرين أما مارتتر في المنطقة السابعة عشرة فقد خصتها الأيام والنضال والتضاريس والثورة بخاصية مُرحبة، وكأنك فيها عشت الدهر كله ناس بشوشة، سعيدة، فرحانة، وجوههم تعرفها منذ بعيد من الزمان يحادثونك بلهفة وفرحة وثقة وهدوء وسكينة، وكأنك الوحيد في هذا العالم، على المقهى أو الشارع أو الحديقة، الكل بشوش، الفقير والغني، الفنان ومدعي الفن للُقمة العيش، خمرها لا يعلى عليه، وهو ليس للبيع بل يقدم لزازري الهضبة للترحيب بجمع العنب، الذي وضع حباته أبناء مومارتر أو أبناء الثورة الفرنسية الذين يحملونه على أكتافهم مهللين بالحرية والعدالة والمساواة، بملابسهم الثورية التقليدية، ويصرون بالتمثيل الحي كل صباح كل يوم أحد في الميدان أحداث الثورة الفرنسية التي انطلقت من مرتفعات مومارتر، وكُللت بالنصر بعد معارك شجاعة من أطفال مومارتر، ومن نساء مومارتر، ومن مومسات مومارتر، ومن رجال مومارتر، وطلبة وشباب مومارتر، الذين كتب عنهم الفيلسوف الماركسي كارل ماركس الدروس الثورية التي أهدت العالم نظريات في النضال الثوري حتى النصر.

من أشهر معالم الحي تجارية الأقمشة بالجملة ونصف الجملة والمفرق، أقمشة

وحرار ودانتيل اشتهرت بها المدن الفرنسية، والفصال في تلك المتاجر معلم عليك الخوض فيه قبل ولوجك إلى عالم الأعمال، ولو اشتريت مجرد متر من القماش. تسوقت سوزان من هذا السوق بعض من الأقمشة لها ولأمها تحملها معها كأجمل هدايا باريس لمن تحب، ولبعض من أقاربها، ولم تنسى هدية طاها، كوفية ثقيلة تحميه من برد باريس، وهي في فصالها المستमित بلهجتها الجنوبية المحببة لدى الباريسيين. وإذ بيد على كتفها لإنسان يحبها على ما حصلت عليه من سعر لن تحصل عليه امرأة في السوق، ومالت سوزان على فيريدا تقبلها بسعادة قائلة:

- كنت أتوقع لقاءك لأننا لم نلتقي منذ لقاء المعرض. وهنا فأنت من سكان الحي.  
- هذا صحيح، ومتعتي أن أتسوق في مومارتر لأن الفصال هنا يذكرني بالمكسيك، نفاصل على كل شيء.

- وهل نجحت في فصالك اليوم؟  
- طبعاً أعرف أن التاجر الشاطر لا يخسر أبداً، هذا طبيعي.  
- وحيث إننا كسبنا فسوف أعزمك على قهوة على الهضبة.

صعدا مرتفع مارتري بين المنازل المتهاكمة، أو هكذا صور إلى أن وصلا بعد جهد إلى ميدان "دي تتر" المزدهم، جلسا هناك على تيراس مقهى الفنون العامرة، وطلبا اثنين من القهوة الإكسبرسو الباريسية الشهيرة. وجاء صوت من خلفهما إلى النادل وقال:  
- ثلاث فناجين قهوة.

التفتت الفتاتان وإذا به الحكيم ساكن الحي، تقدم إليهما ورشق قبلات التحية والمحبة والسلام على وجنتي الجميلتين، وجلس أمامهما. قالت سوزان بدهشة:  
- متى أتيت من مصر؟

قالت فيريدا:

- لا يهم متى! بل الأهم أنه هنا معنا.

قالت سوزان:

- طاها يسأل عنك كل يوم؛ لأنه توحشك ويريد معرفة أخبارك هناك. وخاصة بعد استلامه رسالة منك.

قال الحكيم وعلى شفتيه ابتسامة باهتة:

- ليست على ما يرام.

ضحكت فيريدا وهي تقول:

- لا تحاول التحلل من وعدك لي بزيارة مصر.

قال الحكيم باهتمام:

- حتى وإن كان طاها هو الذي دعاك؛ فاعتبريها دعوتي أيضًا وما زلتُ عند وعدي ووعد طاها أيضًا.

قالت سوزان متسائلة:

- هل اتفقتم على زيارة مصر من ورأي؟!!

أجابت فيريدا بنبرة ثقة:

- لا يا صديقتي، بل تعرفين كرم المصريين في العزومات الذي يشجع ويلهف السامع على حب بلاد لم يرها بعد.

قالت سوزان في نبرة لا تخلو من حب:

- لقد تذوقت مصر ثقافيًا مع طاها في الحى اليهودي.

أملت فيريدا رأسها في مرح قائلةً:

- أكيد أكلت شريحة الفلافل من عند آس الفلافل الشهير!

قال الحكيم باعتزاز:

- من يشرب من ماء النيل يعود إليه دائماً، أما من يأكل الفلافل والبقول فكأنه عاش وعشق مصر وأهلها أبداً. وتلك هي مسوغات أن تكوني مصرية الجنسية!

قالت سوزان:

- قرأت رسالتك الأخيرة لطاها، وكانت تدور حول حب الآخر لمصر، وذوبانهم في تربتها لينبتوا نجومًا تلمع في سماء مصر.

أكد الحكيم كلامها قائلاً:

- قرأت تلك الرسالة عديد المرات؛ ما جعلك تذكرين جملاً بعينها!

نظرت فيريدا للحكيم في إكبار قائلةً:

- كتاباتك حتى وإن كانت رسائل فمهي تحمل خفة المصري؛ ما يجعلها تنساب في الروح وتصير جزءاً من قارئها وكأنه هو كاتبها.

قال الحكيم مصدقاً على كلامها:

- لأنني أكتب بريشة مصرية على أوراق أوروبية لقارئ أو مستمع أو مشاهد عالمي.

اتفقت سوزان مع ما قاله وأكدت قائلةً:

- ولذلك كان من السهل عليّ أن أسجل كثيرًا مما كتبت في ذاكرتي.

نظرت إليها فيريدا والتقطت الفكرة قائلةً:

- لقد قررت أن أسجل الحكيم على ورق الرسم عند عودتي إلى المكسيك ليكون ملكًا للشعب المكسيكي، وتخلد معنا في النصف الآخر من الكرة الأرضية.

ضحك الحكيم وقال في امتنان:

- أشكرك يا صديقتي على الرغم من مبالغتك في الأمر. فما أنا إلا كاتب مصري.

قالت فيريدا في جدية تامة:

- لا، أنت كاتب عالمي، وعلينا الحفاظ على تراثك لأنه ثروة قومية؛ ليست لمصر فقط بل للعالم أجمع.

قالت سوزان للحكيم:

- متى ستأتي لزيارة طاها إذن؟

أجاب الحكيم:

- كنت أود أن آتي لزيارته منذ وصولي إلى باريس لكن قصر اليد منعني. لأنني عند وعدي أن نذهب جميعًا إلى المسرح بمجرد وصولي إلى باريس، وعليه فضلت أن أخفي وصولي إلى أن أتسلم بعض المال لأستطيع أن أفي بوعدي.

سألت سوزان بانتسامة:

- وأي مسرح كنتما تنويان عليه؟

أجاب الحكيم:

- بيت مولير.

نظرت فيريدا لأعلى كأنها تتذكر شيئاً وقالت:

- أعتقد أنه يعرض الآن رواية لأندرية جيد.

قالت سوزان:

- لا أعرف بالضبط. ولي معه لقاء اليوم لإعطائه بعضاً من مشتريات اليوم قد طلبها وسأسأله عن روايته.

أوماً الحكيم برأسه قائلاً:

- حسنًا.

قالت سوزان:

- سأقول لهاها إني قابلتك اليوم لأن معي له هدية وساعتين من القراءة حول مشروع شعر قد أرسله إلى مجلة فرنسية.

تساءل الحكيم بدهشة:

- وهل طاهها يقرض الشعر الآن؟

أجابت سوزان:

- ليس هكذا بالضبط، بل هي خواطر حول عبادة الشيطان.

قالت فيريدا:

- طاهها دائماً شكٌ حتى في الشيطان!.

قال الحكيم:

- عندما تلتقين به أخبريه بأني سأمرّ عليه لتناول الشاي، وبالمناسبة معي له هدية من مصر.

قالت سوزان:

- سيسعد جدًا بلقائك، وأنا سعدت بلقائك اليوم أيضًا. والآن اسمح لي أن أترككما في حيكما البهيج.

وطبعث قبلات الوداع على وجنتي الحكيم ووجنتي فيريدا، واتجهت إلى مترو الأنفاق لينقلها إلى جنوب باريس، وهي سعيدة لأنها ستزف خبر وصول الحكيم إلى طاها.

مرث سوزان في طريقها على المنطقة السادسة حيث يسكن قريبها أندريه. ولم يكن قد استفاق من نومه بعد بالرغم من أن الساعة قاربت على الثانية والنصف بعد الظهر. وبما كان لها عليه من دلال وقربي راحت تؤنبه على إهماله لنفسه، ومواعيده وصحته في السهر كل ليلة، وأزاحت الغطاء من عليه ودفعته إلى الحمام ليأخذ (دوش) ويفيق لها ولحياته ولعمله الذي أهله لأن يكون أحد مؤلفي فرنسا وأحد قادة الفكر الفرنسي التحرري. طلب منها أن تعد له القهوة، وعاد من الحمام أكثر انتعاشًا، وقال لها مبتسمًا:

- ما زلت كما أنت البنت الصغيرة المناكفة، منذ أن كنا صغارًا وأنت كما أنت، ولا أعرف لماذا يغضبك أن أنام بالنهار وأعمل بالليل؟!

- هذا لا يغضبني، بل ونحن صغار كنت في حاجة لنلعب سويًا، أما الآن فعليك رعاية نفسك لأنك لست كاتبًا فقط بل معلم أيضًا.

- سأعمل بنصيحتك يا أختي العزيزة، والآن ماذا جاء بك؟

- جئت لأعطيك ما طلبته من أمي من ملابس داخلية وغيرها.

- أشكرك يا حبيبتي الغالية.

- سمعتُ أن لك مسرحية في بيت موليير؛ هل هذا صحيح؟

- نعم ولذلك كنت أعمل طول الليل في المسرح.

- إن كان كذلك فأنا أسامحك ولن أقول لأمي.

- أعرف جيداً طيبة قلبك وذكاء عقلك.

- أريد طلباً، هل ممكن أن تحصل على تذاكر دعوة لمسرحيتك؟

- لمن؟

- لأصدقائي ولي.

- ومن هم؟

- طاها وفيريديا والحكيم وأنا.

- لك ما طلبتِ يا أعز أخت وأعز بنت في العائلة.

عادت إلى الفندق مهللة لطاها بسعادة طفولية تبدو دائماً على محياها الجميل، فاستبشر طاها خيراً وأسعدها بقوله:

- أي خبر أسعد من وجودك بجانبني يا سوزان؟!

- دعني أقبلك أولاً!

- لك ما شئت وأكثر!

- الخبر الأول قابلت الحكيم في مارتز هذا الصباح، وهو يخفي عنك وصوله لأن

ضيق ذات يده منعه عن أن يفي بوعد المسرحي لك.

- يا له من رجل حساس!

- أما الخبر الثاني: فقد حصلت على أربع دعوات لبيت موليير من أندريه

هذا المساء.

- هذه بشریات كثيرة. أنت حاملة الأخبار السعيدة دون شك، ولكن لماذا  
أربع دعوات ونحن ثلاثة إن كان حدسي صحيحاً؟!  
- لم أقل لك. كنتُ في مومارتر لشراء لوازم لأسرتي؛ والتقيت هناك بغيريدا  
وتسوقنا معاً ثم سعدنا لاحتساء بعض القهوة والدردشة النسائية، وإذا بالحكيم  
هناك أيضاً في حيه طالباً لقهوة الصباح.  
- يا لها من مفاجأة عظيمة! وقد أصبح توفيق في حِلٍّ من وعده. فلنذهب سوياً  
لبيت مولير هذا المساء .

obeikandi.com

## الفصل الرابع والعشرون

بيت مولير

مسرحية الكونتيسة

لأندريه جيد

قبل أن أحدثكم عن تلك الرواية آثرت أن أكتب كلمة وجيزة عن كاتب المسرحية الصديق أندريه جيد الذي ولد في باريس في عائلة بورجوازية بروتستانتية، وتلقى تربية قاسية وملتزمة بسبب وفاة والده وهو صغير السن، حيث أمه فنورمنديية كانت متسلطة. كان أندريه معتل الصحة، وكان منذ صغره يشعر أنه مختلف عن الآخرين. لم تكن دراسته المدرسية منتظمة، فعاش طفولة مشوشة. ما إن بلغ المراهقة حتى استهوته اللقاءات الأدبية فأخذ يرتاد الصالونات الأدبية والأنندية الشعرية. في العام 1981 نشر جيد دفاتر أندريه فالتر التي يحكي فيها عن نفسه بشخصية بطل القصة أندريه فالتر حيث تكلم عن شعوره بالكآبة وطموحاته المستقبلية وحبه لابنة عمه مادلين. وتلك الحالة النفسية التي تحدث عنها في روايته التي نحن بصدددها. لم يكن جيد يحتاج إلى البحث عن عمل أو ممارسة مهنة، فقد كان يملك ثروة تسمح له بأن يعيش حياة مرفهة. فانكب على القراءة والمطالعة دون الاهتمام بشؤون حياته المادية.

في سنة 1839 اكتشف هويته المثلية عن طريق علاقات جنسية مع المراهقين.

وأثناء رحلة إلى الجزائر تعرف على أوسكار وايلد واقتنع نهائيًا بأنه ينبغي أن يعيش "حسب طبيعته". بيد أن جيد يظل بعد ذلك يفرق بين اللذة والحب إذ تزوج قريبة له في عام 1895. وقد تألق جيد في فن الرواية إلا أنه فشل تقريبًا في التأليف المسرحي. وأغلب نصوصه حركت فيها الرموز والأفكار. وقد يجد فيها القارئ متعة فكرية خالصة، لكنها لم تشوق المشاهد الذي قُدر له أن يراها على خشبة المسرح. وقد كتب إلى بول فاليري يقول: "مالارمييه بالنسبة إلى الشعر، وماترلنك بالنسبة إلى الدراما، وحتى إن كنت أشعر أنني ضعيف قليلًا أمامهما فإنه بإمكانني أن أضيف - أنا - بالنسبة إلى الرواية".

وقد اقترب من الرمزية، وتحرر من كل القيود وقال: "أن نعرف كيف نتحرر ليس أمرًا عسيرًا، فالعسير هو أن نعرف كيف نكون أحرارًا".

وأصدر مجلة أدبية تحمل عنوان "المجلة الأدبية الفرنسية"، تلك التي سوف تحتل حيزًا واسعًا لها بين الصحافة الأدبية الفرنسية، بل ستصبح أشهر وأبداع مجلة أدبية عرفتها فرنسا خلال القرن العشرين، وقد فتح أندريه لي الباب متسعًا لأكتب خواطري بها.

أما روايتنا التي شاهدناها الليلة مع أصدقاء يجمعهم حبهم للفن بدرجاته المختلفة، تلك القصة التي تقرأها أو تشاهدها فتشعر بشيء كثير من الراحة لقراءتها أو رؤيتها، وتشعر بأن الكاتب لم يتكلف جهدًا ولا مشقة حين كتبها، بل تشعر بأن الكاتب قد استراح إلى كتابتها، ووجد من اللذة في تنسيق فصولها ومناظرها مثل ما تجد أنت في قراءتها أو النظر إليها. بل تشعر بأن الكاتب قد ابتسم عندما خطر له موضوعها، ونشط للكتابة في هذا الموضوع فأخذ قلمه باسمًا، وظل يكتب باسمًا، وانتهى من الكتابة ولم تفارقه بسمته ... أو قل انتهى من

الكتابة وهو يضحك . وقد رأيت في عنوان المسرحية "الشجرة رقم 12" شيئاً من الغرابة، وآثرت أن أضع لها عنواناً آخر "الكونتيسة"، وهي مالكة القصر التي تحمل بداخلها كل التناقضات، وفي قصرها تدور أحداث الرواية. وعنوان الكونتيسة أكثر جاذبية لجمهور النظارة. وتتكون الرواية من ثلاثة فصول، ولكني أفضل أن أطلق على كل فصل منها كلمة "المسمع" أي المسمع الأول والمسمع الثاني والمسمع الثالث، لأنني قرأتها وسمعتها، ولم أشاهدها كجمهور المشاهدين بل كان الممثلون والمؤثرات الصوتية من القوة والوضوح بالقدر الذي جعلها تحل محل المنظور، وتجعلك تعيش المطر والبرد والبرق والدفء والضحك. وإليك الرواية في اقتضاب:

تدور التمثيلية حول التحليل النفسي واللاشعور وما يحويه من رغبات مكبوتة أشبه بالوحوش الحبيسة المتحفزة للانطلاق إن فتح الباب.. فالكونتيسة الرقيقة المشاعر المحبة لمعرفة تستقبل في قصرها ابن أخيها "أرمان"، وضييفه أحدهما عالم بالأديان واللغات القديمة، والآخر طبيب نفسي . . ومع استمرار هطول الأمطار تمضي الكونتيسة الوقت في الحديث مع الضيفين.. وبعد عشرة أيام يكتشف القسُّ - وهو أحد المدعويين - رسماً محفوراً بُمُدِيَّة في لحاء شجرة شبيه برسوم ما قبل التاريخ العارِية.. يُصِرُّ القسيس على التحقيق في الموضوع لمعرفة الفاعل.. وفي النهاية تكتشف الكونتيسة أن قبضة الوعي تراخت للحظات عن لاشعورها فانطلق أحد الوحوش الحبيسة المكبوتة وحفر ذلك الرسم الفاضح في لحاء شجرة الدردار التي يزيد عمرها على المائة عام، بعد أن عانت من الكبت طويلاً. وبعد هذا الإيجاز أقدم شخصيات الرواية كما قرأتها أو قل كما سمعتها :

الكونتيسة:

نبيلة ثرية .. رقيقة المشاعر .. شغوفة بتتقيف نفسها .. لديها فضول نحو النظريات الحديثة والآراء الطريفة .. لا تحب المآسي ولا حتى القراءة عنها.

الفيكونت:

ابن الكونتيسة .. لا يبالي بالعلم والثقافة .. يعيش الحياة النمطية للنبلاء مآدب وحفلات راقصة .. صيد في أراضي العائلة الشاسعة .. لعب ورق وشرب للخمر .. يقدر أمه الكونتيسة ويثق في صواب حكمها على الأمور .. وإن كانت نظرت له باقي النساء متدنية.

أرمان:

ابن أخي الكونتيسة .. سليل اللسان .. ساخر .. لا يوجه اهتمامه لشيء .. لا يقرأ ولا حتى الصحف .. محب لعمته الكونتيسة .. لا يأبه للدين .. علماني النزعة .. واع بأنه إنسان.

القس:

صديق لعائلة الكونتيسة .. راعي الكنيسة .. متزمت .. يرفض النظريات والآراء الحديثة، ويعدها تجديفاً وفوضى فكرية.. شره ويدرك أن الشره رذيلة .. يستمتع بما لرجل الدين من سلطان على الناس.

العالم:

صديق أرمان .. خبير بالأديان واللغات القديمة .. مولع بالحديث عنها .. معتاد على مخالطة علية القوم ومناقشة أفكاره معهم .. يقابل الهجوم على أفكاره بسخرية

هادئة مهذبة.

الطبيب النفسي:

صديق أرمان .. على دراية واسعة بالتحليل النفسي .. يؤمن بنظرية اللاشعور وما يحويه من مكبوتات يسميها الوحوش .. مهذب .. يراعي شعور الآخرين وآداب اللياقة.

البستاني:

حارس الحديقة .. ماهر في مهنته .. يعشق الزرع والأشجار .. شديد الإيمان بالوراثة وليس عن تفكير .. لا يحترم أرباب الفكر الحديث ويعتقد أنهم بلا عقيدة.

جوزفين:

عانس .. ثرية .. تدعي التحرر والتقدمية .. لديها حس الفكاهة .. تقترب من سن الأربعين .. نحيلة تسمى نحوها حرصًا .. تحلم بصيد زوج محترم .. تستر فقر جمالها بالمرح والحديث الشيق والأناقة.

فيليب:

نبيل مقامر .. رحالة أضع معظم ثروته .. لديه ما يكاد يكفيه .. يحاول تصيد زوجة ثرية .. مغامراته النسائية معروفة ولا يخجل من الحديث عنها متباهيًا .. شاعر يتميز بالرقعة .. يتذوق النكتة ويحب الضحك.

أنطوانيت:

جميلة .. تحررية في فكرها .. تنادي بحرية المرأة .. مثقفة على إمام بما يجري  
حولها في الثقافة والسياسة .. تؤمن بزواج الحب .. جريئة ولكن دون إسفاف ..  
تهوى المعارضة ليظل الحديث دائراً.

لوز:

متوسطة الجمال .. مثقفة ومطلعة على مجريات الأمور .. محافظة .. هادئة ..  
يدور كلامها حول محور الدين والإيمان .. تؤمن بالزواج الصالح ولا تؤمن بالحب  
قبل الزواج.

جاك:

رئيس الخدم .. يحب الكلام .. لا بد أن يقول شيئاً ليظهر حبه للثقافة والفن  
أمام سادته.

المسمع الأول

عرض مسرحية الكونتيسة لأندريه جيد

الثلاث دقائق التقليدية على خشبة المسرح استعداداً لبدء العرض. أطفئت  
الأنوار تدريجياً مع ارتفاع أصوات الشوك والسكاكين والأطباق، ولغظ كثير  
وهمهمات الآكلين وهم على مائدة كبيرة. وتنفرج الستارة وتشعر باتساع المكان  
في صالة طعام قصر كبير تتدلى من السقف الثريات، وعلى الحوائط الرسومات  
وسلام صاعدة وأخرى هابطة، والفرح يعم المكان. يرتفع صوت الكونتيسة في رقة  
ودعة واستسلام:

الكونتيسة - توجه الحديث لابن أخيها أرمان بحب ورقة - :

- لك مني كل الشكر يا بن أخي العزيز أرمان لاصطحابك صديقك العالم بالأديان واللغات والطبيب النفسي .. فإن الحديث معهما ممتع، وعرفني بالنظريات الحديثة وكثير من الآراء الطريفة الشيقة.

ويهطل المطر مرتطمًا بالنوافذ محدثًا أصواتًا تتصاعد وتهبطُ مع شدة المطر وخفته، والتلوج تطلق على حواف القصر وأرصفتها.

أرمان - بصوت يشي بالسخرية- :

- بل كل الشكر لك يا عمتي الكونتيسة، فأين كان سيجد هذان العالمان البائسان الإقامة في مثل قصرك العامر وما يُقدَّم فيه من ألوان الطعام الشهي والنبيذ المعتق.

تعلو موسيقى مرحة توجي بالرقص .

الفيكونت - وهو يضحك برقة - :

- هكذا أنت يا بن خالي أرمان دائمًا عابث مهذار ..

موجهًا الحديث إلى الضيفين بنبرة اعتذار :

فالضيفان الكريمان على الرحب والسعة .. وأمي الكونتيسة تكنّ كل تقدير للعلماء والأدباء والفنانين .. وشغوفة بالاطلاع على ما هو جديد في العلم والمعرفة.

الطبيب النفسي (يهدوء وأدب نكاد ألا نسمعه) :

-لا عليك يا سيدي الفيكونت فأنا وصديقي عالم الأديان من أقرب الأصدقاء

للسيد أرمان .. وأنا بصفتي طبيبًا ومحللاً نفسيًا أعلمُ أن شخصيته مرحة ميالة إلى الدعابة.

تعلو الموسيقى المرحة الراقصة ..

أرمان (متفلسفًا) :

- المرح والدعابة هما السكر الذي نحلي به مرارة الأيام .

(ثم موجهاً كلامه إلى القسيس الجالس إلى جواره) :

- أليس كذلك ياسيدي الأب القسيس؟

القسيس (وهو ما زال يمضغ .. يتكلم بشره) :

- دعك من الهذر وقرب مني طبق حلوى "الميل فيي" .. ولنترك الحديث عن النظريات الحديثة ومعارف القرن التاسع عشر التي لا تملون التشدق بها.

عالم الأديان (يوجه سخرية مستترة) :

- اسمح لي ياسيدي الأب أن أذكرك أنه لولا مبتكرات ومعارف القرن التاسع عشر لما استمتعت بالطعام بفضل الأسنان الصناعية التي ابتكرها الأمريكي فلانستون، ولما تيسرت لي كعالم في الأديان واللغات القديمة الكتابة بسرعة وإتقان بفضل الآلة الكاتبة التي اخترعها النمساوي ميترو هوفر.

الكونتيسة (تقاطع بركة لتنهى الموقف المتأزم) :

- أما أن أن ننتقل إلى قاعة الجلوس لنشرب القهوة، ونشاهد من خلف جدارها الزجاجي أشجار الحديقة العتيقة تغتسل بالمطر.. كما أريد منك يا سيدي

العالم أن تكمل لي حديثك عن عبادة الأشجار عند القدماء.

يشدد ضجيج الانتهاء من الوليمة، ويتجه الجميع إلى الصالون في هرج ومرج بمصاحبة موسيقى سعيدة مهللة بطول الليل.

### المسمع الثاني

قاعة الجلوس بجدارها الزجاجي المطل على الحديقة .. صوت هطول المطر والريخ، وحفيف أوراق الشجر يتخلله صوت الرعد من آن لآخر مخففاً بسبب الجدار الزجاجي المعشق ذي الرسومات المتعددة، ويضفي على القاعة أضواء تختلف باختلاف ألوان الصور الزجاجية بفعل ضوء البرق. سجادة جوبلان تفرش الأرضية الخشبية الملساء وتتوسطها طاولة مستديرة عليها باقة من الورد التي يعتني بها البستاني. وعلى كل ركن من أركان السجادة الجوبلان صالون يتسع للفيف من الأصدقاء .

تقدمت الكونتيسة وخلفها أصدقائها، وتصدّرت الصالون الأخضر، وجلست وإلى جانبها الفيكونت.

العالم: (موجهاً الحديث للكونتيسة بانهار) معك كل الحق يا سيدتي الكونتيسة .. يا له من منظر رائع شاعري .. الأشجار العتيقة الجميلة تغتسل بالمطر وضوء القمر، ومن آن لآخر يسلط عليها البرق ضوءه الباهر، فيبرز جمالها وروعها.

الكونتيسة (بفخر رزين) :

- يا سيدي العالم هذه الحديقة من مفاخر عائلتنا على مرّ الأيام .. وفيها من أشجار الدّلب والدردار وغيرها ما جاوز عمره المائة عام وأكثر.

الفيكونت (بلهجة متبرمة) :

- ولولا هذا المطر الذي يهطل دون توقف منذ عشرة أيام لاستمتعنا بالتزّه في الحديقة صباح مساء.

أرمان (بلهجة موحية) :

- فعلاً يا بن خالي .. ولأمكن أن نرى آخر صيحة من موضنة القرن التاسع عشر ترتديها السيدات والآنسات من المدعوات.

- (بتحسر) : وكلهن فانتات.

الطيب (بافتخار) :

- على ذكر القرن التاسع عشر لقد فاتكم أن تذكروا أن مخترع ماكينة الخياطة هو الفرنسي ثيمونيه .. فمن فرنسا تخرج الموضنة إلى العالم كله.

القس (بامتعاض) :

- ولا تنسوا أن ذلك سيُسرع إنتاج الملابس مما يساعد النساء على مزيد من التبرج وإظهار مفاتهن (بغضب) في ظل الدعوة إلى تحرر المرأة.

الكونتيسة (بشيء من الاندفاع) :

- لا تقلق يا سيدي الأب .. فلا بأس بقليل من الحرية بعد قرون من القيود والأغلال. كان يُفرض على النساء فيها ما يلبسن ويقلن ويقرأن وحتى ما يفكرن فيه.

القسيس (الذي يجلس إلى جوار الفيكونت يهمس بانزعاج) :

- يا سيدي الفيكونت أريد أن أحذرك من هذين المدعويين اللذين أحضرهما معه ابن خالك السيد أرمان (بلهجة ناصحة). فإن والدتك الكونتيسة هي الرقة بعينها وهذان الرجلان يشيعان في المكان التجديف والاستخفاف بالتقاليد الراسخة، وإني أخاف من تلك الأفكار التي تتغلغل ببطء في النفس الرقيقة لأملك المبجلة.

الفيكونت (بلهجة واثقة) :

- هون عليك يا سيدي الأب .. وأنا أشكر لك ما تحيطننا به من رعاية.. لكن ليس هناك ما يدعو إلى القلق، ورغم أن أُمي مسرقة بعض الشيء في فضولها نحو النظريات والآراء الحديثة إلا أنها أثبتت دائماً إنها قدوة حسنة، وذات عقل راجح (بلا مبالاة)، لنستمتع بهذا النيذ المعتق.

ورفع كأس النيذ في وجوه الجميع، وصبته دفعة واحدة في جوفه، وارتفع الرعد والموسيقى، وخرست الطبيعة فجأة والموسيقى أيضاً.

المسمع الثالث

قاعة البللور في القصر حيث استغل البللور لصنع قاعة تُعد تحفة فنية ..

في الدور الثاني تطل على قسم كبير من الحديقة ... لها شرفة واسعة ذات واجهة زجاجية تسمح بدخول الشمس، وتسمى حجرة الشمس وهي أدفاً حجرة في القصر للاستمتاع بدفء شمس الشتاء، وكذلك هي مجلس شراب للشباب من الجنسين.

الطبيب (مخاطبًا الفيكونت بانهار) :

- أقول لك صادقًا يا سيدي الفيكونت إنني كلما تجوّلت في جنبات قصركم

العامر التقيت بمفاجأة سارة ... يا لها من قاعة رائعة يا سيدي ... لوحة فنية  
صيغت من البللور والمنظر الساحر للحديقة والأضواء (يتفلسف) يا لروعة الفن  
حين يمتزج بالطبيعة ويلقى العناية بسخاء.

الفيكونت: (بفخر هادئ) :

- معك كل الحق .. وأنا من أكثر المنادين بأن يرعى عليّة القوم الفن ... ليحافظوا  
على تيار الإبداع جارياً ... وفي رأيي أنه كلما تقدمت الصناعة واتسع مجالها تقهر  
الفن وتوارى مخجلاً من الآلية والكثرة.

أرمان (يصيح بمرح) :

- مهلاً أيها السادة ... دعوني أولاً أرحب بالآنسات الجميلات جوزفين  
وأنطوانيت ولوز في مجلس الجمال والفن والثقافة والشباب ... شباب القرن  
التاسع عشر (بلهجة من يقدم حفلاً).

الفيكونت (يقلد أرمان) :

- ودعوني أرحب بالشاعر المغامر المركز فيليب وصديقي أرمان الطبيب  
النفسي وعالم الأديان ... ونقترح نخباً نبدأ به مجلسنا فالليل ما زال صبيهاً ... وقد  
احتشدت النجوم لتشهد مجلسنا ... مجلس الشباب.

أنطوانيت (بحماس) :

- فلنشرّب نخب الحرية ونخب نيوزلاندة أول دولة في العالم تمنح النساء حق  
التصويت في الانتخابات العامة، قبل أن ينتهي القرن التاسع عشر بسبع سنوات  
... يا لها من خطوة جريئة على درب المساواة بين الجنسين (أصوات الكؤوس

تقرع مختلطة بالضحكات والردد يشاركهم صخبهم).

جوزفين (وهي تضحك) :

يا أنسة أنطوانيت يا ليتهم منحوها أيضًا الحق في أن تضع يدها على الرجل الذي تريده زوجًا لها دون أي اعتراض منه أو مقاومة!.. وأظن أنك توافقين على ذلك يا لويز ... أليس الزواج حلم كل فتاة (تتنهد) آمل أن يتحقق الحلم قريبًا.

لويز (تضحك بخجل) :

- هكذا أنت دائمًا يا جوزفين لا تفوتين فرصة للضحك والهذر، وإذا كان أرمان هو أمير الفكاهة في مجلسنا فأنت أميرتها (بجد) وبالطبع فحلم كل فتاة أن تجد زوجًا صالحًا محبًا. ولكن دون إكراه له أو قهر لإرادته.

العالم (باعتراض هادئ) :

- ولكنني أرى أن النساء منذ القدم قد تمتعن بمكانة عالية، ونفوذ واسع، وسلطان طاغ، حتى على الصفوة من الرجال!.. ولا يمكن أن ننسى "أسبازيا" الغانية الإغريقية التي عشقها السياسي والخطيب بركليس وتدلّه بها، فطلق امرأته وتزوج بها ... وكان الفيلسوف سقراط يزورها ويعجب بحسن ذوقها ولمعان ذهنها.

أرمان (بلهجة فيها غمز) :

- إن معنا الخبر في شؤون النساء صاحب المغامرات التي لا يجهلها أحد المركيز فيليب ... (يعابث فيليب) ولم تقتصر مغامراته على فرنسا بل تعدتها إلى أوروبا والشرق ... لا تحرمنا من رأيك أيها الشاعر الفارس.

المركيز فيليب (يرد المعاتبة) :

- شكراً يا صديقي العزيز أرمأن (بتواضع مصطنع) وإن لم يكن هناك داع لهذا الإعلان الصاخب (بلهجة الخير) المرأة نعمة الله الكبرى التي أكرم بها الرجل ... ولولاها ما كانت هناك فروسية ولا شعر ولا فن ... ولا حياة فلا فارس بلا سيدة ولا شاعر بلا محبوبة ولا فن بدون المرأة و ...

أنطوانيت (تقاطعها بحماس) :

- ولكن ألا ترى معي رغم ذلك يا سيدي أن علمنا هذا هو عالم الرجل وأن المرأة سُلبت الكثير الكثير من الحقوق بدعوى الحماية، وكُبلت بكثير من الأغلال بزعم المحافظة عليها .. لا يا سيدي لن نضحي بحريتنا وتتنازل عن حقوقنا مقابل معسول القول وحلو الكلام بعد الآن.

رئيس الخدم (وهو يدير الشراب عليهم) :

- مجلسنا يضم شموساً وأقماراً تشع علينا ضياءات ثقافتهم وأنوار علمهم ... اسمحوا لخدمكم جاك بكلمة في الموضوع ولن أطيل عليكم ... (أصوات ضحكات ... مع ترديد كلمة: تفضل).

أرمأن (بسخرية) :

- تفضل يا سيد جاك، أتحفنا بكلماتك الحكيمة ... ولا تنس أن هذا عصر الحرية والمساواة ... (يغالب ضحكة) لا عليك قل كلمتك وامش (ضحكات).

رئيس الخدم (بخجل) :

- الحق يا سادة أني ما فكرت في المرأة والرجل إلا وهلت على ذهني صورة  
علامة برج الجوزاء ... (برقة) فالمرأة والرجل توأما الروح وهما جناحا الحب...

أصوات مختلطة (بمبح) تقاطعه :

- أحسنت يا جاك ... كلمات حكيمة ... ومعانٍ جميلة.

الفيكونت:

- أحسنت يا جاك (بمبح) ولكن لا تسمح للحديث أن يلهيك عن أن تبقى  
الكؤوس دائماً مترعة بالنبيذ ... يا فيلسوف الغبراء وساقى خمرنا الحمراء.

لوز (مخاطبة الطبيب النفسي) :

- الحب عاطفة نبيلة، ولكن ألا ترى يا سيدي الطبيب أن الحب يؤدي أحياناً  
إلى ارتكاب خطايا لا تعتفر وأنت الفارس في ميدان النفس ... وأرجو أن تطلعنا  
بأمانة على أكبر خطيئة قد يقود إليها الحب في رأيك.

الطبيب (بلهجة المتمكن) :

- يا أنسة لوز، الحب لا يقود إلى الخطايا إلا إذا مرضت النفس.. هنا يختل  
ميزانها فتندفع إلى ما تظن أنه حباً وعشقاً وهي واهمة سقط في مستنقع الخطيئة  
... أما الخطيئة الكبرى التي يقود إليها الحب فهي عشق الذات ... النرجسية فهي  
فسخ صارخ للعقد الاجتماعي ورفض قاطع للتواصل مع الآخر ...

جوزفين (بهلع مبالغ فيه) :

- عشق الذات ... يا إلهي من أين إذن نحصل على زوج إذا عشق الرجال أنفسهم ... (تنوح بطريقة مضحكة) هذه ليست خطيئة فقط إنها مصيبة أي عشق هذا ... ألا يلزم للعشق رجل وامرأة ... عشنا وشفنا. (صوت ضحكات مختلطة) .

العالم (وهو ما زال يضحك) :

- انظروا يا سادة إلى الحديقة الرائعة ... فهناك إلى جوار شجرة الدلب العتيقة حوض من أزهار النرجس تتألق تحت ضوء القمر وتتايل تحت قطرات المطر ... لقد حولت الآلهة التي رفض "نارسيوس" حبها بعد أن عشق صورته المنعكسة على سطح الغدير إلى زهرة النرجس كما تقول الأسطورة ... قمة الشاعرية أليس كذلك أيها المركز فيليب.

المركز فيليب (بلهجة الشاعر) :

- لقد أسبغت الأغاني والأشعار مزيداً من الجمال والروعة على زهرة النرجس ... وأصبحت تحمل معنى خاصاً حين يهديها الحبيب إلى محبوبته ... النرجس تلك الزهرة التي تمثل المحب الغارق في العشق في عيون الشعراء ... حقاً إنها واحدة من أجمل أساطير العشق والهوى التي أبدعها الخيال.

رئيس الخدم جاك (باستجداء) :

- على ذكر النرجس ... اسمحوا لخدمكم جاك أن يلتقي على مسامعكم أبياتاً من قصيدة نظمها عن زهرة النرجس، ولن أطيل ...

أصوات مختلطة (تردد بتنغيم ومرح) :

- لا .. شكراً .. كفاية.

الفيكونت (بلهجة فيها جبر لخاطر جاك) :

- فلنؤجلها يا عزيزي جاك لمجلسنا القادم فقد نال منا السهر والشراب ... أرجو أن تقود ضيوفنا الأعداء إلى غرفهم وأن تسهر على راحتهم.

أصوات مختلطة:

- ليلة سعيدة ... تصبحون على خير ... كانت جلسة رائعة ... لقد استمتعنا حقاً ... لا بد أن نكررها مرة أخرى.

موسيقى هادئة تسبح مع انصرافهم إلى غرفهم بانخفاض تدريجي ويتهادى الضوء في القفول حتى العمى، ويُسدل الستار على نهاية المسرحية، وتضج الصالة بالتصفيق، ثم يعود الممثلون ويُرفع الستار ويحيون الجمهور مرة ومرة ومرة ...

كلمة أخيرة أردت أن أمليها وهي على درجة عالية من الأهمية، ذلك "بيت موليير أو"الكومدي فرانسيز": مسرح الكوميدي فرانسيز يُعرف بأنه بيت موليير . هو أقدم وربما كان أعلى منصة بين المسارح القومية في العالم . وقد أنشئ سنة 1680 بعد وفاة الكاتب المسرحي الشهير جان باتست موليير (1622 - 1673) بمرسوم ملكي أصدره الملك لويس الرابع عشر، ليكون بيتاً لمسرحيات موليير، وحافظاً لتراثه وتراث الشاعر التراجيدي جان راسين (1639 - 1699) والشاعر بيير كورني (1606 - 1684) ..

لكل مسرح قومي في الدنيا ثلاثة أبواب، هي: باب الجمهور المستمتع بالإنتاج،

وباب المنصة المسرحية، أي باب الفنانين صانعي ذلك الإنتاج وناسجي السحر المسرحي، وباب الإدارة التي تخطط وتؤلف البرنامج وتدير الإنتاج ..

ومن أبوابه الثلاثة زرت مع صديقي الحكيم الكوميدي فرانسيز ... وتابعت سيرة ذلك المسرح الذي عاصر كل النظم السياسية منذ إنشائه وقاوم الأزمات . فقد ولد في العصر الملكي وكاد ينقسم على نفسه في لهيب الثورة الفرنسية 1789 وأعيد تنظيمه أيام الاستبداد وعصر الإرهاب الفرنسي ، ثم تداركه الإمبراطور نابليون وهو في قمة حروبه الأوروبية فأعاد له الاستقرار ..

إن أقدم مسرح في الدنيا مضاءة أنواره إلى اليوم، إنه في ثلاثمائة سنة قدم مسرحيات موليير 29 ألف وستمئة ليلة! .. لو جمعتها معاً لوجدتها حوالي ثمانين سنة متصلة ...

ولكن هذا ليس المعنى الذي أراه ، وإنما معنى ذلك أن كل جيل من الشباب الفرنسي شاهد بعض مسرحيات موليير في السنوات الثلاثمائة المقصودة .

موليير فرنسا وجاحظ العرب لهم فكر اجتماعي وأخلاقي ورؤية بعيدة ، فضلاً عن أقلامهم الرشيقة وفكاهاتهم اللاذعة الذكية ونماذج الشخصيات الإنسانية التي يصورونها ، والمواقف الدرامية الكوميدية التي يبنيناها ... وتظل كلها أخاذة وساحرة وخلدة إلى اليوم .

في أجواء الثورة الفرنسية 1789 اتجهت الكوميدي فرانسيز إلى دعم الريبرتوار بأقلام جديدة، كان على رأسها فرانسوا فولتير (1649 - 1778) الفيلسوف والكاتب المسرحي .

وقد قدمت له أربعة آلاف ليلة مسرحية. والكاتب الفكاهي بيير دي بومارشيه

(1732 - 1799) وقُدِّمَتْ له ألفان وخمسةائة حفلة . وببير ماريفور (1688 - 1763)، و يبلغ نصيبه من الحفلات خمسة آلاف ليلة مسرحية ... إلى ما أضافته الفرقة إلى برامجهما من المسرح الحديث، وعلى رأسه جان بول سارتر وجان أنوي وألبير كامو .

لقد وُلد المسرح قبل عصر الكهرباء ومؤثرات الظل والنور وآليات تغيير المناظر ... إلخ، فاعتمد بذلك على الممثل والحوار ، أو قل الكلمة والممثل ، بينما كان الديكور محايداً أو غير موجود ، أو صورة ثابتة ، وبذلك لم يبرح التمثيل قاعة ما أو ساحة ما في خارج البيت ...

في ثلاثمائة سنة تطورت الفنون المسرحية حول النصوص الثابتة، فزادت النصوص فصاحة وبياناً لم تنقص منها وضوحاً أو جلاءً .

إن الكوميدي فرانسز ليس مجرد مسرح وفرقة، وإنما هو مؤسسة تعمل على عدة دور مسرحية منها جسر ريشليو، ومسرح الأوديون الكبير ومسرح الأوديون الصغير ، ومسرح ماريني وكلها في باريس . ولكن الفرقة تقوم أيضاً بالطواف بالأقاليم وبالعالم كله .

وحرص فرنسا على المحافظة على لغتها وآدابها، ونشر اللغة والأدب الفرنسي في أنحاء العالم ، فهل تعتبر فرنسا الكوميدي فرانسيز سفيراً فوق العادة للغة الفرنسية حتى تدعمها الدعم السخي؟!.. وكما قال لي موظف في وزارة الثقافة الفرنسية فإن الكوميدي فرانسيز من حراس النطق السليم للغة الفرنسية .

تلك هي الكلمة التي آثرت بها أن تعلمون معشر الشرق أن المسرح أبو الفنون وحارس اللغة ومشعل القومية.

obeikandi.com

## الفصل الخامس والعشرون

### كنت أعبد الشيطان

كنت أظن أنك المذل وأنك تهدي من تشاء .. الضارّ المقيت المذل عن صلف وعن كبرياء .. جبار البأس تكن للناس مكرًا ودهاء .. تقطع أيادي السارقين وترجم أجساد النساء .. تقيم بالسيف عدلاً فعدلك في سفك الدماء .. فيا خالق القاتلين قل لي أين هو إله الضعفاء .. لو كنت خالق الكل ما حرمت بعضهم البقاء .. وما عساک من القتل تجني غير الهدم والفناء .. فهل كنت أعبد جزارًا يسحق أكباد الأبرياء؟ .. أم كنت أعبد شيطانًا أرسل إلينا بخاتم الأنبياء .. حسبت الجنة للمجاهدين سيسكن فيها الأقوياء .. تمرّ وعنّب وتينٌ وأنهارٌ وخمرٌ للأتقياء .. خير ملاذ لجائعين عاشوا في قلب الصحراء .. وأسرة من ياقوت ثمين وهور تصدح بالغناء .. نحن عاشقات المؤمنين جننا ولبينا النداء .. جزاكم الله بنا فانظروا كيف أحسن الله الجزاء .. هل جنتك نكاحٌ وصياحٌ وإيلاجٌ دون انشاء؟ .. تجدد الحورَ الثيب بكرًا وأنت من تقوم بالرفاء .. هل كنت أعبد قوادًا يلهو في عقول الأغبياء؟

لزوميات أبو العلاء المعري ممتلئة في إثبات الله وتمجيده ووصفه بما ينبغي أن يوصف به من صفات الكمال. وليس في اللزوميات إنكار لله. وإنما فيها بيت يحتاج إلى شيء من البحث وهو قوله :

أما الأله فأمرٌ لست مدرکه \*\* فاحذر لجيلك فوق الأرض إسقاطًا

فرما كان هذا البيت يوهم أن أبا العلاء لا يعرف الإله ولا يثبتته، وأنه وإن

اعترف به في كتبه فإنما يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الناس واتقاء سخطهم، على قاعدته من اصطناع التقية والحرص على الاحتياط. وفيما كتب من المنظوم والمنثور ينفي الله كل النفي ويأباه أشد الإباء، ثم هو يخشى أن يقول ذلك وأن يعلنه لأن عامة الناس وجمهورهم لا يستطيعون أن يفقهوا مغزى هذا القول، ولا يفرقوا بين من لا يعرف الله، ومن لا يعرف حقيقته ...

إن الحقيقة المنطقية لله لا يمكن أن تُفهم، ولا أن يعرفها العقل معرفة مفصلة. غير أن أبا العلاء يفارق المسلمين في إثبات أن الله ساكن غير متحرك، ولا منتقل، أما المسلمون فينزهون الله عن أن يوصف بالسكون والحركة، لأن السكون عجز، ولأن الحركة عَرَض، وكلاهما عليه محال، وبأن الإله لم يوجد العالم، وإنما وُجِدَ وحده، وإذا فما عمل الإله وما قيمته؟

ولم يكن موقفي من الأزهر وعلماؤه ومشايخه موقف النَّد بل موقف الناقد الشاك فيما كانوا يحاولون باستماتة أن نحفظه عن ظهر قلب دون فهم ولا تعقيب، وأنا لستُ من هذا الفصيل لأن مشايخنا كانوا كاذبون!!! وأنشُر الآن دون وجل ما رفضه مشايخنا لأنني في مجتمع حر أكاديمي، للنقد فيه والتحليل قيمة وأهمية، وحتى الشك فيه مستحب. وقد سمعتُ فيما حاول مشايخنا أن أحفظه :

"إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا" (سورة النساء : 48).

وقد حاولت أن أشرح لمشايخنا ما يخالجي:

أحياناً كثيرة يصوّر الإله نفسه ويعبر عنها في صورة أقرب إلى الضعف البشري، فصورة الإله في الآية أعلاه أقرب ما تكون إلى صورة حاكم ديكتاتوري مستبد،

من أمثال أولئك الحكام الذين يجبرون أفراد شعوبهم على أن يعلقوا صورهم وينصبوا تماثيلهم في كل الأرجاء. هذا الإله المفترض أنه متصف بصفات الكمال وأنه منزه عن النقائص، يغفر الذنوب جميعًا، ولكنه لا يستطيع التسامح حين تحوم الشكوك حول الاعتقاد في ذاته. إله كامل ولكنه في نفس الوقت يعاني من كل هذه الحساسية والترجسية.

ليس هنالك ما يكسبه هذا الإله أو ما يكسبه الناس من أن يؤمن أحدهم به. ولن يخسر هذا الإله أو أحد الناس شيئًا في حال الإشراف أو عدم الإيمان به. وليس من سبب منطقي يؤدي بالإله إلى تعذيب من لا يؤمن به. ومع ذلك نجد مثل هذه الآية القرآنية أدناه:

"وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا" سورة الفتح .

ما الفرق بين من يؤمن بالله وبين من لا يؤمن بالله، أو بين من يؤمن بثلاثة آلهة أو بين من يؤمن بآلهة متعددة كالهندوس؟!

لا يوجد فرق يدعم التمايز الهائل بين الثواب الأبدي بالجنة والعقاب بالتخليد في جهنم. وليس ثمة فرق جوهري نوعي في القدرة الذهنية أو النفسية أو البدنية أو الاجتماعية بين المجتمعات التي تؤمن بالله والتي لا تؤمن به والتي تؤمن بآلهة متعددة.

كما لا يوجد فرق جوهري في الأخلاق والمثل والقيم والتصرفات.

فالمسلم يمكن أن يكون شخصًا جيدًا أو العكس. وكذلك الحال للهندوسي أو المسيحي واليهودي.

وفي إلحاح مني قلت :

- الآن دعونا نجيب عن السؤال مرة أخرى من ناحية مختلفة هذه المرة. ما الفرق بين من يؤمن بالله وبين من لا يؤمن بالله أو بين من يؤمن بثلاثة آلهة أو بين من يؤمن بألهة متعددة كالهندوس؟

الفرق هو صدفة مكان المولد والنشأة.

فمن وُلد في مجتمع مسلم سيصبح مسلمًا. ومن وُلد يهوديًا سينشأ وسيظل يهوديًا. ومن وُلد في مجتمع غير مؤمن بالله سينشأ وسيظل غير مؤمن به. هنالك ثلاث نقاط إذن:

النقطة الأولى: أن الله لو كان فعلاً إلهًا مترفعًا عن الصغائر لما اهتم بأن يؤمن به أحد أم لا، ولما صبَّ جام غضبه على من لا يؤمنون به أو من يشركون به. النقطة الثانية: ليس هنالك فرقٌ نوعي يبرر العذاب والسخط الرباني من الله على من لا يؤمن به أو من يشرك به.

النقطة الثالثة: وهي النقطة الأهم الإيمان بالله أو عدم الإيمان بالله أو الإيمان بعدة آلهة هو نتيجة حتمية لصدفة الميلاد.

هل يختار الإنسان أين يولد؟ على حسب الرؤية الدينية، فإن الله هو الذي يختار للفرد أين يولد. إذن ليس هناك مبرر لكل هذا السخط الإلهي على من لا يؤمن به أو على من يشرك به.

إذا كان عدم الإيمان أو الإشراف بالله ذنبًا. فمن الذي يستحق العقاب؟ أهو الفرد البشري الذي لم يكن له خيار في مكان مولده ومعتقد مجتمعه وبالتالي

معتقده؟ أم الله الذي اختار بكامل قواه العقلية وإرادته أن يولد الفرد البشري في ذلك المجتمع؟ وقد ألححت حتى وإن كان الطرد مصيري :

فلننتقل الآن إلى بُعد آخر لنفسية هذا الإله. ولنتمعن في الآيات أدناه: "خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمَنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ . وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ . اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ" سورة البقرة.

فالله في الآيات أعلاه قام بنفسه بالتحتم والتغشية على سمع وأبصار الضالين. وبدلاً من أن يساعدهم بعلاجهم من مرض قلوبهم، يزيدهم مرضاً. وبدلاً من أن يهديهم الله يقوم بالاستهزاء بهم ومدهم في الطغيان.

والله في الآيتين أدناه يعلن مفتخراً أن الأمر محسوم حسماً إلهياً مسبقاً. فالله هو الذي أضل هؤلاء الضالين وليس ثمة أمل من بعد ذلك في هدايتهم.

"فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَنْ تَجِدَ سَبِيلًا" سورة النساء .

"مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَنْ تَجِدَ سَبِيلًا" سورة الأعراف.

وها هو تفسير الآية أعلاه من ابن كثير: يَقُولُ تَعَالَى: مَنْ هَدَاهُ اللَّهُ فَإِنَّهُ لَا

مُضِلٌّ لَهُ وَمَنْ أَضَلَّهُ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ وَضَلَّ لَا مَحَالَةَ، فَإِنَّهُ تَعَالَى مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ : (إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَسْتَعِزُّ بِهِ وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا. مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ" الْحَدِيثُ بِتَمَامِهِ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ وَغَيْرِهِمْ .

فالله الإسلامي هو الذي اختار أن يهدي أو أن يضل الفرد البشري. ولكنه يأتي لاحقاً في تناقض صارخ مع نفسه ليضع مسؤولية الضلال على الفرد البشري. والله يعتريه ما يعترى ضعاف البشر من انفعالات السعادة والغضب والسخط.

"قُلْ هَلْ أَنْبَأُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ مُثَبِّتٌ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ لَعْنَتِهِ اللَّهُ وَغَضَبِ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ" سورة المائدة .

"قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رَجْسٌ وَغَضَبٌ أَتَجَادِلُونِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ" سورة الأعراف.

"بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ" سورة البقرة .

"وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ" سورة البقرة .

"صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ" سورة الفاتحة.

والله في القرآن له الكثير من الصفات غير اللائقة بإنسان ذي أخلاق عالية فضلاً عن إله منزّه عن النقائص. فالله متكبر وجبار وقهار ومنتقم ومكار. "وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ" سورة آل عمران .

وعند النقاش مع بعض من ينتمون للإسلام يحاولون التملص بادّعاء أن النص لا يعني ما يعنيه ظاهر اللفظ. وأن الكلمات لا تعني ما تعنيه الكلمات. وكأنما هذا الإله الكامل القدرة قد أعياه أن يأتي بنص أو كلمات تحمل معناها.

وبعض الإسلاميين يقدمون نصوصاً قرآنية مضادة وهم لا يدرون أنهم بهذا الفعل إنما يبرهنون على التناقض الموجود في نصوص الكتاب.

والإسلام يتفنن في تصوير كيفية أن الله شديد العقاب، وكيف أنه شديد العذاب والبطش. وهو وصف يليق بفرد بشري له نزعات سادية ولا يليق بإله.

في الإسلام , الغرض الوحيد من خلق الإنسان والشياطين هو عبادة الله. إله كامل القدرة يحتاج إلى عبيد !

"وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ" سورة الذاريات .

والله على حسب الزعم المحمدي يحتاج إلى النصره والقتال في سبيله. وهذا إبداع محمدي لحث أتباعه على الحرب وإقناعهم بالقتال معه.

"وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" سورة البقرة.

"وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ" سورة البقرة .

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ" سورة محمد.

## تفسير الطبري للآية:

وَقَوْلُهُ : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنَصَّرُوا اللَّهَ يُنصِرْكُمْ " يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، إِنْ تَنَصَّرُوا اللَّهَ يُنصِرْكُمْ بِنصِرْكُمْ رَسُولُهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَعْدَائِهِ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ بِهِ وَجِهَادِكُمْ إِيَّاهُمْ مَعَهُ لِتَكُونَ كَلِمَتَهُ الْعُلْيَا، يُنصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ، وَيُظْفِرْكُمْ بِهِمْ، فَإِنَّهُ نَاصِرٌ دِينِهِ وَأَوْلِيَاءُهُ. كَمَا حَدَّثَنَا بِشْرٌ، قَالَ: ثَنَا يَزِيدٌ، قَالَ: ثَنَا سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ، قَوْلُهُ: إِنْ تَنَصَّرُوا اللَّهَ يُنصِرْكُمْ لِأَنَّهُ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُعْطِيَ مَنْ سَأَلَهُ، وَيُنصِرَ مَنْ نَصَرَهُ.

والقتال في سبيل الله أو ما يسمى بالجهاد هو واحد من أكبر عيوب الإسلام المملوخ بالدماء. ولقد كان تقنين محمد للجهاد باسم الله سببًا في مذابح وحرورٍ لقرونٍ طويلة قُتل فيها كثيرون، كل ذلك باسم الله وفي سبيله. إن إلهاً كاملاً لا يحتاج إلى هذه المذابح. وإله عاقل حكيم لن يثير الكراهية بين من خلقهم بنفسه.

هذه بعض خلجات نفسي التي كانت تراودني في صحن الجامع الأزهر وحول أعمدته المنافقة، والتي يلقبون أصحابها بالعلماء وهم بعيدون كل البعد عن العلم والعلماء. وما لهم من علم إلا في القرآن والأحاديث والسنن والمتون والشروح، وشرح الشروح، ويعتقدون أنهم وصلوا إلى مرتبة العلماء، ولا يقبلون سؤالاً من طالب أو باحث، أما ناقد أو شاك فكانه الطرد من الدرس غير مأسوف عليه كما حدث معي في معظم دروس القرآن والسنة والتفسير والأركان. ورُميتُ بالكفر والإلحاد. أما العلماء والأساتذة الذين نسمع بهم وندرس عنهم في جامعة السربون والكليج دي فرانس فيرحبون بكل نقد ونقاش وشك وبحت لنصل إلى الحقيقة، وهذا ما أهلهم لأن يكونوا سادة الأرض ونحن العرب سادة السماء. هم يأكلون ويشربون ويعلمون، ونحن العرب لنا الجهل رغم بترونا! ولنا الفقر رغم أموالنا!

ولنا المرض رغم ملاحظتنا! ... حكامنا العرب متعطشون إلى الجهل، وهم يرحبون بالحكمة، نحن نهول وراء الجديد، وهم يخترعون وسائل المعرفة، ونحن نفتخر بعجزنا! نحن العرب نعبد ونسجد ونطيع ونسبح ونكرم ونمجد وندعو ونكبر الإله الواحد الأحد، ورسوله عليه الصلاة والسلام، وهم يعبدون الشيطان!

وبعد أن آمنتُ بكل الشك وجدتُ أخطاء وذنوب الإله كثيرة لأنه هو المعلم لا المتعلم. وأن الزعامات العربية والقيادات العربية تعلمتُ منه، وهذا أقبح ما فيها يا إلهي! لماذا يا إلهي تصر أن تكون موجوداً؟! وما الذي يُفرك أو يسعدك أو يمجدك أو يرضيك في أن تكون موجوداً؟! كما أنت موجود في المكان والظروف والمواجهات التي أنت فيها موجود لكي تكون محكوماً عليك بأن تواجه وترى وتسمع وتقرأ وتعايش وتعاشر وتستقبل كل عاهات وتشوهات وقباحت ووقاحات وأنات وصراخات وآثام وآلام وفضائح كل هذا الوجود وكل شيء. ولكي تكون مسؤولاً عن كل ذلك ومفسراً مرئياً به بل وفاعلاً له!.

جاءنا صديق الحكيم نبأ من مصر ومن سوريا ومن اليمن ومن ليبيا ومن تونس وموريتانيا والسودان ولبنان والعراق والصومال والحبشة، وكل العالم العربي لم أجد أبشع ولا أقبح ولا أذل من فعلتك في سوريا، هل أنت يا إلهي شاذ تجعل كل سعادتك وفرحك ومجدك وكبريائك في أن ترى وتواجه وتسمع وتعايش وتعاشر بل وتريد وتشتهي وتعشق وتحفظ كل هذا القبح والدمار والغباء والألم والتفاهة والعبث والافتضاح والعار والهوان ثم تفعله؟! إنك يا إلهي العلة والخطيئة! آتي إليك محدثاً عن آلامي وفواجعي، ولكني لا بد أن أفهمك وأعذرک وأغفر لك يا إلهي إن لم تصدقني! ألسنت عربيّاً؟ وهل يجوز أن يُلام من لم يصدق العربي؟ لن أعذرک لو صدقت أي عربي بعد أن جربت وعرفت كل

العرب في كل تاريخك وتاريخهم!. أيكما أكثف غفلةً وتغفيلًا؟ أنت حينما رأيت أن وجودك وإعلانه تكريمًا لك أم المؤمن بك؟ وحينما عجزتما عن أن تفهما أنه لا تحقير أو تلويث أو تشويه أو تعذيب أو اتهام مثل التحقير والتلويث والتعذيب والإيذاء لك بزعمك موجودًا! كما شاهدناه وعايناه وعاشناه في آلام وتشرذ وأنات وعذابات وحرق ودمار وخراب سوريا العربية. لقد ذهب المؤمنون بك يفعلون ويقولون ويعلنون وينشدون ويقرءون ويفسرون ما حل بسوريا ومصر وكل العالم العربي، ذلك كلما أمطرتهم وأغرقتهم وأحرقتهم بكل الأويئة والمجاعات والتشرد والقباحات والوقاحات والمظالم والآلام. يا إلهي المخدوع والمكذوب عليه والمخدوع به وباسمه أبدًا!..!

أليس العرب حتمًا بعضًا من البشر؟ أي أليسوا يهتفون لعدالة وشهامة وحكمة ورحمة وبسالة وعظمة حكاهم وطغاتهم بقدر ما يقاسون ويرون ويعرفون من جورهم ونذالتهم وجهالتهم وضآلتهم وقسوتهم وجبنهم وضلالهم وقياداتهم المدمرة؟ أليست الصحافة والإذاعة والنقابات والإعلام العربي يفعلون ذلك جنبًا ونفاقًا وخداعًا واحتيالًا؟ وأيضًا يفعلونه جهلاً وغباءً ونذالةً وتقليدًا وميراثًا واستمرارًا واحتياجًا إلى الهتاف والصراخ والتعبير الذي يشبه الاستفراغ والاستنطاق والبصق؟ أليس الإنسان العربي يؤمن ويصلي ويتعبد ويهتف ويمدح أحيانًا لأنه محتاج إلى أن يستفرغ بالصوت والحركة لا لأنه محتاج إلى الإله والقائد والزعيم والأمير والسلطان؟

ومن هنا من منبر الحرية من قلب باريس أقول: أليست كل الزعامات والقيادات العربية الجبانة في كل التاريخ لا تستحق إلا الطرد والصلب؟ وتقول لي كنت أعبدُ شيطانًا!..!

ورؤيتك وتفسيرك وإعلانك كل الجمال والحب والرحمة والحكمة والعدل والذكاء ومدحك بكل ذلك، بينما أنت النقيض الحاد الشامل لكل هذا، هو الذي لقن وعلم وروض البشر ولا سيما العرب على أن يفعلوا الشيء نفسه مع قاهريهم ومذليهم من الحكام والقادة والأنبياء أيضًا، وكنثُ أعبد شيطانًا..! . أَلَسْتَ يا إلهي الذي علم العرب أن يعبدوا حكامهم وزعماءهم وأنبياءهم وقادتهم؟ وأن يروهم كل الجمال والرحمة والحكمة والحب حيث كان الواجب أن يطردوهم ويصلبوهم ويلعنوهم، وأن يروهم ويفسروهم ويملؤوهم كل السفاهة والوحشية والضلال والبغضاء؟ وتقول لي كنت أعبد شيطانًا..!

- كفي اليوم يا آنسة سوزان لأنني أجهدتك بالكتابة.

- لا يا سيدي فالعمل معك سعادة بالرغم من أنني لا أتفق مع ما تذهب إليه في بعض الحديث.

- لأنك تربيته في بيت مؤمن برب ولم تحاوري بيتك فيما أملوه عليك.

- وأنت هل حاورت؟

- أشك وأشك كثيرًا في علم من علمني؛ لا آخذ الأمور على علاتها بل أحللها إلى أصلها لأفهمها؛ لأن التعليم لا بد أن يقوم على الفهم والتحليل، لا على الحفظ والتلقين. وتلك هي طامة التعليم في مصر وسبب تأخرها وزحفها المستميت إلى الماضي. أما التطلع إلى المستقبل فليس في حسابان القائمين على شئونها.

- أعتقد أنه لذلك أنت هنا في فرنسا لتزداد علمًا وتثير الطريق لبني جلدتك.

- هذا صحيح، ولنا في ذلك حديث آخر.

obeikandi.com

## الفصل السادس والعشرون

يظهر الحكيم فجأةً كما يحتفي. يظهر بعظمته خلف نظارته ملوِّحًا بعصاته مرة على الأرض ومرات يمنةً ويسرة، تحت إبطه كثيرٌ من الأوراق المهملة الشكل، جائز أنها جرائد قديمة أو دليل المسارح أو أوراق كتبها وأخرى لم تكتب بعد. اتجه أول ما اتجه إلى طاها، استقبله الأخير كعادة الأصدقاء بعد غيبة طالت أو قصرت بالحب والترحاب في غرفة طاها التي لم يسع فضاؤها ترحابهما ببعضهما ووحشتهما منذ لقاء مسرح بيت موليير وافتراقهما على أمل اللقاء الذي طال، مما أثار شكوك طاها، لكنه الآن أمامه وعليه العتاب والسؤال:

- أين كنت يا رجل دون أن تترك خبرًا؟

- أنا موجود وغير موجود! أنا سائح في مقاهي باريس، كلما استقر بي المقام في واحدة أجد لذي في الأخرى، فهنا أكتب وهناك أسمع، وهناك ألتقي بمن لا أعرفه من أدباء وفنانين.

- ما زالت عادة المقاهي لديك من القاهرة؟

- المقهى هو مكاني الاجتماعي.

- تقول كذلك منذ كنا نلتقي على مقهى ريش مع سليمان نجيب ولويس عوض وغيرهما.

- لكل عصر مقهاه الذي يصنع الأدباء، ولكل مقهى أدباؤه الذين يطبعون العصر.

- أنت خير في مقاهي باريس؟!

- لأن المقهى مكتبي وبيتي، كما هي مقاهي القاهرة ملجأ الأدباء والشعراء، وحيث يتوفر لهم ما لم يوفره بيتهم أو حميمهم، فهي حل لكل مشاكل.

- إن المكان دائماً يصنع موهبةً، وينمي تجربةً، فيولد أديباً هنا وشاعرًا هناك، وما يتحدث فيه هؤلاء الأدباء حينما يتواجدون جميعًا بالمقهى، وحياتهم وعلاقتهم ببعضهم وبالبشر من رواد المقاهي، وأثر كل هذا في إبداعاتهم.

- هكذا القاهرة وإبداعاتها في جو من الحرية والألفة واختلاط الأجيال.

- من مقاهي القاهرة بجانب مقهى ريش - الذي غضبث عليه السلطة المصرية المؤمنة وأغلقتة - مقاهٍ شهيرة مثل مقهى وكازينو صفيحة حلمي، ومقهى البوسطة بميدان العتبة، وترجع شهرته إلى الشيخ جمال الدين الأفغاني الذي اتخذه - خلال فترة إقامته بمصر - مكاناً للقاء تلاميذه؛ ليتمكن رواد المقهى من الاستماع إلى آرائه وآراء تلاميذه، والمشاركة في الحوار، فقد كان الأفغاني يجلس في صدر المقهى وتلتف حوله نصفُ دائرة من تلاميذه الذين يتسابقون إلى إلقاء أسئلتهم عليه، ويروى أنه كان يمضي الليل بالمقهى حتى طلوع الفجر فيعود إلى داره بعد أن يدفع لصاحب المقهى ثمن كل ما طلبه جلساؤه من مشروبات، وكان من بين هؤلاء التلاميذ الشيخ محمد عبده، والشاعر محمود سامي البارودي، والسياسي سعد زغلول، وعبد الله النديم المناضل الوطني، وإبراهيم الهلباوي، ويعقوب صنوع؛ الذي أدخل فن المسرح إلى مصر.

- أنت خير في مقاهي القاهرة كما أني خير في مقاهي باريس التي تصنع الأدباء والشعراء والفنانين؛ بل تصنع عصراً.

ابتسم طاهها ابتسامته المشرقة التي تشف عما سيعلنه من أخبار سعيدة، وعندما يشعل سيجارته، وقد لاحظ الحكيم ارتعاش يده وقال:

- ما بك يا صديقي هون عليك وقل لي ماذا تخفي عني؟

- لا أخفي بل أعلن على الملأ أني سعيد؛ ولم أسعد إلا بهذا الخبر المفرح حقاً.  
- أتتلك رسالة من سوزان!

- نعم كما وعدت، إن وافقت على الزواج مني سترسل لي رسالة، وها هي الرسالة التي كنت أنتظرها، وكانت بالنسبة لي نهاية العالم والذي سيبدأ عنده عالم جديد، وأدركت أن هذا التبادل العميق في الأفكار والمشاعر قد شق لنا طريقاً نحو أدغال القلب الأشد كثافة، ورسالتها غدونا نمتلك معرفة غامضة لا يمكن أن يتداولها أو يتسلمها أو يفسرها أو يفهمها إلا أولئك الذين يندر وجودهم. أولئك الذين يكملوننا في الدنيا، إن صداقتي مع سوزان قد نضجت إلى الحد الذي قد غدا فيه كل منا شريكاً في امتلاك الآخر.

- إننا أبناء الطبيعة المحيطة بنا!

- هذا حق. إنها تلمي علينا سلوكنا، وحتى فكرنا بالقدر الذي نستجيب به لها.  
- شكك مثلاً... والذي يتضمن قدراً كبيراً من القلق. وهذا التعطش للحقيقة المطلقة ليختلف إلى حد بعيد عن الشك اليوناني، عن التلاعب الذهني الذي تتميز به عقلية البحر المتوسط والذي يلجأ عامداً للفسفسطة كجزء من لعبة الفكر، لأنني أعتقد أن فكرك سلاح ولاهوت.

- لكن كيف يُحكم على الفعل بغير هذه الطريقة؟

- لا يمكن أن يُحكم عليه حكمًا شاملًا قبل أن يُقَيَّم الفكر ذاته! فأفكارنا ذاتها إنما هي أفعال!

- ولذلك فإن محاولة إصدار أحكام جزئية على أي منها هو الذي يقود إلى الريب والشك.

- أنت صادق يا طاها في شعورك.

- لأنها كذلك .. لكن هناك مشكلة من أهلها؟

بدا الاحتجاج في لهجة الحكيم وهو يُعقب قائلاً:

- مشكلة لغوية أم دينية أم سياسية أو عرقية؟

- لا هذا ولا ذاك! أسرتها متفتحة تمارس الدين بحب. ولا تعمل بالسياسة، أما اللغة فأتحدها كأهلها، ولا حتى العرق لأنهم أسرة متحررة.

- ما المشكلة إذًا؟!

- المشكلة تكمن في أنهم يخشون على ابنتهم الرحيل إلى بلاد لا يعرفون عنها شيئًا.

ضحك الحكيم وقال:

- إن لم يسمعوا عن مصر فعلى الأقل يعرفون أن نابليون أغار عليها في حملة علمية وعسكرية فاقت الوصف.

دق باب الغرفة عن قادم يعرف طاها تمامًا دقائقه التي دقت معها أجراس قلبه  
ونادى:

- تفضلي يا سوزان.

دخلت سوزان وقبلت طاها على وجنتيه وقبلت الحكيم على وجنتيه، وجلست بجوار طاها ممسكةً بيده بين راحتها وقالت:

- إن كنت تسببتُ في قطع حديثكما فيمكن أن فيما بعد؟

ضحك الحكيم وقال:

- كنا نتحدث عنك!

ابتسمت سوزان وقالت:

- بالخير أم بالشر؟

قال طاها:

- بالخير دون شك يا عزيزتي.

وقال الحكيم في مرح:

- هيا بنا، سأدفع لكما ثمن مشروبٍ احتفاءً بلقائنا في إحدى مقاهي السان جيرمان.

وافقت سوزان ووافق طاها، وسار ثلاثتهم بجادة السان جيرمان الأهله بالفن والموسيقى والشحاذين الظرفاء، حتى لاح لهم مقهى "الديه ما جو" أمام ساحة كنسية القديس جيرمان، وقد فرش المقهى "التيراس" أي الطاولات المستديرة والكراسي الخيزران من حوله بما ذكرهم بمقاهي القاهرة الأدبية، وخاصة مقهى ريش ولقاءات الأدباء أيام الجمع. تعرفوا على العديد من رواد الديه ماجو من مجموعة

السورياليين والوجوديين والبارناسيين وغيرهم من أصحاب الفن والاتجاهات الأدبية، الذين يأْمون مقاهي السان جيرمان.

فضلتُ سوزان أن تجلس مع أصدقائها داخل المقهى وليس على التراس الخارجي، وكذلك الحكيم وطاها، واستقبلهم النادل من على الباب - وكأنهم الزبائن الوحيدون للمقهى - مُرَجَّبًا مُتَجَهًّا بهم إلى طاولة في داخل المقهى غير بعيد عن طاولة بول سارتر وسيمون دي بوفوار ...

ألقي التحية عليهم في ودّ وجلس ثلاثتهم.

سألت سوزان:

- فيم كنتم تتحدثان بشأني؟!

قال الحكيم:

- بكل خير كما ذكرتُ لك.

قالت سوزان ضاحكة:

- أعرف جيدًا مجاملاتك أما طاها فسوف يقول الحقيقة! وأعدت السؤال على طاها.

فأجاب بابتسامة لا تخلو من جدّ:

- صديقنا الحكيم لا يقول إلا الحق، تحدثنا عنك وعن رحلتك إلى مونيبييه وكيف استقبلتُ عائلتك خبر ارتباطك بي.

قال الحكيم:

- أليس هذا حدثًا جلالاً علينا أن نعد له؟

قالت سوزان:

- عليكما أن تتفهما أن عائلتي ليست رجعية، ولا ملكية ولا تقدمية ولا جمهورية، عائلتي متوسطة الحال، تربينا على الصدق وقول الحق. أما تعاليم الإنجيل فهي خاصة وشخصية جدًا لا جبر فيها! بل هي تعاليم اجتماعية نأخذ منها وقت الحاجة لإرشادنا إلى السلوك القويم في حب الناس والمجتمع.

قال الحكيم:

- وتلك هي تعاليم الديانات جميعًا.

قال طاها:

- نحن هنا لسنا نتحدث عن الديانات؛ بل نتحدث عن مدى موافقة أسرتك على زواجنا؟ أما المسألة الدينية فلك دينك ولي ديني!

قال الحكيم:

- هذا هو الطريق الصحيح.

قالت سوزان:

- أسرتي لم تتحدث عن الدين؛ بل عن زواجي ورحيلي إلى بلادٍ لا يعرفونها!

لمحت سوزان قريبها أندريه بمكان غير بعيد عنهم، فلوح لها بيده، وتقدم إليهم طابعًا قبلتين على وجنتيهما، ومُرحبًا بجليسيها، شادًا على يديهما بوَدٍّ وصدائقةٍ وألفةٍ، وقبل أن ينصرفَ طلبتُ منه سوزان أن يجلس معهم إن كان غير مرتبط بميعاد.

جلس أندريه وطلب كأسًا من الكونياك النابليوني المعتق، واستمع إليهم وهم يتحاورون بشأن زواج طاها من سوزان.

قال أندريه بعد أن استمع جيدًا:

- الطريق المستقيم لا يؤدي إلا إلى الهدف المنشود. ومن ينطلق إلى المجهول عليه الرضا بالمغامرة وحيدًا.

قال طاها:

نحن في حاجة إليك لإقناع أسرتها.

قال الحكيم:

- وخاصةً مسألة رحيلها مع طاها.

قال أندريه موجهاً الحديث إلى قرييته:

- لا يكتشف المرء بلادًا جديدة إلا إذا قبل أن يغيب الساحل عن ناظريه لفترات طويلة. وأجمل الأشياء هي ما يقترحها الجنون ويكتبها المنطق. أليس هذا ما أنتم فيه؟ ومع ذلك لقد تحدثت مع والدتك في هذا الأمر، وقد سبق وقلت لها كل شيء، لكن وبما أنه لا أحد يسمع فعلينا تكرار كل شيء من البداية.

قالت سوزان:

- لا أعرف أنك تحدثت مع والدتي في هذا الأمر!

قال أندريه موضحًا:

- هي التي فاتحتني عندما علمت بمعرفتي بطاها. وقلت ما قلت لكم، بل زدت على ذلك بأن ذكرت لها وفاء طاها وقلت رأيي بصراحة.

قال الحكيم:

- ومهما كان رأيك في طاها، فهل أقنع أهلها؟

قال أندريه موجها كلامه لطاها:

- لتكن وفيًا لما يوجد بداخلك أنت فقط، فأنت بذلك تجعل من نفسك شخصًا لا غنى عنه.

قال طاها:

- أشكرك يا أندريه على معونتك وفضلك في هذا الأمر الجليل.

قال أندريه:

- لا تعتمد علي كثيرًا. بل الأمر سيعود إلى القس الذي تتمتع الأسرة بثقته وهو صديق الأسرة ومستشارها، وكما علمت منه أنه في شوق للتعرف عليك والحديث إليك.

قال الحكيم:

- وتلك هي حجة أخرى للسفر إلى موبلييه.

قال طاها مُرحبًا:

- علينا إذًا الاستعداد للسفر، أليس كذلك يا سوزان؟!

قال أندريه:

- وهناك تجزأ على أن تكون نفسك.

واستأذن بعد أن شرب ما بقي من الكونياك النابليوني المذهل، وذهب ليزدوب مع أسرته الأدبية التي تملأ مقاهي باريس بنكهتها الوجودية والسوريالية والبارناسية و الرمزية، وأهلها من بول سيزار وأندريه بريتون ودياجو ورينوار وفيريدا وبيكاسو وبول فيرلين وألبير قصيري الكاتب المصري الذي لم يكن يعجبه ما آلت إليه بعض المقاهي من كثرة السياح.

## الفصل السابع والعشرون

سافر طاها وسوزان إلى موبلييه؛ لمقابلة القس صديق أو مستشار أسرة سوزان. ساح الحكيم كعادته في التنقل من مقهى لآخر سائحًا أو مهاجرًا بين الأحياء، لا يتوقف ولا يعطي لنفسه متعة الراحة من القراءة والتأمل والكتابة والحديث والاستماع. قادته قدماه هذا الصباح إلى مومبرناس حيّته الشهير، بعد أن ودّع سوزان وطاها، توقف أمام كشك بيع الجرائد الكبير في ساحة ممبرناس ... به كل الجرائد والمجلات ... وبعض الكتب بلغاتٍ عديدة بعضها لم يسمع عنها الحكيم، ولكون باريس بها مندوبٌ سامٍ لكل القوميات في العالم، إذاً فلا بد أن يكون هناك جريدة أو مجلة أو كتاب أو حتى منشور يتحدث عن تلك القومية التي لم يسمع بها، فقد جمع الحكيم عديد الجرائد والمجلات الفرنسية وجريدة مصرية واحدة، وكانت الأهرام، لأنه لمح أن بها مقالًا عن طاها حسين وضرورة عودته إلى مصر، هذا الأعمى الملحد الكافر، طوى الجريدة وسار مطأطأ الرأس مرتكزًا على عصاه التي كادت ألا تحمله من ثقل رأسه وما فيها، وصادف أول مقهى على يمينه "لاكوبول"، ابتسم له النادل مُرحّبًا، وقاده إلى طاولة يفضلها الحكيم منزوية بعيدًا، وطلب قهوة إكسبرسو ووضع الجرائد والمجلات على كرسي بجواره، وشرع في فك غلاف قطعة السكر وبسطه بأصابعه الماهرة على رخام الطاولة المستديرة، وأمسك قالب السكر بطرف أصبعه وغمسه حتى منتصفه في فنجان القهوة ثم وضعه على طرف أسنانه لتذوب حلاوته المشبعة بوجه القهوة على لسانه وحلقه ... وابتسم ابتسامته الرضى والنصر؛ لأن صديقه طاها قد جاوز المدى. وبدأ ينتبه

إلى نفسه بأول رشفة من القهوة الأكسبرسو الشديدة الوقع على اللسان والحلق والدماغ أيضاً.

هل فعلاً طاهها كافر؟ وهل فعلاً طاهها ملحد؟ تلك أسئلة لم تحيره كثيراً لأنه يعرف تماماً أن صديقه ليس بكافر، وأن صديقه ليس بملحد. لكنه مفكر؛ ويريد أن يصل بتفكيره إلى أسس الحقيقة وقلب المعرفة، ومعتزك الحداثة التي نحن على أبوابها، وفتحتها العلم. العلم التحليلي النقدي، وهل لكونه ناقش مشايخ الأزهر يعد كافراً وهل لكونه بحث وحلل يعد ملحدًا؟ وما أشد حاجة مصر الآن إلى هذا البحث، وهذا التحليل، وهذا النقد؛ لتصل إلى العصر الحديث ومنه إلى ما بعد الحداثة لتنتقل إلى عصر المعرفة ... لهذا عدُّ طاهها كافرًا لأنه حاول أن يُعدَّ عقول الشباب للبحث والتحليل! طاهها الذي هتف بأن يكون العلم للجميع، والمعرفة حرة للجميع، بل زاد على ذلك بأن يكون السكن أيضاً حقاً من الحقوق الإنسانية والتي على المجتمع أن يوفر لكل فرد فيه مسكناً لائقاً إنسانياً دون مقابل، كالتعليم والصحة والعمل، وبعدها حدثنا عن حقوق الإنسان والديمقراطية، أعطى حريتي أولاً في التعليم والصحة والسكن المجاني ثم قل لي ما تشاء عن الديمقراطية!!!

تصفح الحكيم "المجلة الفرنسية للأداب" ففاجأه في داخل العدد صورة لطاهها ومقال قدمته المجلة عنه في عددها السنوي ضمن الشخصيات التي أثرت في العالم:

مقدمة وتعريف بطاهها حسين والأفكار التي طرحها في كتابه الذي تمت مصادرتة:

طاهها حسين من الرواد الذين نادوا بتبني المنهج العلمي في البحث، ذلك المنهج

الذي تعتبر أهم أدواته وآلياته الشك في الموروثات الثقافية والدينية والأدبية للوصول إلى أقرب ما يكون للحقيقة؛ بدلاً من التسليم الساذج بتراث القدماء الأسطوري الخرافي الذي لا يستند على قرائن أو أسس علمية تاريخية.

يكشف طاها حسين في كتابه في الشعر الجاهلي مصادر أسطورية المعتقدات الدينية الزائفة مثل الاعتقاد بشخصيات لا يعرفها التاريخ مثل إبراهيم وإسماعيل ، وبنائهما للكعبة المكية، وعلاقة العرب باليهود بكونهما أبناء عمومة، فهذه المعتقدات كانت حيلة من القدماء العرب، وهي أساطير ملفقة احتضنها العرب واحتضنها الإسلام لتحقيق مكاسب مادية أو معنوية. وقدمت المجلة الواسعة الانتشار مقتطفات من الكتاب:

#### فصل: منهج البحث

"أحب أن أكون واضحًا جليًا. وأن أقول للناس ما أريد أن أقول دون أن أضطربهم إلى أن يتأولوا ويذهبوا مذاهب مختلفة في النقد والتفسير، والكشف عن الأغراض التي أرمي إليها. أريد أن أريح الناس من هذا اللون من ألوان التعب، وأن أريح نفسي من الرد والدفع والمناقشة فيما لا يحتاج إلى مناقشة. أريد أن أقول إنني سأسلك في هذا النحو من البحث مسلك المحدثين من أصحاب العلم والفلسفة فيما يتناولون من العلم والفلسفة. أريد أن أصطنع في الأدب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه ديكرت للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث. والناس جميعًا يعلمون أن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هي أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلوا تامًا، والناس جميعًا يعلمون أن هذا المنهج الذي سنحط عليه أنصار القديم في الدين والفلسفة يوم ظهر، قد كان من أخصب المناهج وأقومها

وأحسنها أثرًا، وأنه قد جدد العلم والفلسفة تحديدًا، وأنه غير مذاهب الأدباء في أدبهم والفنانين في فنونهم، وأنه هو الطابع الذي يمتاز به هذا العصر الحديث.

فلنصنع هذا المنهج حين نريد أن نتناول أدبنا العربي القديم تاريخه بالبحث والاستقصاء. ولنستقبل هذا الأدب وتاريخه وقد برأنا أنفسنا من كل ما قيل فيهما من قبل، وخلصنا من كل هذه الأغلال الكثيرة التي تأخذ بأيدينا وأرجلنا ورءوسنا؛ فتحول بيننا وبين الحركة الجسمية الحرة أيضًا.

نعم! يجب حين نستقبل البحث عن الأدب العربي وتاريخه أن ننسى قوميتنا وكل مشخصاتها، وأن ننسى ديننا وكل ما يتصل به، وأن ننسى ما يضاد هذه القومية وما يضاد هذا الدين؛ يجب ألا نتقيد بشيء ولا ندعن لشيء إلا مناهج البحث العلمي الصحيح. ذلك أننا إذا لم ننسَ قوميتنا وديننا وما يتصل بهما فسندطر إلى المحاباة وإرضاء العواطف، وسنغل عقولنا بما يلائم هذه القومية وهذا الدين. وهل فعل القدماء غير هذا؟ وهل أفسد علم القدماء شيء غير هذا؟ كان القدماء عربًا يتعصبون للعرب، أو كانوا عجمًا يتعصبون على العرب؛ فلم يبرأ علمهم من الفساد؛ لأن المتعصبين للعرب غلوا في تمجيدهم وإكبارهم فأسرفوا على أنفسهم وعلى العلم؛ ولأن المتعصبين على العرب غلوا في تحقيرهم وإصغارهم فأسرفوا على أنفسهم وعلى العلم أيضًا.

كان القدماء مسلمين مخلصين في حب الإسلام، فأخضعوا كل شيء لهذا الإسلام وحبهم إياه، ولم يعرضوا لمبحث علمي ولا لفصل من فصول الأدب أو لون من ألوان الفن إلا من حيث إنه يؤيد الإسلام ويعزه ويعلي كلمته. فما لاءم مذهبهم هذا أخذوه، وما نافرهم انصرفوا عنه انصرافًا. أو كان القدماء غير المسلمين يهودًا أو نصارى أو مجوسًا أو ملحدين أو مسلمين في قلوبهم مرض وفي نفوسهم

زيغ، فتأثروا في حياتهم العلمية بمثل ما تأثر به المسلمون الصادقون؛ تعصبوا على الإسلام ونحوا في بحثهم العلمي نحو الغض منه والتصغير من شأنه، فظلموا أنفسهم وظلموا الإسلام وأفسدوا العلم وجنّوا على الأجيال المقبلة. ولو أن القدماء استطاعوا أن يفترقوا بين عقولهم وقلوبهم، وأن يتناولوا العلم على نحو ما يتناوله المحدثون لا يتأثرون في ذلك بقومية ولا عصبية ولا دين ولا ما يتصل بهذا كله من الأهواء، تركوا لنا أدباً غير الأدب الذي نجده بين أيدينا، ولأراحونا من هذا العناء الذي نتكفه الآن.

ولكن هذه طبيعة الإنسان لا سبيل إلى التخلص منها. وأنت تستطيع أن تقول هذا الذي نقوله في كل شيء. فلو أن الفلاسفة ذهبوا في الفلسفة مذهب ديكارت منذ العصور الأولى، لما احتاج ديكارت إلى أن يستحدث منهجه الجديد. ولو أن المؤرخين ذهبوا في كتابه منذ العصور الأولى مذهب سينيوس بوس لما احتاج سينيوس بوس إلى أن يستحدث منهجه في التاريخ. وبعبارة أدنى إلى الإيجاز: لو أن الإنسان خلق كاملاً لما احتاج إلى أن يطمع في الكمال.

فلندع لوم القدماء على ما تأثروا به في حياتهم العلمية مما أفسد عليهم العلم. ولنجتهد في ألا نتأثر كما تأثروا وفي ألا نُفسد العلم كما أفسدوه. لنجتهد في أن ندرس الأدب العربي غير حافلين بتمجيد العرب أو الغض منهم، ولا مكترئين بنصر الإسلام أو النعي عليه، ولا معنيين بالملاءمة بينه وبين نتائج البحث العلمي والأدبي، ولا وجلين حين ينتهي بنا هذا البحث إلى ما تأباه القومية أو تنفر منه الأهواء السياسية أو تكرهه العاطفة الدينية. فإن نحن حررنا أنفسنا إلى هذا الحد فليس من شك في أننا سنصل ببحثنا العلمي إلى نتائج لم يصل إليها القدماء. وليس من شك في أننا سنلتقي أصدقاء سواء اتفقنا في الرأي أو اختلفنا فيه. فما

كان اختلاف الرأي في العلم سببًا من أسباب البغض؛ إنما الأهواء والعواطف هي التي تنتهي بالناس إلى ما يُفسد عليهم الحياة من البغض والعداء.

فأنت ترى أن منهج ديكارت هذا ليس خصبًا في العلم والفلسفة والأدب فحسب، وإنما هو خصب في الأخلاق والحياة الاجتماعية أيضًا. وأنت ترى أن الأخذ بهذا المنهج ليس حتمًا على الذين يدرسون العلم ويكتبون فيه وحدهم، بل هو حتم على الذين يقرءون أيضًا. وأنت ترى أي غير مسرف حين أطلب منذ الآن إلى الذين لا يستطيعون أن يبرءوا من القديم ويخلصوا من أغلال العواطف والأهواء حين يقرءون العلم أو يكتبون فيه ألا يقرءوا هذه الفصول. فلن تفيدهم قراءتها إلا أن يكونوا أحرارًا حقًا."

### فصل: الشعر الجاهلي واللغة

"للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضًا، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي، فضلًا عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها. ونحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعًا من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة، وبين الإسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى. وأقدم عصر يمكن أن تكون قد نشأت فيه هذه الفكرة إنما هو هذا العصر الذي أخذ اليهود يستوطنون فيه شمال البلاد العربية ويثبتون فيه المستعمرات. فنحن نعلم أن حروبًا عنيفة شبت بين هؤلاء اليهود المستعمرين وبين العرب الذين كانوا يقيمون في هذه البلاد، وانتهت بشيء من المسالمة والملاينة ونوع من المحالفة والمهادنة. فليس يبعد أن يكون هذا الصلح

الذي استقر بين المغيرين وأصحاب البلاد منشأ هذه القصة التي تجعل العرب واليهود أبناء أعمام، لا سيما وقد رأى أولئك وهؤلاء أن بين الفريقين شيئاً من التشابه غير قليل؛ فأولئك وهؤلاء ساميون.

ولكن الشيء الذي لا شك فيه هو أن ظهور الإسلام وما كان من الخصومة العنيفة بينه وبين وثنية العرب من غير أهل الكتاب، قد اقتضى أن تثبت الصلة الوثيقة بين الدين الجديد وبين الديانتين القديمتين: ديانة النصارى واليهود.

فأما الصلة الدينية فتأبته واضحة، فبين القرآن والتوراة والأنجيل اشتراك في الموضوع والصورة والغرض، كلها ترمي إلى التوحيد، وتعتمد على أساس واحد هو هذا الذي تشترك فيه الديانات السماوية السامية. ولكن هذه الصلة الدينية معنوية وعقلية يحسن أن تؤيدها صلة أخرى مادية ملموسة أو كالملموسة بين العرب وبين أهل الكتاب.

فما الذي يمنع أن تستغل هذه القصة قصة القرابة المادية بين العرب العدنانية واليهود؟ وقد كانت قريش مستعدة كل الاستعداد لقبول مثل هذه الأسطورة في القرن السابع للمسيح، فقد كانت أول هذا القرن قد انتهت إلى حظ من من النهضة السياسية والاقتصادية ضمن لها السيادة في مكة وما حولها، وبسط سلطانها المعنوي على جزء غير قليل من العربية الوثنية.

وكان مصدر هذه النهضة وهذا السلطان أمرين: التجارة من جهة، والدين من جهة أخرى. فأما التجارة فنحن نعلم أن قريشاً كانت تصطنعها في الشام ومصر وبلاد الفرس واليمن وبلاد الحبشة.

وأما الدين فهذه الكعبة التي كانت تجتمع حولها قريش ويحج إليها العرب

المشركون في كل عام، والتي أخذت تبسط على نفوس هؤلاء العرب المشركين نوعًا من السلطان قويًا، والتي أخذ هؤلاء العرب المشركون يجعلون منها رمزًا لدين قوي، كأنه كان يريد أن يقف في سبيل انتشار اليهودية والمسيحية من ناحية أخرى. فنحن نلمح في الأساطير أن شيئًا من المنافسة الدينية كان قائمًا بين مكة ونجران. ونحن نلمح في الأساطير أيضًا أن هذه المنافسة الدينية بين مكة وبين الكنيسة التي أنشأتها الحبشة في صنعاء هي التي دعت إلى حرب الفيل التي ذُكرت في القرآن.

فقريش إذن كانت في هذا العصر ناهضة نهضة مادية تجارية، ونهضة دينية وثنية. وهي بحكم هاتين النهضتين كانت تحاول أن توجد في البلاد العربية وحدة سياسية وثنية مستقلة تقاوم تدخل الروم والفرس والحبشة ودياناتهم في البلاد العربية.

وإذا كان هذا حقًا - ونحن نعتقد أنه حق - فمن المعقول جدًا أن تبحث هذه المدينة الجديدة لنفسها عن أصل تاريخي قديم يتصل بالأصول التاريخية المأجدة التي تتحدث عنها الأساطير. وإذن فليس ما يمنع قریشًا من أن تقبل هذه الأسطورة التي تفيد أن الكعبة من تأسيس إسماعيل وإبراهيم، كما قبلت روما قبل ذلك ولأسباب مشابهة أسطورة أخرى صنعها لها اليونان تثبت أن روما متصلة باينياس بن بريام صاحب طروادة.

أمر هذه القصة إذن واضح. ففي حديثه العهد ظهرت قبيل الإسلام واستغلها الإسلام لسبب ديني، وقبلتها مكة لسبب ديني وسياسي أيضًا، وإذن فيستطيع التاريخ الأدبي واللغوي ألا يحفل بها عندما يريد أن يتعرف أصل اللغة العربية الفصحى. وإذن فنستطيع أن نقول إن الصلة بين اللغة العربية الفصحى التي

كانت تتكلمها العدنانية واللغة التي كانت تتكلمها القحطانية في اليمن إنما هي كالصلة بين اللغة العربية وأي لغة أخرى من اللغات السامية المعروفة، وإن قصة العاربة والمستعربة وتعلم إسماعيل العربية من جُرهم، كل ذلك حديث أساطير لا خطر له ولا غناء فيه".

ختم الحكيم المقال. وأعاد قراءته مرةً ومرة وهو يتأمل طاها أمامه، يحادثه ويقول: كيف للفرنسيين أن ينشروا ما كتبت بفخرٍ وجلال، وفي مصر أنت مطلوب للمحاكمة لأنك تجرأت وقلت لا؟ وما كان ذلك إلا لكي تقول نعم! كيف بتلك العقلية المتحجرة أن تدنو أو تتقرب من العصر الحديث؟ ثم ما لنا والعصر الحديث كما يقول مشايخنا، نحن نأكل ونشرب وننام. فعلاً تأكل وتشرب وتنام كالبهائم ... وعندما تحاول وضع آدميتك ورفاهيتك أمامك ترفضها وتكنسها متعللاً بأن ذلك أجدى وأنفع في الجنة! وحتى لو أن الأمر كما قلت فلماذا لا نعيش يومنا مرفهين سعداء ننشر المحبة؟! ... وطوى المجلة، واعتدل في مجلسه، وقرر أن يترك المكان ليتنسم نسيم الحرية والسعادة حتى في جادة المبرناس. سار الحكيم مشواراً حتى نهاية الجادة، وعلى اليسار تقوم مقهى الكلوز دي ليلاً بين خمائل الورود والزرع الأخضر الناضر، شجعه المكان وأمله لأخذ كأس البيرنو الفاتح للشهية قبل الغذاء.

أعاد تصفح العدد السنوي من المجلة الأدبية الذي صدر بمناسبة عودة المدرسة وإذا به يعثر على مقال لكاتب آخر عن طاها!! تهلل فرحاً ... وذاب في المقال:

تحدث كاتب المقال عن غاية طاها حسين الذي اتخذ المدرسة الحديثة مركزاً له، والفكرة في ذلك أنه لم يكن يهجس بمواد مدرسية متراصفة ومنقطعة غالباً عن أسئلة الحياة وحاجات البشر، إنما كان - كما يوضح الكاتب - يوحد بين وظيفة

المدرسة ومبدأ "المفرد الإنساني الطليق"، مؤكداً أن المدرسة يجب أن تكون مكاناً لتنشئة العقول وتحرير النفوس؛ بعيداً عن دور المدرسة التقليدية التي يدور تلميذها في ثنائية عقيمة طرفاها: التلقين والاستظهار، يرتاح إليها "أستاذ" أو "شيخ" فُجَّ بدوره قبل أن يُصبح أستاذاً.

ومن منظورٍ ديمقراطي يستعرض الكاتب مضمون وجوهر إصرار طها حسين الذي بالفعل يقودنا إلى استنتاجات واقعية وتقاطع مع مناهج مدرسة تقليدية تقمع التلميذ وهي تعلمه، وتقمع في عقله الفضول المعرفي! والميل إلى المساءلة كما لو كانت تعلمه الانصياع قبل أي شيء آخر، و"تقنعه" بأن الانصياع فضيلة، وأن الفضول المعرفي تظاول على "أستاذه الفاضل"، ولهذا ساوى حسين بين المدرسة الحديثة والثقافة المفيدة التي تُشعر الإنسان بحريته وتعترف بحقه في السؤال. رافضاً الفكرة البليدة التي تختصر التعليم في فعل عنوانه محاربة الأمية، ذلك التعليم الذي يُغلق الفكر، ويعيد تأسيس الجهل على قواعد متعلمة! وبالتالي فإن إرجاع التعليم إلى محاربة الأمية، والتي هي شكل من التجهيل الممنهج هو الذي منع الجامعات المصرية من الظفر بموقع بين الجامعات العالمية المرموقة. وحول العلاقة بين السياسة التعليمية والسياسات الوطنية تحدث الكاتب عن مرئيات حسين التي تربط بين دور التعليم والشباب الجامعي. وترشيد الاستقلال الوطني، وخلاصة هذه الرؤية التي تنحصر بين التعليم والثقافة ترجع - كما يحددها الكاتب - إلى ثلاث مقدمات نظرية تعترف الأولى منها بتبادلية العلاقة بين الاستقلال الوطني والحدثة الاجتماعية، إذ لا استقلال بلا مشروع تعليمي ثقافي من نمط جديد، ولا معنى لوحدة التعليم والثقافة إلا في دورهما في التحول الاجتماعي الذي ينبذ التخلف ومعاييره، ويقترح أفقاً مجتمعياً حديثاً قابلاً للتحقق. وتقول الثانية بتكامل المقولات الحداثية التي تتضمن الديمقراطية وحكم القانون وحقوق الإنسان

ونظامًا سياسيًا عاديًا يترجم عمليًا هذه المقولات جميعًا. وتتضمن المقدمة الثالثة التي ترد إلى المقدمتين السابقتين وحدة الشعب والتعليم والديمقراطية، إذ الشعب ظاهرة سياسية ثقافية تتعين بانتماء وطني يتجاوز المراجع الدينية والجمهورية، وبحقوق دستورية تحفظ دور الشعب في اختيار النظام السياسي، وإذا التعليم ضرورة تسعف الشعب على التمييز بين الحكم الفاسد والحكم وفقًا للقانون، وإذا الديمقراطية تكفل التساوي بين المواطنين وحقوقهم.

وفي مقابل ذلك يُضيف:

لقد صاغ حسين في معجزته "مستقبل الثقافة" خطابًا متسق العلاقات يقرأ الظواهر جميعًا من وجهة "المواطن الكريم" الوجب تعليمه، الذي يميز الذلّ من الكرامة والعلم الكاذب من المعرفة الموضوعية. ويعود هذا الخطاب إلى نسقين من المفاهيم يتحدث الأول وفق وجهة نظر الكاتب عن الشعب، والشعور الديني، والدستور، وحقوق المواطن، والكرامة الوطنية، والكثرة الواجب تعليمها ... ويتحدث الثاني عن الرعية، والوعي الزائف، والشعور الفئوي الضيق، والظلم، والاستعباد، والتهديد الخارجي. وهنا أوكل حسين إلى التعليم الديمقراطي إنجاز هذه الاغراض محوّلًا التعليم الديمقراطي إلى مشروع وطني اجتماعي وسياسي معًا.

وعن التعليم الديمقراطي ومرجعية الدولة يشرح المقال كيف عهد حسين إلى التعليم الديمقراطي بتوليد مجتمع مدني حدائي الحاجات والغايات والوسائل، مطالبًا بإصلاح تعليمي شامل، أي مطالبًا وبشكل جلي بإصلاح سياسي شامل لأن المدرسة في رأيه كما الاجهزة التعليمية بعامه، جهاز من أجهزة الدولة التربوية يوائم بين مادة التعليم ومصالح السلطة الحاكمة.

ويتساءل الكاتب عن الأهداف المتوقعة من عروة وثقى بين التعليم (الثقافة)

والديمقراطية ويجب هناك إنسانية الإنسان وحقوقه ك مواطن في وطن يتمتع بالسلم الاجتماعي والكرامة الذاتية، ويعني ذلك في مفهوم حسين المستند على روسو في "العقد الاجتماعي" والقائل: "نحن لا نبدأ حقًا في أن نصير بشرًا إلا بعد أن نكون مواطنين"، ومن هنا هاجم حسين أشكال التعليم التي تزرع الفرقة والشقاق، والتمس من الدولة المصرية تعليمًا موحدًا ديمقراطيًا. ليس هذا دفاعًا عن حسين؛ بل شرح لوجهة نظره في بلد ديمقراطي. وبعيدًا عن التعصب الديني المصري، وتجهيل الشعب وإفراغه من ثقافته، ومحاربة مفكره ومحامتهم وحبسهم .

الشعب الذي أنجب ابن رشد والجاحظ وأبو العلاء المعري قادرٌ على إنجاب طاها حسين.

هذا وقد أشارت المجلة الفرنسية إلى أن دور حسين في التعليم الذي هو همه الأكبر بعيدًا عن السياسة وبمناسبة العام الدراسي الجديد كتب طاها وكأنه يُبصر المستقبل:

"عامٌ دراسي آخر، نفس المناهج ونفس الكتب ونفس الطلبة ونفس المدرسين، لا جديد ألبتة، سيدخل الطالب اليوم المدرسة وسيتخرج غدًا في الجامعة؛ ليقدم للمجتمع عاطلاً جديدًا غير مؤهل للإنتاج، وامتدني الثقافة، كل ما حصل عليه من تعليم بالكاد فك الخط! وكأننا في طاحونة نلقي الشعير من جهة ليخرج من الجهة الأخرى طحينًا.

التعليم ليس كتبًا جديدة ولا تغيير مناهج ، التعليم هو بحث ونقد وتحليل، على مدارسنا أن تغير من طريقة الحفظ والتلقين إلى طريقة البحث والمعرفة. إن سياسة التعليم أو الصحة أو البيئة تمس ملايين المواطنين، ومن هنا أهمية التخطيط الدقيق لها ، والإشراف الفعال على تنفيذ برامجها ، بعد أن توفر لكل

سياسة التمويل اللازم لها . لا بد من إحداث تحول تعليمي يرتقي بقدرة المجتمع علي المشاركة وغرس مقومات المواطنة الصالحة والانتفاء والديمقراطية , ومواكبة التطورات الحديثة في عالم متغير يعتمد على صنع المعرفة والتكنولوجيا , وعلى تعدد مصادر التعليم وتنمية المهارات اللازمة للتعامل مع مجتمع المعرفة . ذلك لأن التحول الحضاري المهم الذي أخذ يتشكل , هو التحول من نموذج المجتمع الصناعي إلى نموذج مجتمع المعلومات العالمي . وما زالت مصر تحبو نحو المجتمع الصناعي . ومجتمع المعلومات ليس - كما يظن الكثيرون في بلادنا - عبارة عن استخدام تكنولوجيا المعلومات في ميادين متعددة , أو إنشاء حكومة إلكترونية كما يطلق عليها , ولكنه على وجه الدقة لا يمكن أن ينشأ ويعطي ثماره في تقدم المجتمع بغير ديمقراطية تداول المعلومات , والشفافية , وقدرة كل مواطن على الحصول على المعلومات مجاناً وفي أي وقت .

هذه هي الشروط الضرورية لتأسيس مجتمع معلومات فعال , يتيح الانتقال من بعد إلى ما يطلق عليه مجتمع المعرفة , مصاحباً لما يُسمى اقتصاد المعرفة , حيث ستصبح المعرفة هي المولد الأساسي للثروة .

ويقتضي تأسيس مجتمع المعرفة ثورة في مجال التعليم والبحث العلمي وتوطين التكنولوجيا، والإسهام الفعال في إنتاج المعرفة العلمية على المستوى العالمي .

وهناك فقط نستطيع أن نقول إن التعليم في مصر تحولاً من تعليم تلقيني إلى تعليم بحثي . وتقف الطاحونة عن الكركرة، وتتقدم مصر بالتعليم البحثي الذي هو مخرجها الاقتصادي الأوحدي إلى النور والحرية والرفاهية .

لم يطو الحكيمُ المجلة، بل وضعها تحت إبطه، وسار .. وسار في اتجاه الشرق ...

obeikandi.com

## الفصل الثامن والعشرون

رفرف الحكيم على مرتفعات مارتز حيه الأثير، الذي طالعته فيه وجوه الفنانين والرسامين والشحاذين الذين هم جزء من المنظر العام لهضبة مومارتر، يفترشون ميدان أو ساحة "دي تتر" يتلذذون بشرب الخمر الأحمر إنتاج الهضبة الممارتية الشهير. يتجاذب الشحاذون أو "الكلوشار" الحديث مع المارة في فنون الأدب والتاريخ والموسيقى مدارس الفن، وكأنهم خطباء الثورة الفرنسية. والفنانون المومارتيون هم طائفة من الفنانين اشتهروا عن طريق ما أبدعوه من لوحات رسموها بريشتهم فجسدوا انفعالاتهم، ونقلوا أحاسيسهم للوحة التي رسموها وأبدعوا فيها. أما شحاذو مومارتر فهم ظرفاء الحلي، منهم المثقف والمتعلم والفيلسوف والفنان والأديب والشاعر والمسطول دائماً أبداً، لا يطلب منك حسنة ولكن يطلب حقاً كفله له موقعه في الحلي وخدماته لسكانه حتى أصبح وجوده ضرورة يقتضيه المنظر أو الصورة العامة للحلي.

عرج الحكيم على منزله ليس إلا لاستلام رسائله، وعاد إلى الميدان الذي ألقى التحية فيه على "زوجيه"؛ الكلوشار الذي استظرفه الحكيم وعزم عليه بفنجان قهوة، ولم يرفض الدعوة بل رفض القهوة وطلب "بق" أي نصف كأس من الخمر الأحمر، ثم ترك الحكيم لمجلاته وجرائده. وإذا به يامح جارتة في الحلي السيدة فيريدا كاهلو تشرب قهوتها مع شخص ضخم البنيان لا يناسب حجم فيريدا الجسدي المرهف! تقدم الحكيم منها وقبل فيريدا، وقدمته لرفيقها "دييجو ريفيرا" وأكلت بصوت مبوح: زوجي ... لم يندهش الحكيم كثيراً لأنه يعرف مسبقاً أنها وإن

عشقت طاها وهي متعددة الرجال إلا أنها زوجة لأكبر رسامي المكسيك, وها هو يجالسه الآن.

سأله الحكيم:

- هل أتيت لصحبة زوجتك أم لزيارة باريس؟

أجاب ديجو مبتسماً:

- لا هذا ولا ذاك! فقد أتيت لاشتراك في معرض للفن بالقصر الكبير.

قالت فيريدا بابتسامة ودلال:

- نفس الصالة التي عرضت أنا فيها, زوجي غيور.

قهقه ريفيرا بصوت مسموع وقال:

- لا يا عزيزتي ... أتيت من المكسيك بدعوة خاصة للاشتراك في هذا المعرض الخاص بالجداريات وأنا المتخصص فيه.

سأله الحكيم:

- ماذا تقصد؟

أجاب ريفيرا:

- أقصد أن أعمالى الفنية قد أرسماها مرة واحدة على جدار أي حائط كبير يتسع أفقيًا.

قال الحكيم ضاحكاً:

- أذلك أنت ضخم الحجم؟!

أجاب ريفيرا:

- إن جاز ذلك.

وقدم للحكيم دعوة لمعرضه مخطوطاً عليها: "ديجو ريفيرا رسام مكسيكي عرف برسم الجداريات ولد عام 1886 في جواناخوات".

كان والده يريد منه أن يلتحق بالمدرسة العسكرية، لكن ديجو ريفيرا اختار الالتحاق بأكاديمية الفنون الجميلة في سان كارلوس.

في 1920 اهتم الفنان ديجو ريفيرا بالسياسة، حيث أنشأ أول لوحة جدارية تعالج موضوع العرقيات في المكسيك.

ريفيرا ناشط شيوعي هاجم في بعض لوحاته الكنيسة ورجال الدين.

قالت فيريدا:

- أتمنى أن نراك في حفل الافتتاح - وسألت - أين حسين؟

أجاب الحكيم:

- سافر إلى مونبلييه ليتزوج من صديقتنا سوزان.

سألت فيريدا باهتمام:

وهل تزوج حقاً؟!

قال الحكيم:

- أرسل لي رسالة أنه تقابل مع القس مستشار العائلة، وبعد جولة ثلاثة ساعات في الحقول اقتنع القس بطاها، وأخبر العائلة بأن ابنتهم ستكون ذات شأن مع هذا الشاب.

قالت فيريدا موجبة الكلام إلى زوجها قائلة:

- طاها صديق لنا، ألتقيتُ به في أول معرض أقيم لي في قاعة القصر الكبير؛ والمدهش حقًا أنه حلل ونقد كل لوحاتي مع أنه غير مُبصر.

قال ريفيرا مندهشًا:

- كيف وهو أعمى لا يرى؟!

قال الحكيم:

- نعم هو غير مبصر، لكنه يرى بعقله وتترجمه عواطفه وشعوره وإحساسه إلى لغة نفهمها نحن المبصرين.

قال ريفيرا:

- هذا إنسان مذهل لا بد أن يحضر حفل افتتاح معرضي، أرجو أن تبلغه ذلك.

قال الحكيم:

- طبعًا طبعًا ... سيكون سعيدًا وخاصة مع سوزان التي ستكون عينيه التي يرى بهما كما يقول لي دائمًا.

قال ريفيرا:

- لو لم أكن مرتبطاً بجولة فنية في أسبانيا وبعدها العودة مرة أخرى إلى نيويورك لمعرض جداريات خاص لمكثت بباريس لأتملى من تلك الشخصية الفذة، لكنني سأحاول. وم كنت أتمنى أن يكون حسين مكسيكيًا لأصنع له تمثالاً يخلده.

قال الحكيم:

- سيكون سعيدًا فعلاً بمعرفتك.

استأذن ريفيرا وزوجته وتركا الحكيم مع جرائده ومجلاته ورسائله على أمل لقاء آخر يجمعهما بطاها وسوزان.

فض الحكيم رسالة من طاها وبها مقالتان يطلب فيها الحكيم أن يرسلهما إلى جريدة الصباح الباريسية، والتي نشرت له سابقاً قصيدة "كنت أعبد الشيطان"، واستمتع الحكيم بقراءتهما وحده قبل النشر.

وجاء في المقال الأول حول اللغة العربية: "اللغة العربية ليست ضعيفة في ذاتها، لكن هناك عوامل متعددة تضافرت عليها منها خفوت نور العلم والتقدم الذي تعيشه المنطقة العربية اليوم وانطفاء شعلة الحياة العلمية والفكرية في مصر إلا من ومضات لا تشبع ولا تغني.

فاللغة الإنجليزية أخذت تزاخم اللغة العربية، وتمد من نفوذها في ميادين التعليم والقضاء والدواوين ووسائل الإعلام والصحافة.. واضطربت اللغة العربية اضطراباً شديداً وغلب عليها العُجمة والنحدرت أساليبها، وحفلت المخاطبات الرسمية بأسوأ صور الكتابة والنطق. وبعودة المهاجرين المصريين من الشرق والغرب تدهقرت الحركة الثقافية، وراحت تتراجع شيئاً فشيئاً على توالي الأيام

حتى طغى الجهل على الناس طغياناً كاد أن يكون تاماً، وإن درجة هذا التخلف بلغت نهايتها القصوى في البرامج والأحاديث الإذاعية والمدارس والجامعات.

الحالة العلمية قد بلغت درجة قاسية من الضعف والاضمحلال، ولم يعد التأليف ابتكاراً بل أصبح متوناً وشروحاتاً وتعليقاتاً وحواشي .. ولهذا خبا الجانب الإبداعي الابتكاري، ودار في فلك التقليد والنسخ، حتى أنه أصبح حاملو الدرجات العلمية أكثر من حاملي شهادة الثانوية.

أما الشعر فإن كان يمثل مرآة صادقة للجانب اللغوي فإن لغة اليوم تعطي صورة عما وصلت إليه اللغة العربية من التردّي والضعف. فالمعاني سطحية والخيال جزئي تقليدي، والشعور باهت والتكلف فيه أساس، والنتيجة الحتمية أن يجمد الشعر ويصبح التسابق والتفنن البديعي والعامي وينأى الابتكار والصدق والوجدان.

أما النثر فلم يعد أرقى حالاً من الشعر فإن أساليب الأدباء أشبه بقوالب متحجرة تستبعد بجمودها ديب الحياة! وانحصر نشاطهم في التكرار، وغلب عليهم قلة الابتكار والتجديد وضعف أسلوب التأليف وهبوطه إلى مستوى العامية ..

والكتابة في أيامنا هذه قد خلت من الأسس الفنية الجيدة التي تقوم على عاطفة صادقة ممتزجة بفكرٍ واعٍ، وتحتوي على ألفاظ موحية وخيال مبتكر يدفعه إلى السمو.

ولأن تقدم اللغة يرتبط بما يحدث في المجتمع من عوامل تؤثر فيه وتدفعه إلى النهوض لأن اللغة وسيلة التعبير عن الحياة، فأحداث مصر التي هزت العالم لا

بد وأن يكون لها أثرها الإيجابي في سمو اللغة العربية وتهذيبها، فعلى المصريين أن يتنبهوا أنه بالعلم والأبحاث العلمية المتبكرة تتقدم الأمم وليس أي علم ولا أية أبحاث. وما دام كل تطور تبدو مظاهره في اللغة فإن أحداث مصر المزلزمة آثارها في نفوس العربية رغبة في التقدم وانعكاس هذا التقدم على اللغة ليساهم في خروجها من كبوتها لتساير ركب التقدم.

لم يعلق الحكيم، بل قرأ المقالة الأخرى، وجاء بها عن القراءة:

"قراءة الكتب من أهم مظاهر الحضارة لما لها من دور أساسي في مسيرة الشعوب، ولقد أدرك العرب قديمًا أهمية العلم والعلماء، فشهدت الحياة الفكرية في العصور العربية والإسلامية وخاصة العصر العباسي ازدهارًا كبيرًا في شتى الميادين ويعود ذلك لاهتمام الخلفاء بالعلم، فنجد الانتشار الواسع لدور العلم وظهور الكثير من العلماء العرب والمسلمين، بالإضافة لازدهار الترجمة في تلك الفترة، فإن كان العرب والمسلمون أدركوا أهمية العلم والقراءة فما بال الشباب المصري المعاصر لا يدرك أهمية ذلك؟

إن مصادر المعرفة عند الشباب في مصر تتمثل فيما يصل إليهم عن طريق السماع والمشاهدة وما يحمله البث من البرامج السافرة التي تبثها المحطات الفضائية، وأما الشبكة العالمية للمعلومات بدائرة المعارف فلا يعرف منها شباننا وأطفالنا إلا برامج الدردشة والتراسل والألعاب وغيرها من وسائل الترفيه التي لا تُسمن ولا تُغني من جوع. فإذا برنا للشباب المصري سبب عزوفه عن القراءة بأنه يسعى وراء لقمة العيش فكل شعوب الأرض تركض وراء الرزق للحصول على عيش كريم، ومع هذا نجدهم يقرءون ويتطورون ونحن في مكاننا ثابتون، فكيف لشباننا أن يواجه عدوًا عالمًا متسلحًا بالعلم والثقافة والتطور التكنولوجي؟!؛

المكتبات العربية تنوح وتنتحب، وتنادي: أين القراء؟ ! يا مصر إذاً أين الكتب الموجهة للمواطن أو الإنسان العادي محدود الثقافة؟ إذا أردنا الحديث عن مشكلة عدم مقروئية الكتب في مصر فلا بد من الحديث عن مضمون الكتب الذي يكتبها الكتّاب المصريون في الوقت الراهن يجب أن تتماشى مع الواقع المعاش، ومحاوله الوصول إلى قلب القارئ وقراءة أفكاره قبل أن يقوم بكتابة أي شيء. فالمجتمع المصري مجتمع غير مستهلك للكتب بخلاف المجتمعات الغربية، فالمواطن المصري حسب إحصائيات اليونسكو يقرأ نصف ساعة في السنة أي ست دقائق أي نصف صفحة من الكتب مقارنة بالمواطن الغربي الذي يقرأ نحو مائتي ساعة سنوياً. فثقافة أوروبي واحد تعادل ثقافة 2800 مصري.

على المسؤولين في وزارة الثقافة ووزارة الإعلام ووزارة التعليم والحكومة كلها أن تكثّر من تنظيم المعارض والندوات والمؤتمرات على المستوى القومي، وتسهل عملية انتقال الكتب، والحدّ من صرامة الرقابة على الكتب وتنظيم حملات توعية بدور الكتاب في تغذية عقول القراء كل هذه الأشياء من شأنها أن تمهد للقارئ المصري الطريق للقراءة وتجعله يتبوأ مكانته التي يستحقها عن جدارة في العالم.

وقديماً سئل فولثير عن سيقود الجنس البشري؟ فأجاب: الذين يعرفون كيف يقرءون.

فهل نحن نقرأ لكي نعرف كيف نقرأ؟!

طوى الرسائل وطوى الأوراق وطوى المجلات وطوى الجرائد، وطوى نفسه وطار مرة أخرى فوق ساحة دي ترتر على مرتفعات مارت.



لوحة للفنان دييجو ريفيرا

obeikandi.com

## الفصل التاسع والعشرون

احترق قلب الحكيم وصار دخاناً، وظهر له عاطف في نفس حديقة النباتات التي التقيا فيها لأول مرة. عانقت اليدان اليدين. واتسعت الابتسامة وملئت الوجوه بالبشر والسعادة. وطفح القلب بالحب والشوق. ولن ترتوي الأرض بكل ما يهطله السحاب، ولن تمتلئ الحدود بما تذرفه الدموع من قطرات، وإنّ الأرض لتتحمل من الضربات أكثر مما يستطيع الضارب أن يضرب. سارا كعهدهما على حصى طرقات الحديقة متمهلين يقرآن من أفكار بعضهما دون صوت ولا همس، بل شعور يتنقل كالموجات من وإلى. ويتولد عنه فهم وفكر ومودة ومحبة وكرم وانسراح وتلاقٍ، وكأنه ليس للمسافات بينهما من وجود، وكأنه ليس للزمن بينهما من معنى ولا النهار يتبع الليل ولا عقارب الساعة تركض. وحدد اللقاء بين ثلاثتهم فوق الهضبة المسحورة التي يلغى فيها الزمان والمكان والأبعاد والزوايا والمربعات والأشكال، ولم يبقَ إلا ثلاثتهم يضعون أصابعهم على عورة مصر؛ يتحسسون هل من مولود جديد؟

وبدأ الحديث بينهم على وقع موسيقى الغرفة الفرنسية الكلاسيكية من أنغام موتزار، ودارت كواكب الكؤوس المترعة بألوان الخمور التي صبها الساقى من أنهارها التي تجري تحت الهضبة. وتعانق الحور والحواري ولامست الصدور الصدور والأفخاذ الأفخاذ والبطن البطن، وفاحت التهنيدات في الفردوس الذي امتلأ عن آخره بالحواريات أضعافاً مضاعفة لأعداد الحواري، وكأن الفردوس انقلب إلى مفرخة دواجن في شكل حوريات، وكركر التدجين وأفرخ دجاجات

جماليات دون أدنى ديك أي بدون أي حوري. كل زبائن الهضبة من النساء والقليل جدًا من الرجال, لأن الرجال هم دائمًا أبطال وألهة الآثام والآلام والحماقات والمظالم الكبرى العالمية والكونية والمحلية والجزئية، وقادتها وأنبيؤها! ليس الرجال هم صناع الأديان والنبوات التي أفسدت وشوهت وأرهبت وقتلت كل محبة وصداقة وثقة وعلاقات بين البشر في التاريخ وبين أجزاء التاريخ؟! نعم هم متفوقون جميعًا على الهضبة على أنهم كذلك. أن يؤمنوا بالإله أو الدين أو النبي أو المذهب ونقيضه, وللصلاة إلى هذه الكعبة وإلى الكعبة الأخرى المعادية! إن أسباب أي حرب لم تصنعها الحياة ولا احتياجات الحياة وإنما صنعتها أهواء بعض الرجال!.. إذاً ليس مكانهم المحتوم الذي لا بد أن يذهبوا إليه هو الجحيم باستثناء بأس؟

وهكذا تزدحم الهضبة بكل هذا العدد الهائل من نساء الدنيا الأولى وأعداد قليلة من الرجال, إنها ورطة الهضبة المخجلة المهينة للرجال والنساء والخوريات, أكوام هائلة من النساء والخوريات المخلوقات من الشهوة وللشهوة بلا رجال وبلا حوريين..!

وناقش طاها والحكيم وعاطف تلك الأمور التي غابت عن مخيلة عاطف طوال تلك السنين.

قال الحكيم مقدمًا عاطف إلى طاها:

- هذا هو القادم من المستقبل.

أوماً عاطف برأسه لطاها مصدقًا على كلام الحكيم.

قال طاها:

- كنت متأكدًا من لقاءك، ولم أكن أستبعد ذلك قط.

قال عاطف:

- لأنك أذكي وأجرأ عقلية وأستاذية.

قال الحكيم:

- أهم ما يميز منهج طاها في النقد والدراسات الأدبية هو تطبيق النهج العلمي على أحدث ما عرفه النقاد والباحثون على الأدب العربي قديمه وحديثه. وأول ما ظهر من آثاره دراسته لأبي العلاء المعري وللشعر الجاهلي، وشعراء الغزل في الحجاز، وشعراء العباسيين.

قال طاها:

- ثم ما تناولته بعد ذلك من نقد في الصحف العربية لجماعة الأدباء شعراء وكتاب وقصصيين في مجموعة مقالات طوال ما يقرب من نصف قرن، تعرضت فيها لشوقي وحافظ ومصطفى صادق الرافعي، وعبد العزيز البشري والعقاد، وهيكل، ولعلي محمود طاها وناجي وميخائيل نعيمة، ونجيب محفوظ ويوسف السباعي، وحتى أنت أيها الحكيم.

قال عاطف:

- كما تعرضت كذلك للكتابة في كثير من قضايا النقد والفن والأدب، كقضية الجمال في الأدب والفن، وهل هو موضوعي أم نسبي؟ وقضية الأدب والحياة، والأديب والمجتمع، وقضية اللغة في الشعر، والعامية والأدب، والواقعية... وما إلى ذلك من قضايا كثيرة شغلته الرأي العام الأدبي في مصر والبلاد العربية وفرنسا.

قال الحكيم:

- كيف تعرفت على الأديب العربي والغربي ومزجت بينهما؟

قال طاها:

- درستُ في الأزهر، فتعرفتُ على الأدب العربي القديم ونهلتُ من موارده الثرية، وتمكنتُ فيه، وحملتُ له بين جوانحي إعجابًا وتقديرًا، كما حملتُ لكبار أدباء العربية من أمثال الجاحظ، وابن المقفع وأبي الفرج الأصفهاني وأبي العلاء المعري أحسن الذكر لطول ما لابستهم وقرأتُ لهم، وذهبتُ إلى فرنسا لأتم دراستي والتحق بالجامعة بباريس، وهناك وقفتُ على آفاق جديدة وتكشفتُ أمامي السبلُ وكان طلعة فأقبلتُ على الدراسة في نهم، ووقفتُ على آثار كبار العلماء والأدباء الذين كان لهم فضلٌ كبير على الحضارة العربية والفكر المعاصر أمثال ديكارتر ودارون وفولتير وجان جاك روسو، وسانت بيف وتين ... وغيرهم.

كما قرأتُ لكثير من شعراء فرنسا وكتابها، وخاصة شعراء القرن التاسع عشر وكتابه. وأفدتُ من مناهجهم في دراساتي وتقدي، فطبقتُ منهج ديكارتر العقلي في دراستي للشعر العربي بصورة جريئة، لم تعهد من قبل، وإن كان بعض ما تناولت من قضايا غير جديد على النقد العربي، كقضية الانتحال التي عرضتها في الشعر الجاهلي، ونفيتُ على أساسها كثيرًا من شعر الجاهليين، وشككتُ في كثير. فبهي قديمة ترجع لابن سلام صاحب كتاب طبقات الشعراء. ولكن المنهج العقلي الذي اختطه كان الجديد في الكتابة، كما كانت الجرأة في تناول دون خشية التعرض لبعض ما كان يتحرج غيري من الخوض فيه من أمور تتصل بالدين والعقيدة.

قال عاطف:

- قد آمنت بحرية الأديب في تناول موضوعه دون خضوع لأي قيد مهما كان ذلك القيد اجتماعيًا كان أو سياسيًا أو دينيًا أو أخلاقيًا. وذلك لأن حرية الأديب تكفل له حرية الانطلاق إلى ما يريد من آفاق بجناحين قويين دون أن تثقلهما بأثقال من أي نوع وعندئذ يستطيع الأديب والباحث أن يكون مبتكرًا، ومجددًا، ونافعًا للناس.

قال طاها:

- إن شئت فهو كذلك لأن المنهج العقلي الذي اختطه أداة لتخليص الأدب القديم من شوائبه وإعادة تقييمه ودراسته على أسس علمية ومنهج قوية تقوم على أساس ما اختطه الباحثون في آداب الأمم الغربية، مثل ما فعل "تين" بالنسبة لتاريخ الأدب الانجليزي و"سانت بيف" في دراسته لأدباء الغرب.

قال الحكيم:

- أعتقد أن "تين" أبرز النقاد الذين استخدموا المنهج العلمي الحديث في الدراسة الأدبية باعتبار أن الأدب نتاج ثلاثة عوامل هي : البيئة، والجنس، والثقافة المعاصرة. وهذا يرى تين أن الأدب كغيره من الظواهر العلمية والاجتماعية خاضع لعوامل خارجية سببث تكوينه، وبذلك يكون "تين" قد شغل نفسه بالمؤثرات الخارجية، خارج دائرة الأديب والنص الأدبي .

قال طاها:

- لكن "سان بيف" بنى منهجًا آخر في النقد يخالف منهج "تين" ويعتمد أساسًا على دراسة الشاعر أو الأديب من جوانبه المختلفة من حيث عائلته، ووضعه الاجتماعي والتاريخي، وثقافته وأفكاره، أو آرائه وفلسفته. ويعتبر بذلك

صاحب المدرسة النفسية في النقد التي تعتمد على الدراسة التحليلية النفسية، والترجمة الشخصية، والتي تتناول العمل الأدبي من خلال شخصية الأديب. وقد ساعده عمله كطبيب على هذه الدراسة. وقد كتب دراساتٍ رائعة لجماعة من أدباء فرنسا الكبار أمثال شاتو بريان، وموسيه، وهوجو، وألفريد دي فيني، كما قدم مجموعة قيمة من المقالات النقدية عُرفت بـ "أحاديث الاثنين (1891)" - (1863)، وأيام الاثنين الجديدة (1862-1881)، وغيرها من المقالات. وكان أهم ما يعتمد عليه من القواعد في نقده - إلى جانب تلك الدراسة التحليلية للنصوص خلال شخصية الأديب - : الذوق، وصدق التعبير عن الحياة، والوحدة الفنية.

قال الحكيم:

وأول ما يلاحظه على درس الأدب وتاريخه سطحية الدراسة وعدم استخدام منهج واضح مبين للتعمق في تقييم الأدب القديم وتاريخه. ذلك لأن المؤرخين لهذا الأدب يخضعونه للعوامل السياسية والاكتفاء بذلك، مع ذكر نبذ عن أسماء الشعراء وأنسابهم وجوانب من حياتهم، مع نماذج من أشعارهم.

قال عاطف:

- كذلك يحاولون أن يتبعوا الأدب لعوامل الازدهار والخمول، والقوة أو الضعف لحاضرة الدولة وحدها، سواء كانت بغداد أم دمشق دون اعتبار للخصائص الإقليمية في أنحاء الدولة العربية المتشعبة الأطراف من بلاد الفرس شرقاً إلى الأندلس غرباً. وهكذا كان الأدب في بغداد في عرفهم مقياساً للأدب العربي في الأقاليم الأخرى، وهذا خطأ لأن فيه إغفالاً للعامل الإقليمي، عامل البيئة، وهو عنصر مهم في الأدب وتطوره، ما بالكم اليوم بامتداد الرقعة الإقليمية إلى حدود العالم وأبعد من ذلك بكثير!

قال طاها:

- تريد القول أنه لا حدود بين الأقاليم؛ وعليه فإن منهج الدارسين للأدب هو منهج قويم يعتمد على جانبين: الجانب العالمي، ممثلاً فيما نجم من الدراسات والمناهج المستحدثة لدى الباحثين الغربيين معتمدة على العلم كما في مناهج سانت بييف، وتين، وبرونتير. ويكمل هؤلاء الثلاثة بعضهم بعضاً. فيعرض سانت بييف للشخصية الأدبية وتكوينها عرضاً بيولوجياً، قائماً على التحليل والربط بين شخصية الأديب وشعره، وتكوينه الثقافي، ومزاجه وأسرته وما إلى ذلك من مختلف المؤثرات التي اشتركت في بنائه؛ كما تعرض "تين" للعوامل الخارجية التي أثرت في النص الأدبي باعتباره ظاهرة اجتماعية كغيرها من الظواهر التي تقوم على عناصر مختلفة أو تكون نتيجة لعناصر مختلفة. وأهم العناصر التي بينها العناصر الثلاثة التي أشار إليها الحكيم: البيئة، والجنس، والعصر. كما أن بروننتير يتناول جانباً آخر هو دراسة الظاهرة الأدبية، أو النوع الأدبي دراسة تطويرية على طريقة دارون في دراسة الأحياء.

قال عاطف:

- وهل هذا كل ما يُرجى من الدراسة الأدبية ؟  
- لا يفي هذا المنهج بكل ما يرجى من الدراسة الأدبية ، ذلك أن الأدب يختلف في طبيعته عن العلم. ولهذا ينبغي أن يضاف إلى هذا المنهج العلمي عنصر آخر شخصي يقوم على الذوق، فتاريخ الأدب إذًا يجب أن يتجنب الإغراق في العلم، كما يجب أن يتجنب الإغراق في الفن، وأن يتخذ لنفسه سبيلاً وسطاً.  
- وهل هناك مراحل لدراسة النص الأدبي؟

قال الحكيم:

- لطاها دراسة واضحة حول هذه المراحل التي قسمها إلى ثلاث!

قال طاها:

عند التعرض لدراسة نص ما ينبغي المرور بثلاث مراحل هي:

استكشاف النص الأدبي، وقراءته قراءة صحيحة، ثم تحقيقه وضبطه وهذه المرحلة، تعد مرحلة إعداد يشملها الجانب العلمي، وتأتي بعد ذلك المرحلة الرابعة، مرحلة التدوق، وتظهر فيها روح الناقد وشخصيته.

فعلى سبيل المثال أريد أن أدرس شعر أبي نواس، فأنا مضطر أول الأمر إلى أن أبحث عن هذا الشعر، ولهذا البحث المنظم قواعده وأصوله، فإذا وجدت هذا الشعر، فسأضطر إلى أن أقرأه، وأحقق نصوصه وأقارن مقارنة علمية دقيقة بين النسخ التي تشتمل عليه، فإذا استخلصت من هذه النسخ المختلفة والنصوص المتباينة نصاً ينتمي إليه بحثي واختياري، فأنا مضطر إلى أن أقرأ هذا النص قراءة الباحث الذي يريد أن يفهم ويفسر ويحلل ويستخلص ما في هذا الشعر من خصائص لغوية أو نصية أو بيانية، فإذا أنا فرغت من هذا كله، فاستكشفت النص وحققته وفسرته واستخلصت خصائصه ومميزاته مستعيناً في هذا كله بهذه العلوم المختلفة، فقد انتهى القسم العلمي الخالص من عمل المؤرخ للأدب. وبدأ القسم الفني الذي اجتهد ما استطعت في أن أخفف تأثير شخصيتي فيه، ولكنني أعتمد فيه - سواء أردت أم لم أرد - على الذوق. وهذا القسم هو النقد، وكأن النقد هو جانب من الدراسة الأدبية أو التاريخ الأدبي.

ومن هنا نستطيع أن نقسم هذا النتاج غير الجانب الإنشائي من الأدب إلى

قسمين: قسم الدراسة الأدبية والتاريخ وقسم النقد.

ويشتمل القسم الأول - كما أشرنا - على مجموعة دراسات في الأدب الجاهلي، وأبي العلاء المعري، ومجموعة شعراء الغزل وبعض شعراء العصر الأموي، وأحاديث الأربعاء التي تتناول جماعة من شعراء بني العباس ومع المتنبي.

ويشمل القسم الثاني مقالات متعددة عدت في النقد منها جماعة من الكتاب والشعراء المحدثين والقدماء. وكذلك الجانب النظري من القسمين.

قال الحكيم:

- ولا نغفل الأصول العامة المتصلة بالنقد وتلك المتصلة بالناقد، وبعضها متصل بمفهوم الأدب ودوره، أو غايته. وبعضه الآخر متصل بأصول التعرف على الأديب، وعلى النص الأدبي، وما ينبغي أن يقوم عليه التحليل الأدبي والنقد، ثم الحكم، وما يراعى فيه... إلخ.

قال عاطف:

- لكن هناك أصول نبني عليها الدراسة الأدبية كالمجتمع والبيئة وأثرهما في الأدب. واليوم نرى تعلق الأديب ببيئته ووفاءه لمجتمعه في أدبه.

قال الحكيم:

- بمعنى التزامه به أو تعاليه عليه.

قال طاها:

- ألفنا أن ندرس الشعراء والأدباء فنبحث عن أشخاصهم، وربما ألهانا ذلك عن ألوان أخرى من البحث هي أعظم خطرًا من أشخاص الشعراء، وهي ظروف البيئة التي يعيشون فيها.

فالشاعر أو الكاتب لا يستمد أدبه من شخصه وحده، وإنما يستمد أكثر منه وأكثر شخصيته من أشياء أخرى ليس له حيلة فيها، وليس لطبيعته ومزاجه وفرديته فيها كل ما نظن من التأثير، وأكاد أقول مع القائلين أن الفرد نفسه ظاهرة اجتماعية، فهو لم يأت من لا شيء، وإنما جاء من أسرته أولاً. ولم يكد يرى النور حتى تلقته الحياة الاجتماعية فصورته في صورتها وصاغته على مثالها، وأخضعته لمؤثراتها التي لا تحصى... فعنصر الفردية فيه ضئيل لا يكاد يحس، إلا أن يمتاز هذا الفرد، وامتنازه نفسه يرد في كثير من الأحيان إلى الحياة الاجتماعية التي أنشأته. والتعرف على مجتمع معين يكون عن طريق ما أنتجه من أدب.

ثم وجه الكلام إلى عاطف قائلاً:

- ومجتمعكم اليوم ليس منتجاً للأدب!

قال الحكيم موجهاً الكلام لعاطف:

- ولا مستهلكاً للأدب! وانعدم الذوق العام.

نجل عاطف نجلاً شديداً لأنه كان يعتقد أنه من عصر المعرفة المتقدم كثيراً عن عصرهم الحديث.

قال الحكيم:

- لا وقت للنجل بل للعمل، لأن مصر لن يكون لها قائمة إلا بالعزيمة والعلم والدرس والأدب.

قال طاها:

- إن هناك ذوقاً فنياً عاماً يشترك فيه أبناء الجيل الواحد في البلد الواحد، لأنهم

يتأثرون بظروف مشتركة تطبعهم جميعًا بطابع عام يجمعهم ويؤلف بينهم، وكنا نتفق على أن هذا الذوق يتسع ويضيق، ويقوى ويضعف، فأهل مصر يشتركون فيه اشتراكًا قويًا، وهذا الاشتراك هو الذي يجمعهم على الإعجاب ببعض الآثار الفنية دون بعض، وهم يشاركون فيه إلى حدٍّ ما جيرانهم أهل الشام وفلسطين، ويشاركون فيه إلى حدٍّ أضعف جيرانهم من أهل إفريقيا الشمالية....، وكنا نتفق على أن هذا الذوق يضيق أحيانًا ويتأثر في ضيقه هذا بالظروف التي تحيط بالطبقات والجماعات، فأهل مصر على اشتراكهم في هذا الذوق العام تتفاوت حظوظهم منه بتفاوت بيئاتهم وجماعاتهم، فلأهل الأزهر ذوق خاص يكادون يستبدون به، وقريب منه ولكنه يفارقه بعض الشيء ذوق مدرسة القضاء ودار العلوم، وللجامعيين ذوق خاص أو قل أذواق مختلفة، ذوق يتأثر بالعلم، وآخر يتأثر بالأدب، وثالث يتأثر بالتاريخ، ورابع يتأثر بالفلسفة. وعلى هذا النحو وذلك هو الذوق العام الذي يؤثر في الأدب عامة، في إنشائه، وتقبله أو تذوقه، وكما أن البيئة أو المجتمع بمختلف جوانبه يؤثر في الأدب بصورة تلقائية عن طريق تأثيره في الأديب فإن من صدق التعبير أن يحسن الأديب التعبير عما يدور في صدور الناس، وعما يعتلج في نفوسهم من الخواج، وهو لا يصور مجتمعه صورًا مطابقة، ولا يعكس أحداثًا، ومناظره كما هي، في أشكالها المادية الجامدة، وبذلك يكون متجاوبًا مع مجتمعه، أو صادق التعبير عنه، لا بل صدق التعبير والتجاوب شيئان بعيدان عن مجرد الانعكاسات المادية للأحداث والأشياء، ومجرد التردد لها في صور النظم والنثر.

قال عاطف:

- قبل الإسلام كان الشعر، وبعد الإسلام نقد للشعر وازدهار في الأدب بازدهار

الدولة، وأرى أن الدولة المصرية الآن والعالم العربي في أحطّ مراحلها العلمية والأدبية إذ أنها شعوب مستهلكة لأدوات الحداثة وليست منتجة لها. وما قيل وهتف على أنه ثورة لم يكن للأدباء فيها من حيلة وجاء الحكم الإسلامي وسقط قبل أن يقف على قدميه.

قال طاها:

- سأقف معكم هنا وأظن أنني لستُ بحاجة إلى أن أجيّب، ولا إلى أن أطيل الجواب، وإنما يكفي أن ننظر في الأدب المصري الحديث، أو في الأدباء المصريين المحدثين، وأن نسأل أين يكون الضمير الأدبي الصحيح من هذا الأدب ومن هؤلاء الأدباء؟ أين يكون هذا الأديب الذي يرفع أذبه عن الظروف ويرقي به فوق الأحداث، ويمتنع به عن الظن، ويأبى أن يجعله تجارة وأن يساوم فيه كما يساوم التجار، أين يكون هذا الأديب الذي لا يفكر في الناس قبل أن ينشئ، ولا يسأل عما سيقول قبل أن ينتج، ولا يُقدّر عواقب آثاره الأدبية قبل أن يذيعها على القراء؟ أين يكون الأديب الذي لا يقوم أثره الأدبي بالdraهم والدنانير قبل أن يكتبه وقبل أن يخرجها؟ أين يكون هذا الأديب الذي لا يسعى إلى الشهرة وإنما تسعى الشهرة إليه، والذي لا يطلب الرضا وإنما يطلبه الرضا؟

إن التغيير الاجتماعي أو السياسي لا تظهر آثاره في الأدب بمثل هذه السرعة التي يراها الداعون إلى أدب الثورة.

قال الحكيم:

- في مصر يقولون يجب أن يكون الأدب للحياة ويطنون أنهم يقولون شيئاً جديداً ، لا يقولون في حقيقة الأمر شيئاً، ويخطئون حين يظنون أنهم يتكرونها شيئاً لم يألفه الناس منذ أقدم العصور، فكل أدب في أي أمة من الأمم إنما يصور لوناً من ألوان حياتها ولوناً من ألوان شعورها وذوقها وتفكيرها، وانعكاس صور

الحياة في نفوسها، وأكبر الظن أن الذين يقولون يجب أن يكون الأدب للحياة إنما يريدون شيئاً يحسونه في أعماق نفوسهم وعقولهم قد لا تحققه، فإذا أرادوا أن يعبروا عنه أخطأهم التعبير، وعسى أن يحققوا في نفوسهم أشياء ثم تمنعهم ظروف الحياة على اختلافها من أن يعربوا عنها في إفصاح، ويصورونها في جلاء ووضوح.

قال عاطف:

- وهل كان الأدب القديم مصوراً للحياة؟

أجاب طاها:

- لا تقل إن الأدب القديم لم يكن يصور الحياة، بل قل إنه لم يصبح مصوراً لحياتنا نحن، وهنا تأتي المشكلة التي يتورط فيها كثير جداً من دعاة الأدب الجديد عندنا في هذه الأيام. فهم يعيرون الأدب القديم جملة بأنه كان أدباً بعيداً عن الحياة، وبأنه كان أدب ملوك، وبأنه كان أدب إقطاع، وينبغي إذن أن نعرض عنه الإعراض كله، وأن نمقته أشد المقت، وننفر منه أعظم النفور، وننشئ لأنفسنا أدباً يلائم الحياة، والحياة هنا هي حياتنا نحن التي نحيها هذه الأيام.

ولو حقق هؤلاء الكتاب في عقولهم هذا الذي يدعون لأنكروه أشد الإنكار، ولبرءوا أنفسهم منه أشد التبرئة وأعنفها، فهم إنما يدعون إلى شيء يسير جداً هو أن نلغي القديم إلغاءً، ونجتث الإنسانية من أصولها، وننشئ إنسانية جديدة تقوم على هذه الحياة التي تحياها الشعوب الآن.

قال عاطف:

- لدينا نزعة مبهمه عامة أخذت تظهر وتشيع منذ حين، والتي تدعو إلى أشياء لا تحققها ولا تعرف لها حدوداً، وإنما تصور شعوراً غامضاً إلى شيء من السمعة

والسماح ، فتتعجل وتقضي قبل أن تتحقق، وتقطع في النور قبل أن تستبين حقائقها، وتدعو فيما تدعو إليه أن يكون الأدب في سبيل الحياة دون أن تحقق معنى هذا الكلام !

قال الحكيم:

- الأدب ليس وسيلة، ولا ينبغي أن يكون وسيلة، والأديب لا ينشئ أدبه ليحقق هذا الغرض أو ذاك، ولا ليبلغ هذه الغاية أو تلك، وإنما الأدب غاية في نفسه، والأديب يكتب لأنه لا يستطيع إلا أن يكتب.

قال طاها:

- أما أن يُسخر الأدب ليكون وسيلة من وسائل الإصلاح أو سبيلاً من سبل التغيير في حياة الشعوب فهذا تفكير لا ينبغي أن نساق إليه، أو نتوسط فيه. إن الصدق لا يكون بهذه الصورة التي يدعو لها جماعة الواقعيين الاشتراكيين، وإنما الصدق حسن التجاوب بين الأديب ومجتمعه، وحسن التعبير في أسلوب ملائم حي، لا أسلوب قديم تباعد الزمن بينه وبين عصرنا الحديث، الذي يتطلب لوناً آخر من التعبير يتفق والحياة المعاصرة ومقتضيات العصر الفكرية والأدبية والاجتماعية والسياسية.

قال الحكيم:

- أخذنا الحديث عن الأدب والأدباء، ولم نستمتع بتلك الغوادي والساقين على الهضبة.

قال طاها موجها الحديث إلى عاطف:

- هنا على الهضبة نمتلك كل شيء؛ نمتلك الزمان والمكان ولا معنى للأفعال،

لا ماض ولا حاضر ولا مستقبل.

قال عاطف:

- إنها حياة خاملة تعيسة مزرية كل ما تتمناه تجده بين يديك. ليس لديكم عمل.

قال الحكيم:

- هنا على الهضبة لا عمل ولا أمنية بل لذة مستمرة.

قال عاطف:

- والشراب والأكل.

قال الحكيم:

- أشتر يُستجاب لك.

قال عاطف:

- والجنس؟

قال الحكيم:

- قبل الطلب تجاب.

قال عاطف:

- لا أريد تلك الحياة!

قال طاها:

- هنا لا حياة، لأن هنا الحياة عينها.

واصطكث الكؤوس، وغنّت الحوريات، وابتهجت الهضبة، ورقص الغلمان  
وساح الدخان في الهواء، وإنه على كل شيء قدير!...

## الفصلُ الثلاثون

لا يجتمع مصري بمصري إلا وكان ثالثهم مصر ومشاكلها!. وكيف السبيل لحل المسألة المصرية، وهنا على الهضبة الممارتية التي خلدتها الثورة الفرنسية وأظلتها سحابة الفكر والإبداع والتعجب، ليس بالحرب تحل المسألة المصرية، وليس بالمظاهرات تحل المسألة المصرية بل بالعلم والتعليم والتعلم والبحث والاستقصاء، والهدوء والتعقل والأدب والنقد والصدق، والعزيمة والهمة تحل المسألة المصرية، وتسير مصر على درب التقدم والحداثة وما بعد الحداثة إلى الرفاهية ...

قال عاطف:

- وما هو الصدق في التعبير الأدبي؟!

أجاب الحكيم:

- عليك بقراءة حديث الأربعاء ..

قال طاها:

- ليس الصدق هو التلاؤم في التعبير بين أسلوب الشاعر وعصره، بل هو كذلك في حسن التعبير عن نفسه وعاطفته، فهو إنسان يعيش في مجتمع يصور أحاسيس مجتمعه وحياة عصره باعتباره واحداً من هذا المجتمع، وهو إنسان كذلك له أحاسيسه الخاصة وعواطفه، وذاتيته التي لا يشركه فيها غيره من الناس، وشخصيته التي لا يشاركه في ملاحظها إنسان. فالشعر الجيد يمتاز قبل كل شيء بأنه مرآة لما في نفس الشاعر من عاطفة، مرآة تمثل هذه العاطفة تمثيلاً فطرياً بريئاً من التكلف ... فإذا خلث نفس الشاعر من عاطفة أو عجزت هذه العاطفة عن أن تنطق لسان الشاعر بما يمثلها، فليس هناك شعر، وإنما هناك نظم لا غناء فيه.

قال الحكيم:

- سنبعد قليلاً عما نحن فيه إلى عوامل التحليل النفسي.

قال عاطف:

- تقصد التحليل النفسي في النقد الأدبي؟

قال طاها:

- إن طبقنا منهج الشك على التحليل النفسي، وأخذنا مثلاً لشاعر مثل أبي نواس فإني أنكر إخضاع أبي نواس لهذا النوع من التحليل النفسي؛ لأنني أرى كل ما ينتج من إخضاع القدماء لهذا التحليل ضرباً من الظن لا يرقى إلى العلم، ولا ينتهي بأصحابه إلى اليقين، ولا يلزم قراءه الاقتناع به والاطمئنان إليه...

ولكن من حقنا نحن بعد ذلك أن نتحفظ أشد التحفظ حين نريد الحكم على منهج في الدرس الأدبي لهذا الشاعر الشقي العظيم أبي نواس، وأول ما يدعونا إليه التحفظ هو أن أبا نواس شاعر قديم ودراسة الشعراء القدماء لا تحتل التمهيد، لأننا لا نعرف من حقائق حياتهم إلا أقلها وأيسرها، ونحن إن سألنا التاريخ لم يكده ينبئنا من حياة أبي نواس بشيء ذي بال، إنما هي أطراف حفظها الراوة، وعسى أن يكونوا أضافوا إليها من أحاديث الناس ومن عند أنفسهم ما ليس بينه وبينها سبب.

فإذا أردنا أن ندرس هؤلاء الشعراء، فالخير كل الخير أن نحتاط ونتحفظ ونتجنب الجزم الذي يحتاج إلى استقصاء لا سبيل إليه، والعلماء المعاصرون لم يطمئنا بعد كل الاطمئنان إلى نظريات فرويد، ولا إلى ما نشأ عنها من فنون

التحليل النفسي الذي أصبح بدعًا شائعًا في أوروبا، وهام به الأمريكيون هيأماً شديداً.

وأفصح هنا عن أن اتجاهي في فهم الأدب ونقده هو اتجاه ذوقي يعتمد النص قبل الأديب، وأن جانبه الجمالي، باعتباره فنًا جميلًا، وما يتوفر فيه من خصائص الجمال، هو جمال موضوعي في كل نص جميل.

قال عاطف مشيرًا إلى الحكيم وطاها:

- وهنا روح الجمال الخالد.

قال الحكيم:

- لا تنسَ رفاة فهو روح خالدة في دنيا مصر.

قال طاها مشيرًا إلى الحكيم:

- هل ستأخذ صديقك إليه؟

قال الحكيم مؤكّدًا:

- دون شك.

قال الحكيم مستطرّدًا:

- الجمال الفني لا يستمد جماله من القديم والجديد وحدهما.

قال عاطف وهو يفرد ذراعيه مرحبًا:

- بل يستمدّه من هذا الروح الخالد الذي يتردد في طبقات الإنسانية كلها

فيحل في كل جيل منها بمقدار.

قال الحكيم:

- هو يتشكل في كل جيل بالشكل الذي يلائمه، ويتصور في كل بيئة بالصورة التي تناسبها وهو من هذه الناحية مصدر وحدة وفرقة للإنسانية، مصدر وحدة وفرقة لأنه واحد يجمع الناس مهما اختلفوا على الإعجاب والشعور باللذة القوية، ومصدر فرقة لأن له من الأشكال للأجيال والبيئات والمختلفة ما ينوعه، ويخيل إليه أنه كثير.

قال طاها:

- نعم العربي والفرنسي والإنجليزي يشعرون جميعا باللذة حين يقرءون خصومة أخيل وأجاممنون. لا يحول اختلافهم الجنسي بينهم وبين هذا الإعجاب وهذا الشعور باللذة، ولكنهم على اشتراكهم في الإعجاب واللذة يختلفون في تذوقهم لهذا الشكل الخاص الذي يتشكل به الجمال الفني في الإلياذة، هذا يرضاه وهذا ينبو عنه، وهذا يقف منه موقف غير المكترث، ذلك لأن بين هذا الشكل وبين نفوس هؤلاء الناس صلة تختلف قريبًا وبعدًا، وتتفاوت قوة وضعفًا باختلاف الجنسيات والبيئات والعصور، ففي الجمال الفني - كما ترى وكما يقول الفلاسفة - وحدة وكثرة، فأما الوحدة فهي جوهره، وأما الكثرة فهي أغراضه.

قال عاطف:

- إذًا يُخيل إلي أن المثل الأعلى في الفن إنما هو هذا النحو الذي يحقق هذا الجمال الفني الخالد الواحد في أحسن صورة. وفي أشدها بالذوق اتصالًا، وللنفس ملائمة.

قال طاها:

- وأظن أن هذا كله يكفي لبيان ما أردتُ تبينه من اختلاف الأدباء في جميع العصور حول الجمال الأدبي أين يكون؟ ومن أين يأتي؟ ولكنهم متفقون دائمًا على أن الأدب لا يكون إلا جميلًا، لأن طبيعته تقتضي ذلك، وهو لم يوجد إلا للسمو بالنفس إلى حيث تشهد الرفيعة من الجمال، شأنه في ذلك شأن غيره من الفنون الجميلة، فأنت لا تدري من أين يأتي جمال الصورة التي تعجبك وتروك؟! أياي من اللون أم يأتي من شيء آخر وراء اللون؟ وما عسى أن يكون هذا الشيء؟. أنت تعلم حق العلم أنك قد ترى شخصًا من الأشخاص فلا يروقك ولا يشوقك، ولا يقع من نفسك موقعًا ذا بال، ولكنك ترى لهذا الشخص نفسه صورة قد أتن المصور تصويرها، فتقف عندها وتطيل الوقوف ولا تكره أن تعود إليها لترها حينًا بعد حين، وأنت لا تدري ما مصدر الجمال الذي يروقك ويهرك حين ترى تمثالًا رائعًا، أهو مادة التمثال؟! هيات، إنك ترى هذه المادة على أصلها فلا تتير في نفسك شيئًا، أهو موضوع التمثال؟ هيات! إن موضوع التمثال كأمر موضوع الصورة، فما أكثر ما يصور المصورون ويمثل المثلون معاني لا ترى قيمًا تحسها النفوس والعقول وأنت حين تسمع لحنا مختارًا رائعًا فيسحرك ويخطف نفسك فيسمو بها إلى حيث لم تكن تقدر أن تبلغ، لا تستطيع أن تحدد هذا الجمال، ولا أن تعرف معرفة دقيقة من أين يأتي!..

قال الحكيم:

- خذ الأدب إذن كما تأخذ الموسيقى والنحت والتصوير، خذه على أنه متعة لروحك وغذاء لقلبك وعقلك، وليكن جمال الأدب حيث يمكن أن يكون، ليكن في الألفاظ والمعاني أو في النظم والأسلوب، أو في هذا كله.

قال عاطف:

- الأدب في آخر الأمر فن مثل الموسيقى يأتلف من هذه الأشياء كلها، من الألفاظ والمعاني والأساليب، وما يعرض من صور، وما يثير من عواطف، وما يبعث من شعور، فليكن جماله شيئاً شائعاً لا يستطيع أحد أن يقول أنه ينحصر في اللفظ أو المعنى أو في الأسلوب.

قال طاها:

- وإنما الشيء الذي يمكن أن يكون فيه شك هو أن الكلام لا يكون أدباً حتى يوجد فيه هذا الجمال الذي تجده فيما تنتجه الفنون الجميلة الأخرى، وليكن موضوع الأدب بعد ذلك ما يكون، ليكن في الأرض أو في الجو أو في نفس الإنسان وأعماق الضمير، ليكن موضوعه جميلاً أو قبيحاً، محبباً أو بغيضاً، فليس يعنيني من الأدب إلا أن يحدث في نفسي ما يحدث الأثر الفني من الشعور الرفيع بالجمال.

قال الحكيم:

- حيثما وُجدَ الجمال في الكلام كان الأدب. وحيثما خلا الكلام من هذا الجمال كان ما شئت أن يكون.

قال طاها:

- نحن لا نربط بين صورة الأدب ومضمونه، إذ أن الفن في الأدب مهما كان موضوعه ملائماً للحقيقة الأخلاقية أو منافياً لها، هابطاً أو عالياً حسب العرف، أو المفهوم الموضوعي لما يتعرض له.

قال الحكيم:

- ولهذا فأنت تهتم بالأسلوب؛ لأنه مظهر الأدب، وفي جماله جمال للأدب،

وتكون المقاييس الأسلوبية هي المعتمدة في نقد الأدب. ونحتفظ بالمقاييس التي احتفظنا بها دائماً في نقد ما ينتج الكتاب والشعراء صحة المعنى واستقامته وطرافته، وجودة الألفاظ ونقاؤها وارتفاعها عن الركاسة والإسفاف على أقل تقدير.

وهلل الغلمان لقدم قادم جديد هل على الهضبة كما يهل الفرخ على النفوس، ولاحظ طاهراً أن لا عمل لهؤلاء الغلمان إلا خدمة مواليتهم من الرجال والنساء، وتعجب أشد العجب أنه لم يرَ أباً نواس، وقال:

- وله في ذلك حِكم.

obeikandi.com

## الفصل الحادي والثلاثون

تسمع وترى وتتعجب على الهضبة. تسمع تصادم الكؤوس وتزاحمها وتحطمها على الأفواه المغلقة المفتوحة، تتبارى بتقديمها وملئها ورفعها أيدي الولدان الغلمان المشحونين بكل إغراءات ومعاني الجنس، الجنس العادي والجنس الشاذ والجنس الأنثوي والجنس الغلامي.

وشاهد طاها وتساءل: من يكون أولئك وهؤلاء وهؤلاء؟

رد الحكيم باستنكار:

- من يمكن أن يكونوا ويقبلوا أن يكونوا؟

طأطأ عاطف رأسه وقال من بين أسنانه:

- إنهم الأنبياء.. الأنبياء.. يتقاضون ويستهلكون ثوابهم بهذه الأساليب وبكل

الأساليب..!

قال طاها:

- إنها الهضبة تلغى فيها كل أساليب الوقار والاستحياء وكل مشاعرهما، إن

النبي أي نبي في الفردوس لن يحتاج إلى شيء من الوقار أو الاستحياء الذي كان يحتاج إليه أقل الناس حياءً ووقارًا في الحياة الأولى.

قال عاطف:

- رأينا مذلة العرب سكان الفردوس في الحياة الأولى. وها هو مستقبلهم دون

مستقبل ودون أمل ودون نهاية، هنا على الهضبة، أكثر إذلالاً ووقاحة ونذالة  
وجبنًا وسفالة ..

قال طاها:

- لو أن أي إنسان أو كائن أراد أن يعرف ماذا يمكن أن يكون العرب غدًا  
أو بعد ألف عام، أو بعد مائة ألف عام، فهل يكون مخطئًا لو أنه ذهب يقرؤك  
ويعرفك ويفسرك يا نبي العرب يا نبي العروبة لكي يعرف ماذا الذي سوف يكون  
بعد هذه المدة أي العرب الآن في الفردوس؟

قال الحكيم:

- إن كل طاقات العرب وأشواقهم معتقلة في قبره مع جثته لهذا لم يستطيعوا  
أن يتخطوه أو يخرجوا من قبره منذ دفنوه !

ظهرت كوكبة من الغلمان أمامهم مزركشة ثيابهم بالحلي واللؤلؤ والمرجان،  
مهدية لهم الكؤوس بإغراء وغنج ... مقدمةً هابطًا جديدًا جاء ليدرس حال  
العرب أصحاب الفردوس ومن وعدوا به، نظر إليه طاها مستطلعًا تلك الدندشة  
والغواية في ناظره، وأشار بعينه نحو الحكيم الذي ابتسم بدوره وقال للهابط  
الجديد:

- لقد أتيت إلينا لتدرس حال الإنسان العربي في كل عصوره، فأضحك بأن  
تدرس النبي العربي لتعرف ما جئت لمعرفة ..!

قال الهابط الجديد:

- ولماذا نبي العرب؟

أجاب عاطف:

- لأنه لو أي كائن مثلك فيه موهبة الرؤية والقراءة والمحاسبة والمحكمة والتفسير للأشياء - كما قلت وتقول - درست نبي العرب بكل تفاسيره، ثم قرأت أو سمعت أية زعامة أو قيادة عربية تتحدث أو تتحرك أو تتصرف أو تعلن عن نفسها بأي أسلوب أو سلوك في أي حرب أو سلام، في أي مصادقة أو معاداة فلن تشك في أنه أي النبي البدوي العربي هو الأب والجد والبداية للعروبة والنهاية أيضًا.

ارتفع الهابط الجديد وذاب مع الدخان الكثيف الصاعد في سحبات من بحيرات الحوريات السابحات المغنيات بأعذب الألحان في بحار من الخمر تجري تحتهم، واستدار عاطف لرفاقه مستطلعًا ... وقال مشيرًا إلى طاها:

- كنت قد تحدثت إلى الحكيم في الحياة الأولى حول الأسلوب في الأدب وسأعيد ذلك عليك.

قال طاها:

- الأسلوب صورة الأديب، ومرآة نفسه وتجاربه، فينبغي أن تكون هذه الصورة مشرقة جميلة غير متكلفة، صادقة غير كاذبة أو خداعة، فقد تحاملت على شوقي مثلًا في قصيدة كأل أتاتورك:

الله أكبر كم في الفتح من عجب

يا خالد الترك جدّد خالد العرب

فقد ضحكت عند سماع هذه القصيدة، نعم ضحكنا وأسبنا حين قرأنا هذه القصيدة، وأضحكنا مطلعها قبل كل شيء، فكم عجبنا من ذكر خالد ومقارنة مصطفى

كأل به حين كان العالم الحديث يضطرب بذكر القواد النابهين في الحرب الأخيرة، وحين كانت صورة هؤلاء القواد النابهين في الانتصار والانهزام تملأ النفوس إعجاباً، أو حين كان الشرق في ذلك الوقت الذي كان ذليلاً يشوبه شعور بالعزة وطموح إليها والذي كان أثراً من آثار هؤلاء القواد، ضحكنا من قياس مصطفى كمال إلى خالد بن الوليد. كما شبه رئيس الغفلة المصري مرسي بخالد بن الوليد كذلك.

والحق أني لا أعرف، أمدح شوقي مصطفى كمال حين قارنه بالفاتح العربي القديم أم ذمه؟! ولم نكد نمضي في قراءة القصيدة حتى ازددنا إغراقاً في الضحك والأسى. وكنت تقول لي إن هذه القصيدة أصدق دليل وأقواه على عجز القديم عن تصوير الحياة الحديثة، وفشل الشعر العربي العصري في التعبير عما قصد إليه من إمتاع النفوس وأشعارها لذة الجمال الفني.

الحكيم:

- إن اهتمامكم بأن تكون لغة الأدب لغة صافية منتقاة تجري وفق قواعد اللغة الفصحى لأن كل خلل يؤدي إلى تشويهها ومن ثم إلى تشويه الأسلوب، والنيل من رونقه، وجماله، ومن ثم من متعة القارئ كما ذكرت لنا في نفس الموضوع.

قال عاطف:

- لقد وجدت أنك توجه اتهامك للأديب الرافي في أنه تعنت في تحميل اللغة والأدب بها، وهو قادر على صياغة ضروب من العبارات المزخرفة اعتماداً على قدرته اللغوية ومحفوظه من النصوص القديمة، وهذا إسراف وتكلف في رأيكم، وهو كذلك ابتعاد بالأسلوب عن دوره الحقيقي في أحاسيس الأديب ومشاعره، وميوله وشخصيته، والتعبير بذلك عن حياته المعاصرة، وفيه ابتعاد كذلك عن تحقيق الجمال المنشود في الأسلوب الجمالي الذي يرضي الأذواق المعاصرة لا أذواق

القدماء أو من ذهبوا مذهبهم ممن أغلق على نفسه الأبواب وظل يحيي حياتهم، غافلاً أو مغفلاً حياة العصر وذوق العصر.

قال الحكيم:

- أذكرك بجان جاك روسو لهيكل وأنت تقول: "والناس جميعاً يعلمون أن هيكلًا على امتيازه الفني وبراعته الكتابية يحسن لغته العربية ويتقنها ويتصرف بها كما يحب ويسخرها كما يشتهي".

قال طاها:

- ربما كانت له في ذلك شخصية بارزة حين يختلج في نفسه الرأي ويشعر بأن اللغة قد تضيق برأيه فيكرهها على أن تتسع، ويرغمها على أن تأتيه من الألفاظ ما هو في حاجة إليه، ولكنني لا أدري أعلم الناس أن صاحبنا يكره التعمق في اللغة والإسراف في تجنب الألفاظ القديمة وتخيير الألفاظ الحديثة المبتدلة؟ ولقد كانت بينه وبينني في ذلك مناقشات ومخاضات حظ الهزل فيها أكثر من حظ الجد، ولكنها كانت على كل حال مظهرًا من مظاهر اختلافنا في الرأي أمام هذه المسألة الفنية. وأنا أفهم حق الفهم أن يميل بعض الكتاب إلى تخيير الألفاظ المتقنة، بل أنا أفهم حق الفهم أن يتحرج بعض الكتاب في استعمال ألفاظ لا يجدها إلا في المعاجم، أنا أفهم هذا حق الفهم، وأفهم شيئًا آخر، وهو أن يطلق بعض الكتاب لأنفسهم الحرية في استعمال ما يعرض لهم ما رضيت عنه المعاجم اللغوية أو سخرت عليه، أفهم هذين المذهبين وأريد أن يتوسط بينهما ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، لأنني أريد أن أحتفظ للغة بجمالها ولهجتها من جهة، وبحياتها وقوتها من جهة أخرى.

قال طاها ذلك وهو ينظر إلى عاطف وعصره، وأريد أن أكون قادرًا على أن

أصف ما في نفسي، وألا أسلب في نفسي هذه القدرة لأني لا أجد في المعاجم لفظاً يعجبني ويؤدي ما في نفسي، ولكن هناك شيئاً لا أستطيع أن أفهمه، وما أحسب أن أحداً يستطيع أن يفهمه، وهو أن يسرف في حريته اللغوية حتى يهدم قواعد اللغة. ويتجاوز حدودها وقوانينها في غير نفع ولا نكتة فنية، ولا ضرورة قاهرة، لا أستطيع أن أفهم مثلاً أن يذكر اللفظ المؤنث، ويؤنث اللفظ المذكر، فقد تستطيع أن تكون حراً في اللغة بل إباحياً، ولكنك لن تستطيع أن تمنح هذه الحرية التي لا خير فيها ولا نفع، وأي فائدة تجدها وأي لذة تظفر بها حين تضم فعلاً يجب أن يكسر، وتذكر لفظاً يجب أن يؤنث، ومع هذا فأنا أجد هذا النحو من الخطأ اللغوي في كتاب صديقي هيكل وأجده على هذا النحو بل أبشع في مصر الآن.

قال عاطف:

- هذا صحيح، وهذا كله نجده اليوم في المتحدثين بالعربية فهم مخطئون وخطأون ويدسون لغات وألفاظاً أجنبية تنافي كل قواعد اللغة وأصولها، ناهيك عن استبدال الحروف العربية بالأرقام الحسائية بالشكل الأوروبي الدخيل على اللغة العربية مما يهددها بالبهتان والسخف .

طاها:

- لستُ أريد أن أسرف ولا أن أطيل في إحصاء هذا الخطأ، وإنما أريد أن أدل عليه دلالة موجزة، أريد أن أسأل كيف استطاع هيكل أن يقول: (وكان قدمه قد استقر يومئذ في الأدب) وهو يعلم أن القدم مؤنثة لا مذكورة؟ أريد أن أسأله كيف استطاع أن يقول: (وإلا يكون من السخف حتى نضحي برأينا هنا بسبب مثل هذا الرأي الأخرق)، ومتى كانت "حتى" ظرفاً مكانياً؟ وإنما أراد هيكل أن يقول: (وألا نكون من السخف بحيث نضحي ....).

قال الحكيم:

- وقد أخذت على حافظ إبراهيم مأخذًا أيضًا!

قال طاها:

- نعم في قصيدته في أرسطاليس، يقول في بيته:

بكتاب أرسطاليس تاج نوار الفلك المدار

"ألم يتقل عليك؟ أتحب هذه الإضافات؟ وما معنى نوار الفلك المدار؟ وما معنى تاج هذه النوار وما معنى أن يكون كتاب أرسطاليس تاجًا لهذه النوار؟. أعترف أنني لا أفهم شيئًا إلا أنه سلك هذه الطريقة الطويلة ليصل إلى لفظ "المدار" فتظفر بقافية وتحشر في القصيدة بيتًا كنت تستطيع أن تزهده فيه، وكذلك استبعدتك القافية في قولك:

ترن الكلام كأنه ماس بميزان التجار

فما ميزان التجار؟ وما الحاجة إليه إلا لأنها القافية؟!

وعلى ناجي أخذت ضعفه اللغوي، فقلت بعد أن عرضت لنماذج من أخطائه: ومثل هذا الخطأ ومثل هذا التكلف كثيرٌ جدًّا في الديوان، وكان الشاعر يستطيع أن ينفيه وأن يبرأ منه لو أنه لم يخرج نفسه عن طورها، ولم يعرض لما لم ينبغي له أن يعالجه من الموضوعات، ولو أنه عني باللغة والنحو، وهذه النواحي التي يهملها المحدثون حين يكتبون أو ينظمون ويحسبون أنهم يجددون، وأن التجديد يبيح لهم أن يعذبوا اللغة، وأن يمسخواها، ويجهلون أو يتجاهلون أن أجمل المعاني وأروعها يفسد أقبح الفساد إذا لم يؤدَّ في لفظ مستقيم جميل! ويتصل بالأسلوب

الموسيقى التي يضمنها الشاعر شعره، وهي عنصر من عناصره الهامة، وليست قاصرة على الوزن إنما هي ما ينتج من نظم الكلام، وحسن صياغته، بحيث يكون له من الجرس، ما يحلو في الأذان، وقد عرف في العربية شعراء بإجادتهم لموسيقى الشعر، ومن أقدمهم الأعشى وكذلك البحري وشوقي.

وأبرزت هذا العنصر في نقد الشاعر علي محمود طaha فقلت : ... وأريد أن أضيف إلى ما يعجبني في شعره أنه حلو الأسلوب جزل اللفظ جيد اختيار الكلام، وأن لألفاظه ومعانيه رونقاً أحاداً تألفه النفس وتكلف به وتستزيد منه، وأن في شعره موسيقى قلما تظفر بها في شعر كثير من شعرائنا المحدثين، وأنه استطاع أن يلائم إلى حد بعيد لا بين جمال اللفظ وجمال المعنى فحسب، بل بين التجديد والاحتفاظ باللغة في جمالها ورونتها، وبهجتها وجزالتها ... شاعرنا مغرّب شخصيته أقوى من بيئته، وليس قاصّاً، وبيئته أقوى من شخصيته .. فهو حريص على الموسيقى، وهذا واجب عليه، وأداؤه مشكور له، ولكنه يحرص على الموسيقى في الوزن أكثر مما يحرص عليها في القافية، وأظنه يسيء في القافية كثيراً، وليس يعينني أن يجد له عذراً عند أصحاب القوافي أو لا يجد، ولكن الذي يعينني أن القوافي يجب أن تلائم السمع، وما أظن أن هاتين القافيتين تأتلفان لمكان الواو الساكنة من إحداها والباء الساكنة من الأخرى، وانظر إلى هذين البيتين لعلي محمود طه:

روحك في روحي تبث الحياة

نزلت دنياي على فجره-ا

فإن جفاها ذات يوم س-ناه

لازتُ بليِلِ الموتِ في قبرها

ولاح الهابط الجديد الذي أصبح ليس جديدًا يهْلُلُ تحيطه الملائكة من كل جانب وسكان الفردوس الرجال والنساء والخور والغلمان المخلدون المزينون بكل الحلى والأصباغ وقال:

- هل يمكن أن يحدث حَبَلًا بلا لقاح أو حَبَلًا بلا ولادة؟ أو ولادة بلا مولود أو عروبة بلا بداوة أو زعامة عربية بلا تفاهة وجهالة؟ .. هذا ما قيل لي وله في هذا شؤون.

obeikandi.com

## الفصل الثاني والثلاثون

على الهضبة الممارتية لا ليل ولا نهار، لا شهور ولا سنين ولا شمس ولا قمر ولا شغلة ولا مشغلة، منبطحين راقدين سائرين مضطجعين خالين ساهمين كسالى. تهبط الشجرة على الرؤوس بثمارها والخمر والحليب في مجاريهما والتمر والتفاح ملء اليد، والخور الغيد والغلمان يخدمون لا والد ولا مولود، لا عمر ولا سنين، لا نهاية للبداية، لا حامل ولا محمول. بل جنة تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، جوها الصحو العذب لا غبار ولا تراب، لا شمس ولا قمر لا نجوم ولا قطب، يا لها من حياة يحسداهم عليها الآخرون! والتقينا وللقيانا حديث لم ينته ككل شيء على الهضبة ليس له نهاية ...

وأدار عاطف الحديث بين طاها والحكيم وحتى الهابط الجديد الذي زار النبي وجاء بما حدث بأن العرب هم سكان الهضبة وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات ... وشطح الخيال في الصورة الأدبية التي هي عنصر من عناصر الأدب.

قال طاها:

- أما إذا كان الخيال ملكة تمكن الشاعر والكاتب من أن يخترع شيئاً من لا شيء أو يؤلف شيئاً من أشياء لا ائتلاف بينها، فلم يكن أبو العلاء على حظ من الخيال، لأنه لم يخترع في رسالة الغفران شيئاً من لا شيء، ولم يؤلف بين متناقضات، ولكننا نعم أن علماء النفس لا يسمون هذه الملكة خيالاً، وإنما يسمونها وهمًا، وهم ينبئوننا بأن الخيال لا يخترع شيئاً من لا شيء، وإنما يستمد

صوره ونتائج من الأشياء الموجودة، يؤلف بينها تأليفاً غريباً يبهز النفس ويفتها. وإذا كانوا صادقين -- ونحسبهم صادقين -- فحظ أبي العلاء من الخيال في رسالة الغفران لا حد له.

قال الحكيم:

- هذا ما كان من أمر صديقنا العقاد أما اعتراضكم على الشاعر محمود حسن إسماعيل فكان خصاماً ..

قال طاها:

- إنني أترض على مغالاة علي محمود طاها في خيالاته الشعرية، وأحب أن أخاصم الشاعر في بعض مذهبه في الشعر، فهو يغلو في الخيال أحياناً حتى يتجاوز المألوف، ويتورط تورطاً فاحشاً فيما عاب النقاد به أبا تمام، فهو يجسم ما لا سبيل إلى تجسيمه، وليس بذلك بأس إذا لم يسرف فيه الشعراء وإنما ألمّ به إلماماً، أما شاعرنا فيغلو فيه غلوً فاحشاً، وما رأيك فيمن جسم الليل حتى جعل له أوصالاً وعروقاً وأجرى في هذه العروق دمًا. وليت شعري كيف يكون دم الليل؟! أجامد هو أم سائل؟ أناصع هو أم قاتم؟ أخفيف هو أم ثقيل؟

قال عاطف:

- وهكذا نتبين مدى الاهتمام بالصورة الأدبية، أو بصورة الأدب بجوانبها المختلفة اتجاهًا واضحًا إلى اعتبار الأدب صورة مشرقة من المعاني والألفاظ والخيال المشرق الجميل الذي بينه وبين الشعراء والكتاب، واختلال عنصر من هذه العناصر يشوه الصورة الأدبية، مهما كان المعنى الذي يودعه الأديب إيها، أو الموضوع الذي يطرقه جليلاً أو عظيمًا.

قال الحكيم:

- لا حظت في نقدك للوحات الفنانة فيريدا أنك تنحو نحو الفن للفن! أو إلى المذهب البرناسي الذي أطلنا الحديث فيه.

قال طاها:

- أذهب في هذا الرأي مع القائلين بأن الفن للفن بغض النظر، أو دون اعتبار لموضوع الفن سواء أكان ذلك الموضوع سامياً، أم منحطاً، يتمشى مع العرف والأخلاق أو لا يتمشى، يخدم المجتمع أم لا يخدم. فهو رأي إذاً قد رأيته واستقر عليه رأي وذوقى وناديتُ به في مطلع حياتي الأولى في دراساتي عن شعراء المحجون في العصر العباسي.

قال الحكيم:

- وألححت فيه في مناقشاتك مع كتاب وشعراء محدثين من أتباع جماعة أبولو ومن جاء بعدهم، لتأكدته ولا زلت تصرّ عليه في معاركك مع جماعة الاتجاه الواقعي في الأدب.

قال عاطف:

- لقد انحط الأدب اليوم في بلاد المصريين والعرب إلى درجة السفه! لا جمال ولا مضمون ولا معنى ولا مفهوم.

قال طاها:

- أريد شبابنا أن يأخذوا الأدب كما يجيء، وأن يقولوا لنا كما يقول بعضهم لبعض، وكما كان يقول ذلك التاجر القديم: كما يجيء يكون؟ أم يريدون أن يكون الأدب جميلاً في مادته وصورته جميعاً؟ والجمال لا يأتي عفواً إلا في القليل النادر،

وهو يحتاج أكثر الأحيان إلى فنون من الجهد وصنوف من العناء، وإلى كثير من الوقت وكثير من المحاولة والمزاولة والمطاولة، وما أحب أن يظن الشباب من الأدباء أني أثيرهم رغبة في إثارتهم، أو تلهيًا بما يكون من أمرهم حين يثورون .... وإنما يدفعني ما أراه من ميل الشباب إلى التهاون في التعبير كما يتهاونون في التفكير أحيانًا، تخطر لكثير منهم القضية فيسرع إلى تسجيلها ثم يسرع إلى إخراجها للناس، لا يحقق معناه، ولا يستأني به حتى يتم نضجه ولا يتأنق في صورتها، ولا يجد في تسويتها حتى تخرج نقيمة رضية تستهوي النفوس ويحسن وقعها في القلوب.

اعتدل طاها وما زال ينظر بحزن وأسى إلى عاطف وعصره وقال:

- اختلاف الناس قديم بين جمال الصورة وجمال المعنى، فبعضهم أعجب بمسلم بن الوليد لصنعه ألوانًا من الجمال الموسيقي في الألفاظ يناسب ما بينها في ألوان من التجنيس والمطابقات، وبعضهم ضاق بمسلم بن الوليد وأعجب بأبي تمام لاصطناعه ضروريًا من المعاني البعيدة الغور في شعره مما يجعله صعبًا على بعض الإفهام.

ثم التفت إلى الحكيم وبادره:

- وليس المحدثون من الأوروبيين أقل اختلافًا في ذلك من القدماء، فمنهم من يؤثر جمال اللفظ والمعنى، على أن يكون هذا الجمال قريبًا داني القطوف، لا تجد العقول ولا الأذواق جهدًا ولا مشقة في فهمه وذوقه والاستمتاع به، ومنهم من يناون عن هذا كله وينهون عنه ويضيقون بالحياة كما يحياها الناس، وبكل هذه الأشياء التي ألفها الناس مصبحين وممسين، ويلتمسون الجمال الأدبي في حياة بيتكرونها هم ويخترعونها اختراعًا.

قال الحكيم:

- وهل نفرل بين الأدب ومادته على اعتبار أن الأدب في مفهومه يتكون من ثلاثة عناصر هي صورة الأدب ومادته وجماله؟

قال طاها:

- لا أرى أن الأدب الرفيع ينفصل عن مادته إذا ما تعرض لموضوع اجتماعي ما يدور في الحياة في مستوى العامة لا الخاصة، وهو لا يأخذ بالفصل بين اللفظ والمعنى كما قاله القدماء من علماء البلاغة، ولا يأخذ باتهام الواقعيين للأدب بأن الصورة قد تنفصل عن المضمون إذا لم ينزل الأدب إلى مستوى الجماهير وواقع الحياة، حتى ولو تعرض هذا الأدب (الرفيع) لموضوعات من صميم حياة الجماهير واهتمامهم.

قال عاطف:

- لقد صعب على المتابعة.

قال طاها:

- لا نستطيع أن نفهم موقفي من الأدب من حيث الصورة والمضمون إلا إذا ما تصورنا أن صورة الأدب هي لفظه ومعناه جميعاً في شكل جميل يلدّ ويمتّع، والمعنى المقصود هنا هو المعنى الجزئي، وليس الموضوع أو المضمون الكلي الذي يدور فيه الكتاب أو النص، فإذا أخذنا قصيدة مثلاً موضوعها الحريق الذي شب في قرية من قرى مصر، وهو مضمون اجتماعي، للشاعر أن يتناوله من أي جانب يشاء، من جانبه الإنساني المحض أو من جانبه الفردي وانعكاساته على نفسه، ومشاعره الخاصة.

وفي هذا التناول يصور الشاعر بمعانيه وألفاظه وموسيقاه وخيالاته ما يشاء تصويره من هذا الجانب أو ذاك، ومن هنا قد يكون الموضوع جميلاً كوصف بحيرة جميلة، وقد يكون قبيحاً منافياً للأخلاق كالتعرض لهذه الألوان من الشذوذ التي تناولها أبو نواس وجماعة الشعراء المُجَّان، أو لموضوعات تصور انحرافات من أي لون لا يرضى عنها الناس وفقاً للتقاليد، ولكن قد يرضاها الأدب فيخرج منها صوراً جميلة تلذ وتمتع، وإن كانت قد تنافي الدين والخلق جميعاً.

وقد حدثنا القاضي الجرجاني في "الوساطة" عن ضرورة التفريق بين موضوع الأدب وصورته - بهذا المفهوم الذي بيّنا - واستشهد كذلك بشعر أبي نواس، وعرض الجاحظ للمشكلة نفسها من جانب آخر حين قال: إن المعوّل في الأدب والبلاغة على اللفظ لأن المعاني مبذولة في الطريق، ولم يقصد بطبيعة الحال معاني الشعر، أو المعاني البلاغية التي يبتكرها الكتاب، إنما قصد موضوعات الأدب، وهي ما يقع تحت السمع والبصر في الحياة.

قال الحكيم:

- بهذا المفهوم إذن نستطيع أن نواصل الرحلة مع جماعة الواقعيين. ولا نحب أن أقول إنك قد تراجعت عن رأيك، فبعد أن كنت برناسياً، وعربياً في اتجاهك تجري على سنن أدباء العرب وبلغائهم أصبحت تعبيرياً على مذهب جماعة التعبيريين، أمثال بندتو كروتشه وأضرابه الذي يرى أن الأدب تعبير.

قال طاها:

- أنت مناكف أيها الحكيم. أرى أن دعوة الواقعية حين تأخذ بمفهوم الوحدة بين الصورة والمضمون، هي في هذا كله إنما تصدر عن ميل للكسل وعدم الرغبة

في الجهد، ومن مظاهر ذلك:

\* محاولة التبسيط في اغتراف الموضوعات من الشارع دون تخلص أو تنقية.  
\* عرضها في لغة عامية أو أقرب إلى العامية.

\* الانفصال بين ما يصوره هؤلاء الأدباء من تشاؤم في أدهم، وبقاى واقع حياتهم.  
وهكذا يرد الانفصال بين الحياة والأدب إليهم وإلى أدهم هم، كتابنا الواقعيون إذن يصطنعون واقعيتهم هذه اصطناعاً، ولا يشتقونها من طبائعهم، وهم مع ذلك يرون هذا صدقاً في الفن، وليس هذا من الصدق في شيء!

نادى عاطفُ الهابطُ الجديد يسأله عما شاهد هناك واستوعب.

أجاب الهابط موجهاً الحديث إليهم جميعاً:

- اسمعوا ... الأنبياء والأصفياء والأتقياء والرحماء والأبرار الذين تطفئ دموعهم الرحيمة المحبة الشمس، وتغرق الأنهار والبحار من غزارة رحمتها ومحبتها. اسمعوا، اسمعوا ... هؤلاء يعيشون هناك في أحضان وعلى مضاجع الحوريات وعلى قرعات الكؤوس في أيدي الغلمان، يستمتعون بالنعيم الذي وهب الإله وأعوانه كل عبقريتهم وطاقاتهم لكي يتصوروه ويعرفوه ويريدوه ويخططوه ويصنعوه، لكي يستطيع الإله وأعوانه أن يفعلوا ذلك بينا آباؤهم وأمهاتهم وزوجاتهم وأقرباؤهم يحترقون في الجحيم الذي ترفض الأبالسة حتى أن تتصوره.

نظر عاطف إلى طاها الذي ابتسم له، ورفع يديهما لطاها منتظرين الرد على ما قال الهابط مما شاهد في الفردوس والجحيم.

قال طاها وهو يحمق في وجوه العصور التي التفت حولها :

- آه ... ليت الإله وأنبياءه وأصفياه وأحبابه والمؤمنين به يتعلمون ويلتزمون

شيئاً من أخلاق الشيطان ومن ذكائه وكبريائه ومن كرامته ورحمته وشهامته وتقواه! إن الشيطان هو النموذج الفريد الذي لا يستطيع أحد من سكان هذا الكون مباراته! .. هل كان كفر الشيطان وعصيانه إلا كرامة وشهامة وإباء؟!!! وإلا رفضاً واستنكاراً لمنطق الإله ولأخلاقه واحتجاجاً عليها وعليه؟! .. لقد كان الشيطان شجاعاً وصادقاً في التزامه بمنطقه وأخلاقه، لهذا عجز عن أن يغفر للإله منطقته وأخلاقه! لقد كان الشيطان غلطة ذكية شجاعة في هذا الكون!

واستطرد طاهها في دفاعه عن الشيطان قائلاً:

- إن الشيطان لم يتحول إلى شيطان إلا اشمئزاً من أخطاء الإله وخطاياها! "إن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء" هكذا قلت يا إلهي. إذاً لماذا لم تشأ أن تهدي آباء وأبناء وأقارب الأنبياء وكل المؤمنين ليكونوا معهم في الفردوس مجاورين لك؟!.. أم أنك تهدي من تشاء?..

## الفصل الثالث والثلاثون

لم نرَ ولم نسمع ولم نشاهد صاحبنا الهابط. هل أصابه مكروه هناك؟ أم ضل الطريق واختفى على الهضبة؟! لا نفكر في الموت لأننا نحيا دائماً ساجدين مسبحين غافرين مستغفرين هائمين متجددين منتعشين فياضين أبداً. لم يشغلنا الهابط عن حديثنا، إن حضر نسمع عنه ونسجل له وإن لم يكن فلا بأس. والتفت عاطف إلى طاها متحدّثاً:

- حدثنا طاها حسين عن رأيه في صلة الأدب بالمجتمع، ورأى أنها صلة تأثير وتأثر، وليست صلة إلزام والتزام، ذلك أنه لا يرى شيئاً يلزم الأديب، وأن الأديب أحسن ما يكون إنتاجاً إذا ما توفرت له الحرية والذاتية معاً، ولم يخضع لأي لون من السيطرة ولم يرتبط بأي لون من الرباط الملزم.

### قال الحكيم:

- قال حسين إن الحق الذي ليس فيه شك هو أن أصحاب الأدب في سبيل الحياة إذا سألتهم عن هذه الحياة التي يريدونها لم تجد عندهم جواباً مقنعاً.

### قال طاها مقاطعاً:

- وإنما هي كلمة جاءتهم في بعض ما يقرءون من الكتب والصحف والمجلات، فأخذوها على علّاتها، واستعملوها على غير تحقيق لها ولا تثبت منها، فليحذروا

أن تفهم عنهم على وجه لم يريدوه ولم يقصدوا إليه، فقد يفهم منهم العامة وأشباه العامة أن الأدب يجب أن يُسخر في سبيل الطعام والشراب، وما يشبه الطعام والشراب من الحاجات المادية القريبة. وقد يفهم منها بعض المثقفين أن الأدب يجب أن يسخر لمذهب بعينه من مذاهب الإنسانية الحديثة في السياسة والفلسفة والاجتماع، وهو أن الأدب يجب أن يكون مسخرًا لإقناع العامة وأشباههم بأن الحياة مادة ليس غير، وبأن الروح وما يتصل به من العقل والقلب والملكات المختلفة إنما هي أساطير هام بها القدماء وهي لا تغني عن الناس شيئًا.

عقب الحكيم منبها:

- إن أصحاب الأدب في سبيل الحياة يتفقدون على أن تلك الحياة هي الحياة الإنسانية الطامحة إلى الرقي والكمال بقدر الطاقة في جميع فروع النشاط الذي تبذل فيه جهودها على اختلافها.

قال طاها:

- وإذا اتفقنا على ذلك فإنني أتحدى أصحاب الأدب في سبيل الحياة وأسألمهم أن يدلوني على أدب قديم أو حديث لم يتجه إلى إرضاء هذه الحاجة الإنسانية!! وإلى ترقية الحياة الإنسانية الاجتماعية ونقلها من طور إلى طور. وقد يذكرون أدب الذين يريدون الفن للفن، ولكنني أنصح لهم بأن يحتاطوا، فالذين يريدون الفن للفن لا يرتفعون بأنفسهم عن الجماعات الإنسانية، ولا يجعلون أنفسهم ملائكة. ولا يعيشون في السحاب، ولا يلتزمون هذه الخرافة التي تسمى البرج العاجي، ولكنهم يرون للجماعة الإنسانية نفسها كما يرون لأنفسهم أن تخلص بعض وقتها وبعض نشاطها وبعض ملكاتها للجمال من حيث هو الجمال، ولأداة الجمال التي هي الفن الرفيع أدبًا كان أو تصويرًا أو موسيقى، أو ما شئت من الفنون الجميلة،

ويريدون للجماعات الإنسانية كما يريدون لأنفسهم الارتفاع بين حين وحين عما يتصل بالمنافع العاجلة القريبة إلى ما هو أبقى منها وأرقى، يرون حقاً على كل إنسان لنفسه لا أنه أذكي للعقول، وأصغى للقلوب، وأتقى للأذواق، وأطهر للطباع، العملية أن يكون أخصب نشاطاً، وأكثر إنتاجاً، وأكرم على نفسه من الذين يقفون جهودهم كلها على إرضاء الحاجات وتحقيق المنافع وقضاء المآرب.

قال عاطف:

- والحرية حرية الأدب، وحرية الأديب؟!

أجاب طاها:

- إن الالتزام على تلك الصورة التي يدعو لها أصحاب الاتجاه الجديد تسخير للأدب والأديب، وهما أشد ما يكونان حاجة إلى الحرية والانطلاق، وإلى التحرر من كل ارتباط أو قيد مهما كان شرف ذلك القيد وقيمه.

قال الحكيم:

- لا أرى لأحد كائناً من يكون فرداً أو جماعة أن يكلف الأديب أو يوجه أدبه هذه الوجهة أو تلك.

تابعه طاها:

- الأديب حرٌّ في أن يكتب ما يشاء، ويكتب كيف يشاء. والقراء أحرار يقرءون إن شاءوا، ويقرظون إن أحبوا، ويسخطون إن أثار فيهم الأدب سُخْطاً، ويرضون إن أثار فيهم الأدب رضى، وليس بين الأدب وبينهم إلا هذا. ليس لهم على الأديب أن يكتب لهم ما يشاءون، وليس للأديب عليهم أن يرضوا عما يكتب، وإن لم يعجبهم ولم يقع منهم موقع الرضى. تلك عناصر أصلية في منهج

الدراسة الأدبية والنقد. وإذا كنا قد أشرنا إلى تلك العناصر مفردة، فإنها تتضافر هنا، وتضعف وتقوى حسب أطوار الحياة، وحسب الزمن الملازم، والظروف كذلك. على سبيل المثال: آثرت المنهج العلمي، وشرحته وأكدته في مطلع دراستي الأدبية، لأنني رأيت حاجة الدرس الأدبي إليه، وقد كانت تحكمه الفوضى والسطحية. كذلك عمدت إلى تأكيد مبدأ انفصال الأدب عن الدين والأخلاق، وبحث النصوص على أساس العنصر الجمالي، وكان الحذر والخوف من الجامدين يحدّ من حرية الباحثين ويضيق من آفاقهم.

هذا وأعمد إلى بيان أهمية اللغة والأسلوب، وضرورة مسaire الأصول العربية السليمة وضرورة توفير الجمال والكمال له في وقتٍ بدأت تغلب فيه على أساليب الأدباء موجة من التساهل وعدم المبالاة والتدقيق، متعللين بأنهم يجددون وأنهم يكتبون بلغة العصر، أو أنهم واقعيون يرون ضرورة التلاؤم بين الأدب ومضمونه، أو أن يكون المضمون والصورة خلقاً ممتزج العناصر، فلا يرتفع الأدب في التعبير عن الواقع باللغة والأسلوب الذي لا يجري فيه.

قال عاطف:

- ومهما بدا من اختلاف في درجات اهتمامك بعنصر أو أكثر من هذه العناصر دون الأخرى فإنك لم تجذ عن هذا الهيكل العام، هذا الهيكل الذي يعتمد على دراسة الحياة من خلال النص الأدبي، والاهتمام بالأدب قبل الأديب، والاعتماد في النقد على جمال الأسلوب في معانيه وألفاظه، وموسيقاه وصدق تعبيره.

وما رأيك في النقد والناقد ثم النقد التطبيقي لإنتاج الشعراء والكتاب، قدماء ومحدثين؟

أجاب طاها:

- أرى أن الناقد ينبغي أن يتخلص من أهوائه قبل أن يعرض لنتاج أدبي بالنقد، وقد حاولت أن أكون كذلك، فثلاً في نقد كتابي "مختارات سلامة موسى" و "مطالعات في الأدب والحياة" للعقاد، أخذت نفسي بأن أكون حرًا في النقد، وأملي على نفسي موثقًا من الله لأكون حرًا مطلق الحرية، ولأنسين في هذا النقد صلات المودة والقربى، وعواطف الرضا والسخط، فقد يكون لي أن أتجاوز الخصومات السياسية، وأن أجعل خلاف الأحزاب دبر أذني وتحت قدمي، لأتحول كلمة حق في الأدب ليس بينها وبين السياسة والأحزاب صلة.

ثم إن النقد تمحيص للعلم والفن، ودلالة على ما فيهما من حق يجب أن يبقى، وباطل يجب أن يزول. والنقد إذاً حاجة طبيعية لكل حركة علمية أو أدبية أو فنية، ولكن النقد لا خير فيه ولا نفع به إذا لم يكن حرًا من كل قيد من هذه القيود المنكرة التي تحول بين النقاد وبين أداء واجبهم على وجهه.

قال الحكيم مؤكداً:

- وهكذا استطعت أن تشق طريقاً جديداً في مجال النقد المنهجي، وأن يكون هذا النقد على أساس علمي منطقي نظري موضوعي بعيداً عن المنهج التأثري أو الانطباعي أو المنهج الكلاسيكي الاتباعي.

وقد سار النقاد بعد ذلك على هذا الدرب طويلاً على الرغم من أنهم من البداية وقفوا منه موقف المستريب المتشكك والمتوجس حتى استطاع بما له من قوة بصيرة أن يفتح الباب ويقوم مقام الفارس الذي يقود الكتيبة.

وقد أصبح منهج طاها حسين يوافق أحدث النظريات النقدية من الشرق

والغرب وأصبح له رواده ومؤيدوه الذين ساروا على منهجه.

قال عاطف معقبًا:

- وأين نحن منه اليوم؟ ونحن أشد حاجة إليه من أي عصر مضى. ويظل السؤال معلقًا في الخلق: أين وصل فكر طاها حسين؟ وأين هو فكر الجيل الكبير؟ ومشروع النهضة العربية، هل وصل إلى انسداد تاريخي ومعرفي؟ وهل نحن بحاجة اليوم إلى طاها حسين آخر هذا الذي أضاء بحرقته وبمخرفته هذا الأفق العربي المغلق؟ وأشدت الهضبة: طاها حسين، الذي قال عنه الشاعر الكبير نزار قباني:

ضوءُ عينيكَ أم هما نجمتانِ؟ \*\* كلهم لا يرى وأنتَ تراني  
ضوءُ عينيكَ أم حوارُ المرايا \*\* أم هما طائرانِ يحترقانِ؟  
آه يا سيدي الذي جعل الليل \*\* نهارًا والأرضُ كالمهرجانِ  
ارمِ نظارتيكَ كي أتملّي \*\* كيف تبكي شواطئَ الخلدانِ  
ارمِ نظارتيكَ ما أنتَ أعمى \*\* إنما نحنُ جوقةُ العميانِ  
أيها الفارسُ الذي اقتحمَ الشمسَ \*\* وألقى رداءه الأرجواني  
أيها الأزهرِيُّ ... يا سارقَ النارِ \*\* ويا كاسرًا حدودَ الثواني  
عُدْ إلينا فإنَّ عصرَكَ ذهبِي \*\* ونحنُ عصرٌ ثاني

نظر طاها إلى الحكيم ولم يُعقّب بل ابتسم تلك الابتسامة المهمة الباسلة، ومدّ يده إلى عاطف برسالة ليذيعها على عصره ..

انزوى عاطف مع المرسلين وقرأ الرسالة ..

## الصراع الثقافي في مصر

الصراع في مصر بين قطبين لا يمكن لهما أن يلتقيا إلا بانتصار طرف. قطب الحداثة والقطب التقليدي، فلكل منهما ثقافته التي لن يجيد عنها، لأنهما في تجاذب مستमित، وصراع أعمى يصل إلى الإرهاب وحرب العصابات والقتل والدمار باسم المسامات الدينية.

هذا الصراع في الواقع يقوم أساسًا بين نموذجين معرفيين ينطلق كل واحد منهما من رؤية للحياة مناقضة للأخرى، ولا يمكن لهما أن يتلاقيا تحت أي ظرف. النموذج المعرفي الأول هو الحداثة، والنموذج المعرفي الثاني مناقض للحداثة، ويقوم على أساس محاولة استعادة نموذج تقليدي إسلامي هو الخلافة الإسلامية وفق مشروع إخواني محدد الملامح والسمات.

والحداثة تعني الديمقراطية في المقام الأول، بمفرداتها المعروفة، وهي حرية التفكير وحرية النقد وحرية التعبير وحرية التنظيم والانتخابات الدورية النزيهة، سواء أكانت برلمانية أم رئاسية، لو كان النظام السياسي جمهوريًا. وقبل ذلك كله تداول السلطة.

أما الحداثة الفكرية فتقوم على مبدأ أن العقل هو محكّ الحكم على الأشياء وليس النص الديني.

ولو طبقنا معيار الحداثة الغربية بكل أبعادها لاكتشفنا أننا في العالم العربي أخفقنا لأسباب متعددة في تحقيق الديمقراطية، ولم نستطع أن نحقق الحداثة الفكرية.

ويمكن القول بيقين إن التطرف الأيديولوجي الذي تمارسه الجماعات الدينية مثل جماعة الإخوان المسلمين أو الأحزاب السياسية الدينية الأخرى هو أحد المعوقات الرئيسية للنمو الديمقراطي في العالم العربي. وبعض هذه الحركات التي تمثل التطرف الأيديولوجي قد تندفع إلى ممارسة العنف ضد الدول القائمة، والذي يصل إلى حد ممارسة الإرهاب المنظم سعيًا إلى قلب الأنظمة السياسية القائمة بدعوى أنها لا تطبق شرع الله.

إن المصالحة السياسية مستحيلة في ظل هذا الصراع الثقافي، لأن جماعة الإخوان المسلمين فيما يبدو ليست مستعدة للتنازل عن جميع مفردات مشروعها السياسي الأساسي والذي يتمثل في إقامة دولة دينية، والسعي لإقامة دولة الخلافة الإسلامية، وعدم الاعتراد بمقتضيات الوطنية المصرية ولا بقداسة حدود الدولة والاستئثار المطلق بالحكم، والرفض القاطع لمبدأ تداول السلطة؛ مع أنه ذروة القيم الأساسية للديمقراطية، وتلك هي قمة الصراع الثقافي بين فكر تقليدي عفى عليه الزمن وأيدلوجية حديثة لم تتوقف عن التطور، والتي يطمح إليها الشعب المصري وحتى إلى ما بعد الحداثة وإلى عصر المعرفة. ورغم تعنت الجماعات الدينية وتحجر عقولهم وانغلاق كل أسباب العقلانية إلا أن الدولة القوية هي القادرة على أن تفتح لهم أسباب المدنية والحرية والديمقراطية والكرامة الإنسانية بمفتاح العلم، الذي يبدأ من البنية الأولى لجيل جديد وحشد ثقافي معرفي وانفتاح على العالم الخارجي لتكون فاعلين لا مفعولًا بنا، في مجتمع منتج لا مستهلك لإنتاج الغير، مجتمع متفوق علميًا واقتصاديًا وسياسيًا وثقافيًا، نهل من تراثنا ونعطي لأطفالنا مستقبلًا أفضل دون تعصب ولا تحجر فكري.

لم ينس المصريون في أوج صراعهم مع النظام القديم وفي اللحظات الفاصلة

من هذا الصراع أن يؤكدوا في شعاراتهم وصرخاتهم الطابع المدني للدولة المصرية، الذي أخذت به الدولة المصرية في طورها الحديث منذ محمد علي، ذلك الطابع المدني المتدرج والاقتراس الواعي عن مؤسسات الغرب وثقافته في إطار الاحتفاظ بالخصوصية الثقافية والحضارية والحرص على استنباط ما تم اقتباسه في الثقافة الوطنية، لتسويغ هذا الاقتباس وجعله مقبولاً من عموم المصريين، وذلك عبر التأويل واستنهاض القيم الإيجابية في تقاليدنا وميراثنا الحضاري بالذات في أوج تألقه.

استوعب وعي المصريين في كلمتين حول طبيعة الدولة المصرية وهما: مدينة مدنية، أو بالأحرى كلمة واحدة ترددت عشرات المرات، ذلك التاريخ الطويل للدولة المدنية المصرية في كل حلقاتها منذ بدايات القرن التاسع عشر حتى القرن العشرين، أي طوال ما يفوق القرنين، وأدركوا عبر ترديد هذا الشعار عمق التوازن والائتزان والموازنة التي دأبت جميع التيارات الإصلاحية والحديثة برؤى متباينة على اتباعها وتطبيقها في التربة الوطنية التي نبتت فيها الدولة المصرية الحديثة، ذلك التوازن الذي تأسس على اقتباس المبادئ الحديثة في التنظيم والمعرفة دون تجاهل اعتبارات الأصالة والهوية والخصوصية الحضارية، بين الانفتاح على العصر الحديث والحضارة الحديثة دون التفريط في النواة الثقافية الوطنية المنحدرة من أصول فرعونية وتراكمت تاريخية ودون أن تكون هذه النواة عقبة في الأخذ والاقتراس والاستيعاب والتمثل للجديد الوافد ودون أن يطفى هذا الجديد الوافد على الركائز الثقافية والحضارية القائمة في النسيج الوطني.

ورغم كل ذلك فقد أسفر المسار المصري اليوم والتطورات والأحداث عن صعود فريق من المصريين من ذوى الاتجاه الإسلامي بتنوعاته المختلفة على

تحديد هوية الدولة المصرية وطبيعتها، وتقليص طابعها المدني وتغليب طابعها الديني على ما عداه، ووضع نواة وأساس للدولة الدينية تحت حجج استعادة هوية الدولة وطابعها الإسلامي، واختزال هوية الدولة والمجتمع في بعد ثقافي واحد ألا وهو البعد الإسلامي، وتجاهل طبقات التنوع والهوية والثقافات في التكوين التاريخي والاجتماعي لمصر والمصريين.

ينزع هذا الفريق - بصرف النظر عن درجة تنظيمه وقوته المالية والتعبوية - نحو الاعتقاد بوجود مؤامرة ضد الإسلام والمسلمين، وهذه المؤامرة يقودها الغرب عبر التحديث والحداثة والمفاهيم المتعلقة بحقوق الإنسان، وأن هذه المؤامرة تستعين بأدوات محلية ممثلة في التيارات المدنية والعمالية والليبرالية بهدف تغييب الطابع الإسلامي للدولة والمجتمع.

ولا شك أن هذا النمط من التفكير يتجاهل حقيقة امتداد الغرب في داخل مجتمعاتنا ثقافياً وقيماً، وأنا نتج ونستهلك ما أبدعه الغرب في ثوراته العلمية والصناعية المتعاقبة منذ القرن الثامن عشر، وأنه ليس بمقدور أي مجتمع أن يكتفي ذاتياً في ظل الحضارة الحديثة وأنه يتعين على الجميع الإسهام في تلك الحضارة الحديثة التي تمثل جماع الإسهامات الكبرى للثقافات والحضارات المختلفة.

واعتقد أن تصدر الصراع الثقافي والفكري حول هوية الدولة والمجتمع المشاهد المصري الراهن بحد تفسيره في غياب البرامج والرؤى السياسية والاجتماعية والاقتصادية للحكم والإدارة لدى قوى الإسلام السياسي، أو إدراك هذه القوى لصعوبة تبني سياسات جديدة وجذرية تتقاطع مع السياسات السابقة للموروث الثوري، ومن ثم فإنها ترى أن إنجازها الأكبر قد يكون ذلك الإنجاز المتعلق بالهوية والجانب الرمزي والمعنوي والشعائري والطقوسي، وطالما تستعصي الإنجازات في

المجالات المادية المموسة للمواطنين.

وضعتنا الانتفاضتان الشعبيتان المصريتان العظيمةان بشباههما ووهجهما وشعاراتهما في قلب العصر وقيمه وإنجازاته. وتلك هي ثقافته وتضعنا الرؤى الأحادية الضيقة والبسيطة على مشارف الخروج من العصر وتلك هي ثقافته. وسيستمر ذلك الصراع الثقافي حتى تكتمل مؤسسات الدولة وتصبح دولة قوية تحكم مصر برلمانياً ديمقراطياً، وتفصل بين الدين والدولة. وتدور عجلة التنمية التي هي ليست مادية فقط بل فكرية في المقام الأول.

إن التنمية ليست مجرد حدث اقتصادي بل هي حدث فكري كذلك، يرتبط بالأفكار ويتفاعل معها ويؤثر فيها، وبدرجة أكبر يتأثر بها، وذلك يعني أن الواقع الثقافي والاجتماعي المصري بكل مقدراته الدينية يمثل عنصر تأثير بارز في مسيرة تلك التنمية.

إننا أمام مستويين من التفكير: التفكير الاجتماعي، وتفكير الدولة ... وداخل التفكير الاجتماعي تقع عدة مستويات ما بين محافظة وتقليدية، وأخرى تحديثية منفتحة ومدنية. ومن الواضح أن التفكير المدني والتحديثي هو الأنسب للدولة والأكثر قدرة على مسايرة إيقاعها التنموي، بل وعلى إيجاد ذراع نظري للتنمية وبناء الدولة، إلى الدرجة التي يصبح معها دور الدولة وكأنه خاضع لنوع من الرقابة والمتابعة من قبل مستوى التفكير الاجتماعي المدني، والذي يوصف غالباً بأنه تفكير النخب الثقافية.

الدولة من طبيعتها أنها ذات واقع متحرك قادر على بناء المقومات المتغيرة للدولة الحديثة التي تمثل التنمية بالنسبة لها شرطاً وجزءاً من شخصية الكيان وهويته واستقراره. من هنا يبدأ الصراع الثقافي.

إن مَنْ يدير الآن كل عمليات التطوير في الواقع هو الدولة وليست النخب الثقافية، لسبب يسير جدًا هو أن هذا ما يجب أن تفعله وتقوم به الدولة أصلاً. لتنبش في موازاة ذلك حالة من الصراع الفكري بين التيارات الاجتماعية، كل حسب مستوى فكره ورؤيته، فالأذهان التقليدية ترى في كثير من مستجدات التنمية مساسًا بالقيم التي تراها تعبر عن ذاتها وعن وجودها، بينما تتجه الأذهان التحديثية المدنية لمواصلة الدفع والتحفيز للدولة باتجاه إكمال مختلف منظوماتها التنموية، لينشب بعد ذلك وجهٌ آخر للخلاف، وهو خلاف على ادعاء موافقة الدولة. فالحدائي والمدني كلاهما يرى أن ما يقوم به نوع يهدف لدعم كيان الدولة والحفاظ عليها، بينما يرى التقليدي والمحافظ أن ما يقوم به أيضًا يهدف إلى ذات الغرض، والأخير يعترف باستقرار الدولة على أنه الالتزام بما يراه هو من قيم وثوابت.

إن التنمية تحتاج لخطاب ثقافي قادر على الدفاع عنها. لأن غيابها يسهل على تيارات الممانعة من التقليديين الاستمرار في هجاء التنمية وإدانتها قيمًا ودينيًا، وهو ما يُرسخ في أذهان البسطاء صورة سلبية لبعض مؤسسات الدولة.

وعلى الدولة أن تتجه فكريًا إلى الجماهير؛ لأنهم يتفوقون معها على واقعية التنمية، بغض النظر عن خلافات النخب على أفكار التنمية، وهذا ما يحدث بالفعل.

إن الحرية وتوسيع دائرة الخيارات الاجتماعية أبرز شروط التنمية، والتنمية أبرز شروط تقدم الدولة، وعامة الناس والذين يمثلون الشريحة الاجتماعية هم الأكثر إقبالًا واستفادة من كل خطوات التنمية. وبالتالي مثلما تدافع مؤسسات الدولة عن التنمية فيجب أن توجد خطابًا فكريًا ثقافيًا لتدافع عن صواب التنمية ورؤيتها لتحدد من الصراع الثقافي في مصر.

تمت الرواية ولم ينته فكر طاها حسين

obeikandi.com

obeikandi.com

## خاتمة كلمة المؤلف

تبدو اليوم - أكثر من أي وقت مضى - حاجتنا لأن نقرأ من جديد ما أنتجه عميد الأدب العربي الدكتور طaha حسين عل تلك الرؤية تأخذ مسارًا جديدًا في حياتنا، بعدما أصبح ما يجري في الواقع بعيدًا عن العقلانية، بعيدًا عن الحرية، بعيدًا عن أي مستقبل واضح، سواء على الصعيد السياسي أم على الصعيد الثقافي والفكري في علمنا العربي.

ومن هنا تأتي أهمية الكتابة عن طaha حسين، فالحاجة تشتد إلى الحرية والديمقراطية والعقلانية، هذه الأقاليم الثلاثة التي كرس العميد حياته لها، والتي أصابه في الدفاع عنها ما أصابه.

ويبدو أيضًا أن المأساة الحقيقية التي كان الدكتور طaha حسين يعيشها تلك التي تتمثل في أن الطبقة التي يفترض أن تتبنى مشروعه التنويري وهي الطبقة البرجوازية المصرية، كانت طبقة منحطة ومرتدة وتابعة، و لهذا خذلت مشروعه.

لكن المأساة الحقيقية لا تخص طaha حسين الذي استطاع أن يتحمل الإهمال ويواصل عمله، بل تخص القوى التقدمية العربية التي لم تفهم مبكرًا أن هذا المشروع التنويري ينبغي أن يكون مشروعها، وأن عليها تبنيه وتطويره، بدلًا من التنكر له ومحاولة تغييبه على حد قول الأديب والفيلسوف سعد الله ونوس.

لقد تجلى دفاع الدكتور طaha حسين في كل ما كتب عن العقلانية والعلمانية والحرية والديمقراطية، فقد استطاع أن ينقل النظرة إلى التراث من النظرة التي تقديسه إلى نظرة تسمح بأن نعيد قراءة التراث العربي، ونفتح باب الأسئلة على مصراعيه، و نحن نقرب صفحات هذا التراث وأحداثه، فقد أخضع الشعر

الجاهلي إلى تلك المساءلة، يقول: (نعم! يجب حين نستقبل البحث عن الأدب العربي وتاريخه أن ننسى قوميتنا وكل مشخصاتها، يجب ألا نتقيد بشيء ولا ندعن لشيء، إلا لمنهج البحث العلمي الصحيح).

وهكذا كان الهم الأول للدكتور طاها حسين أن يفتح الحقل المعرفي في ثقافتنا، ليعزز الحرية ووعي الذات وإمكانية التقدم.

ورغم ما تعرّض له من هجوم عنيف من المؤسسات، فإنه ظل مُصرّاً على رؤيته في فصل الدين عن الدولة، وسيادة العلمانية في البلاد العربية، مؤمناً بوحدة الثقافة الإنسانية، (هذه الوحدة التي لا تلغي الخصوصية الوطنية، بل تثريها وتوسع آفاقها). ولعله في هذا إنما كان يرد على بعض الأطروحات التي ظهرت في الغرب حين رأى بعضها أن العقل الأوروبي متفوق بذاته، وأن العقل الشرقي متخلف بذاته أيضاً (فالثقافة الإنسانية هي ملك للبشرية، ولا يمكن أن تتعارض الخصوصية مع الانفتاح على الثقافة العالمية والاستفادة منها). وفي سلوكه مثلاً جمع الفكر مع الممارسة، فسلكه في حياته لا ينفصل أبداً عن رؤيته، رغم كل المضايقات التي عاشها.

لقد ظل مُصرّاً على مواقفه، وكانت الثقافة بالنسبة إليه معركة ينبغي أن يخوضها بكل السبل وفي أي اتجاه.

كان يؤمن بأن عليه أن يحرر العقول العربية، وأن يُحدّث المجتمع، مع إيمان بقدرة الطليعة الثقافية على أن تلعب دوراً في هذه المسيرة. ومن ذلك نظرته إلى التاريخ الإسلامي، إذ استطاع أن يحلل أحداثه و مآسيه بكل موضوعية، وينظر إليه على أنه وقائع تاريخية لها مسيبتها ومنطلقاتها الفكرية والاقتصادية والاجتماعية.

فالفتنة الكبرى (لم تكن فجوة زمنية تخلى فيها الله عن الأمة العربية، وإنما كانت صيرورة تاريخية موضوعية يجب أن تدرس، وأن يُحدّد موقعها في تاريخ متواصل من الازدهار والتقهقر). وكان بذلك يعيد تأكيد أن الماضي ليس خيّرًا تمامًا ومقدسًا، ليس لحظة أبدية يكفي التمسح بها كي ننجز نهضتنا ونغدق على البشرية رسالتنا الخالدة، بل هي "وسيلة من الفعل والاختيار الإنسانيين"، على حد قول سعد الله ونوس.

ففي حركة تاريخية ينبغي أن نعي تحولاتها، وأن نعيد قراءتها في ضوء حاضرنا وجديدنا الفكري.

وبحسب النقدي والتنويري عرف طاها حسين أن التقدم لا يمكن أن يكون دون إحساس عقلائي، وهذه العقلانية شرطها الأساسي والموضوعي العلم وتجديد الرؤية، وهذا العلم لا يمكن أن ينتشر ويزدهر ويصبح حاجة ملحة للمجتمع دون حرية تغمر حياة الناس كي يعرفوا طعم حياتهم وجمالها، وينطلقوا منها إلى آفاق أكثر رحابة. وبذلك فإن هذه الحرية مشروطة أيضًا بتقبل الآخر وبعلمانية المجتمع، وهذه مشروطة بتحديث الدولة وإشاعة الديمقراطية.

وهكذا فإن هذه السلسلة التتابعية في فكر طاها حسين هي جزء أساسي من مشروعه التنويري الذي يقوم على العقلانية والحرية والديمقراطية.

يقول الدكتور طاها حسين في كتابه: "مستقبل الثقافة في مصر": "و نحن إذا أردنا أن نختصر الأغراض الأساسية التي يجب على الديمقراطية أن تكفلها للشعب، لم نجد أوجز ولا أشمل ولا أصح من هذه الكلمات التي ذاعت في الديمقراطية الفرنسية منذ عامين، وهي أن النظام الديمقراطي يجب أن يكفل لأبناء الشعب جميعًا الحياة والحرية والسلام، و ما أظن الديمقراطية تستطيع أن

تكفل غرضًا من هذه الأغراض للشعب، إذا قصرت في تعميم التعليم الأولي، وأخذ الناس جميعًا به طوعًا أو كرهًا، ومن الطبيعي أن الحياة التي يجب أن تكلفها الديمقراطية للناس إنما هي الحياة القابلة للتطور والرقي من ناحيتها المادية، ومن ناحيتها المعرفية.

وبذلك ندرك أن الدكتور طاها حسين قد سعى إلى استلهام النموذج الأوروبي في فترة عصيبة، ورفع راية العلم والتنوير لمحاربة التبعية والتأسيس لنظام اجتماعي عقلائي، يتحرر من التبعية، ومن ثم لتحرير العقل والإنسان (فالشعب ليس معرضًا للخطر الذي يأتيه من الخارج حين يغير عليه الأجنبي الطامع فحسب، ولكنه معرض للخطر الذي يأتيه من الداخل حين يفتك الجهل بأخلاقه ومرافقه، ويجعله عبدًا للأجنبي المتفوق عليه في العلم).

وبذلك فإن الدكتور طاها حسين لا يستورد بل يتعلم من الآخر المتفوق عليه، أو لنقل يحاول التعلم.

وبذلك يمكن القول: إن الرؤية المنهجية التي اختارها طاها حسين أو التي انطلق منها وانحاز إليها ما تزال تشكل أهم إسهام قدمه الفكر العربي الحديث في مواجهة المجتمع التقليدي، بل ما تزال هي الطريق الذي لن يبلغ المجتمع العربي أهدافه في التحديث والمعاصرة إلا إذا أنجز العقل العربي والمجتمع العربي تحقيق تلك الرؤية المنهجية في قلب الحياة العربية على اختلاف مستوياتها، بدءًا بتحديث العقل، وانتهاء بتحديث المجتمع.

دعوة الدكتور طاها حسين دعوة إلى تطهير الذهن من الافتراضات المسبقة، والارتداد بالذهن إلى نوع من البراءة التي تجعل الذهن ينظر إلى موضوعه بطريقة تحرره من كل الموروث، وبذلك فحق الإنسان مطلق في مراجعة التاريخ، ونقده

وتفكيكه والحكم عليه بمعيار إنساني واحد. هو الوعي بأن الراهن نسبي. إن حلم طاها حسين بدولة علمانية وديمقراطية تحقق العدالة والمساواة بين أبنائها، ويشعر كل منهم بأنه مواطن، يشعر الجميع بقيمته وبحريته ما زال قائماً وما زال حياً.

ومشروعه الفكري ما زال قادراً على أن يكون تنويرياً بقدر ما نستطيع قراءته وتطويره، وبقدر ما تجاوز طاها حسين معاصريه في قراءة الواقع والتراث علينا أن نستفيد من منهجه لكي نقرأ واقعنا قراءة مبنية على العلم والمعرفة.

فهل نفكر في أسئلة طاها حسين ونحن نواجه ما نواجه؟ وهل نستطيع أن ننطق من تلك الأسئلة لنقرأ واقعنا قراءة تجعلنا نعرف أكثر؟

وهل ندرك أن أسئلة طاها حسين ما زالت تحتاج إلى من يحاول الإجابة عنها؟ تلك أسئلة، فهل تصادف من يسمعها؟

تمت

بمدينة هيفر هيل - ماساتشوستس الولايات المتحدة الأمريكية\2014

المراجع :

- في الأدب الجاهلي

- حديث الأربعاء

-مجلة المجلة

-خصام ونقد

-حافظ وشوقي

-حديث الأربعاء

-الأيام

-من أدبنا المعاصر

-في الأدب الجاهلي

-من حديث الشعر

-الكاتب محمد كيلاي

-مجلة الملاك

الشاعر نزار قباني

-مستقبل الثقافة في مصر

-مجلة الآداب الفرنسية

-الكاتبة غادة خليفة

-أندريه جيد

-سوزان برسيو

-الكاتب حسين فوزي

-رفاعة رافع الطهطاوي

-عبد الله القصيمي

-رينيه ديكرت

-أبو العلاء المعري

-صوت باريس

-جان بول سارتر

-جان جاك روسو

-مجلة أمواج إسكندرية

-مجلة عكاظ

-من بعيد

-مكتبة جامعة السربون

-المكتبة القومية الفرنسية - باريس

-مكتبة جامعة ممبليه

-الكاتب صلاح الدين محسن

-توفيق الحكيم

-طاها حسين

## السيرة الذاتية

\*محمد يوسف عبده، وشهرته: عاطف يوسف

\*ولد بالإسكندرية عام 1943

\*درس في كلية التجارة جامعة الإسكندرية عام 1968

\*هاجر إلى فرنسا عام 1972 ودرس الاقتصاد بجامعة السربون

\*عمل في وزارة الثقافة الفرنسية.

\*انتقل عام 1997 إلى الولايات المتحدة الأمريكية

\*درس الأدب الأمريكي

\*المقايضة بجامعة هارفارد

\*عمل أستاذاً في الاقتصاد والتجارة الخارجية

\*صحفي ومراسل

\*من أعماله الأدبية التي نشرت باللغة العربية في مصر :

- رواية الجدع عن مركز الإسكندرية للكتاب

- الطبعة الثانية من رواية الجدع - تحت الطبع

- الأنسة شروق عن دار سندباد للنشر

- العربي عن دار سندباد للنشر

- العرضحاجلي أو في انتظار فرج
- العرضحاجلي الطبعة الثانية عن دار الأدهم - القاهرة
- ثلاث مسرحيات باللغة العربية
- مسرحية غنائية باللغة العربية
- السيمفونية الخالدة
- الجزء الأول الحكيم دار الأدهم
- الجزء الثاني طاها في باريس، لم يصدر بعد
- الجزء الثالث رفاعة في باريس، لم يصدر بعد
- للتواصل مع الكاتب :

العنوان الإلكتروني

Atef.youssef.usa@gmail.com

جولة بالخييل على جبال فرانكونيا قرب حدود الولايات المتحدة مع كندا

مع تحيات عاطف يوسف

obeikandi.com

obeikandi.com